

**بين العقل والقلب
الاعجاز المبين**

الكتاب: بين العقل والقلب الاعجاز المبين
الكاتب: د. ماهر جميل بايزيد
الطبعة الأولى: 2020
جميع الحقوق محفوظة للمؤلف
موافقة وزارة الاعلام السورية على الطباعة
رقم/117819 / تاريخ 2020/2/11
دار المرساة للطباعة والنشر والتوزيع
سورية- اللاذقية: 0936482050

د. ماهر جميل بايزيد

بين العقل والقلب الاعجاز المبين

مقدمة الكتاب

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وتسدد القلوب والتصرفات، أما بعد :

فقد أكرمني الله عزَّ وجل، وله الفضل والمنة، أن أخرجت هذا الكتاب، ومكثت في تأليفه تسعة أعوام، أولى بدايات هذا الكتاب كانت فكرة راودتني كثيراً تقول أن القرآن الكريم يخاطب أهل العقول الذكية في كل موضع وموضوع، يحض العقل على تدبر آياته وفهم معجزاته الفكرية والعقلية، وفهم أحكامه وتعقلها، لأن العلم والمعرفة أداة العقل، فبحث عن علاقته بحمل أمانة التكليف، وتمييزه الحسن من القبيح، فالإنسان خلق ليعرف الله عزَّ وجل عبر خطاب الشرع، ليخرج العبد من داعية هواه، ليكون عبداً خاضعاً عن طواعية، ومستسلماً لله عزَّ وجل.

هنا تكمن عملية الابتلاء في الضبط العقلي للنفس، لردع أهوائها وشهواتها المنحرفة، فيرفض الدنيا وقبائح الأعمال والتصرفات، ويحرس الحقوق والحدود، فالنفس تهوى ما يضرها ولا ينفعها، لأنها ميالة للأنا والاستعلاء، فلا بد من تمحيص وتنقية الأفكار الواردة إليه، فيعقل ما ينفعه من الخير، وينعقل به عما يضره، فصالح الدين والدنيا لا يتم إلا باستقامة النفس وطهرها، لكي تتبعد عن فاحشة الخنا، ورجس الهوى، بخضوعها للنقل والعقل، لترتقي لمرتبة النفس المطمئنة (فالإنسان لا يعاب في طبعه، إنما يعاب إذا فعل ما في طبعه).

فتعالوا معاً نبحث في العقل المسموع والمطبوع في القرآن الكريم وسنة رسوله محمد ﷺ، وكما قال الإمام عليّ كرم الله وجهه:

أبَتِ الْعَقْلَ عَقْلِيهِ فَمَطْبُوعٌ وَمَسْمُوعٌ
وَلَا يَنْفَعُ مَسْمُوعٌ إِذَا لَمْ يَكْ مَطْبُوعٌ
كَمَا لَا تَنْفَعُ الشَّمْسُ وَضَوْءُ الْعَيْهِ مَمْنُوعٌ

وقبل أن نتعرف على الكتاب، اسمحوا لي أن أقدمه إلى سيد البشرية محمد ﷺ الذي أدبه الله فأحسن تأديبه، وزكى أوصافه وأخلاقه وجعله صفيه، وحببيه، وإلى روح والديّ رحمهما الله.

د . ماهر جميل بايزيد

انحطاط فكر الإنسانية

وأثر الإسلام في التغير الفكري عند العرب

ساد الظلام الدامس على الإنسانية في كثير من مراحلها، حيث عمت الفوضى في القيم الروحية والفكرية، نتيجة عبث المتلاعبين والمشعوذين وسطوتهم على المراكز الروحية في أنحاء المعمورة، أدت بكثير من الناس إلى مرتع الجهل والوهم والخرافة.

لو اتجهنا إلى بلاد فارس فكانوا يتعبدون بعض الظواهر الطبيعية على أنها آلهة، حتى سمو الشمس «عين الله»، والضوء «ابن الله»، واتخذوا النار رمزاً لآلهة الخير يشعلونها في معابدهم.

ويعتبر "زرادشت" ملهم لهذه الديانة «أفستا» فقال: ((إنه دعا إلى التوحيد وأبطل الأصنام، وقال إن نور الله يسطع في كل ما يشرق ويلتهب في الكون، وأمر بالاتجاه نحو جهة الشمس والنار ساعة الصلاة، لأن النور رمز إلى الإله، وأمر بعدم تدنيس العناصر الأربعة وهي: النار والهواء والتراب والماء))⁽¹⁾.

جُهلَت الحقيقة بتعطيل الفكر وبلادة العقل لكثرة الخرافة والشعوذة، ففي الهند أصبحت البقرة ونهر الغانج والأجرام السماوية آلهة تعبد.

¹ - علي الحسيني أبو الحسن الندوي: ماذا خسر العالم، دار القلم، ص 60.

وهكذا أصبحت الديانة خليطاً من الأوهام والخرافات، بل ويتفننون في الإسراف على معابدهم وإظهارها بأجمل حلة، وبالْحَقِيقَة هم يغطون هذه الخرافات بإظهار الزينة والمهابة على معابدهم.

أسئلة مطروحة... ١٩.

✓ هل العرب كانوا أحسن حالاً من هؤلاء؟

✓ ما أثر الإسلام في التغيير الفكري للعرب؟..... تعالوا نتابع معاً.

إن الضعف في تحليل الحوادث يعلل لنا التجاء العرب القدامى إلى الكهنة والعرافين لتفسير الحوادث وتحليلها.

الذي يعمل على تكوين عقلية الشعوب عاملان قويان، البيئة الطبيعية، وأدواتها: الجبال، الصحراء، البحار، التي تحيط بها، والبيئة الاجتماعية وأدواتها: المعتقدات والعادات والتقاليد والأعراف ونظام القبيلة كلها تؤثر على تكوين العقلية للإنسان، والذي يحرك كل هذه الأدوات هي اللغة وهي الحاضنة للموروث الشعبي والثقافة والفكري لأي أمة.

وقديماً قالوا: ((إن الشعر ديوان العرب))، سجلت فيه عاداتهم وأخلاقهم وعقائدهم ومعاركهم، والمعلقات السبع والشعر الجاهلي خير تمثيل لهذا السجل. ولو تقصينا أحوالهم الفكرية قبل الإسلام لوجدنا أنها تعتمد على حمية الجاهلية. والجاهلية هنا ليست من الجهل الذي هو ضد العلم، بل هو الغضب والأنفة والحمية وحب المفاخرة وهذا ما سجلها شعرهم ولذا سمي بعصر الجاهلية.

بهذه الحمية الجاهلية وضعف خيالهم لضعف تجديد الصور الذهنية لديهم. ولكثرة الصور النمطية والانطباعات القديمة نتج عن ذلك كله ضعف تفسير الحوادث وتعليلها مما زاد من أميتهم.

ويصف "ابن خلدون" حالة العرب الجاهلية أنهم: ((أصعب الأمم انقياداً بعضهم لبعض للغلظة والأنفة وبعد الهمة والمنافسة في الرياسة، فقلما تجتمع أهواؤهم، فإذا كان الدين بالنبوة أو الولاية كان الوازع لهم من أنفسهم وذهب حُلق الكبر والمنافسة منهم، فسهل انقيادهم واجتماعهم، وذلك بما يشملهم من الدين المذهب للغلظة والأنفة الوازع عن التحاسد والتنافس.

فإذا كان فيهم النبي أو الولي الذي يبعثهم على القيام بأمر الله، ويذهب عنهم مذمومات الأخلاق ويأخذهم بمحمودها، ويؤلف كلمتهم لإظهار الحق، ثم اجتماعهم وحصل لهم التغلب والملك، وهم مع ذلك أسرع الناس قبولاً للحق والهدى لسلامة طباعهم من عوج الملكات وبراءتها من ذميم الأخلاق، إلا ما كان من خلق التوحش القريب المعاناة المتهيي لقبول الخير، ببقائه على الفطرة الأولى، ويُعدّه عما ينطبع في النفوس من قبيح العوائد وسوء الملكات))⁽¹⁾.

فيظهور الإسلام فيهم ومن ظهرايهم أدى لحدوث انقلاب في جميع مفاهيمهم السائدة وخاصة العقائدية، واستبدلت الصورة الذهنية وتتشطنت نتيجة تدفق ينابيع العلم والمعرفة فكانت ثورة فكرية غيرت مفاهيمهم وعاداتهم وصححت أخلاقهم وطهرت قلوبهم من المعتقدات والأوهام والخرافات البائدة المتحجرة بعقولهم.

وبسبب هذا النور الساطع الذي أعات الله عز وجل به العرب والإنسانية جمعاء من ظلام الجهل، إلى نور الإسلام تفتحت عقولهم وانقلبت مفاهيمهم رأساً على عقب، واصطبغوا بصبغة الإسلام.

¹ - عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون: المقدمة، ص140، طبعة المكتبة العصرية.

فالانتقام والأخذ بالثأر لم يعد خيراً للخصال، بل حمية الجاهلية تحولت إلى خضوع واستسلام لله والانقياد لأمره.

فزادت قيم التسامح والتآلف بينهم وأحيت قلوبهم:

○ قال تعالى: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُينَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ الأنعام/122.

نور الإيمان أضاء عقولهم وبدأ التغيير من داخل النفوس، وعنه ﷺ قال في خطبة الوداع، (يا أيها الناس إن الله تعالى أذهب عنكم نخوة الجاهلية وفخرها بالآباء، كلكم لآدم وادم من تراب، ليس لعربي على أعجمي فضل إلا بالتقوى^(١)).

وعنه قال ﷺ: ﴿لَيْسَ مِنَّا مَنْ دَعَا إِلَى عَصِيَّةٍ، وَلَيْسَ مِنَّا مَنْ قَاتَلَ عَلَى عَصِيَّةٍ، وَلَيْسَ مِنَّا مَنْ مَاتَ عَلَى عَصِيَّةٍ﴾^(٢).

تعالوا معاً نستعرض في لقطة سريعة الحوار الذي دار بين النجاشي ملك الحبشة وبين جعفر بن أبي طالب عندما ذهبوا إليه فراراً لدينهم.

فسألهم النجاشي: ((ما هذا الدين الذي قد فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا به في ديني ولا في دين أحد من الملل؟)).

فكان الذي تكلم جعفر بن أبي طالب فقال: ((أيها الملك: كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا نعرف نسبة وصدقته وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان.

¹ - أبو داود سليمان بن الأشعث الأزدي: سنن أبو داود، رقم/5116.

² - أخرجه أبي داود برقم/5121.

وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم، ونهانا عن الفواحش...
فصدقناه وآمنا به، واتبعناه على ما جاء به من الله...^(١).

إن أثر الإسلام كان عظيماً وآثاره عمت الحياة العلمية والمعرفية، والنفس ناطقة
لأحوال صاحبها وبالعزيزية والإصرار اقتبسوا العلم والمعرفة والمتابعة وبالممارسة
تشربت قلوبهم العلم وصبروا على قلة الحيلة لكي يتمكنوا ويتعودوا على هذا
التغيير.

((والمزاوات تعطي الملكات، ومعنى هذا أن من زاول شيئاً، واعتاده وتمرن عليه،
صار ملكة له وسجية وطبيعة، وقالوا: والعوائد تنقل الطباع، فلا يزال العبد
يتكلف الصبر، حتى يصير الصبر له سجية، كما أنه لا يزال يتكلف الحلم والوقار
والسكينة والثبات، حتى تصير له أخلاقاً، بمنزلة الطباع))^(٢).

((والملكات لا تحصل إلا بتكرار الأفعال لأن الفعل، يقع أولاً وتعود منه للذات صفة،
ثم تتكرر فتكون حالاً، ومعنى الحال أنها صفة غير راسخة، ثم يزيد التكرار فتكون
ملكة أي صفة راسخة))^(٣).

عرفوا أنهم طليعة هذه الأمة فجاهدوا أنفسهم وصبروا وتحملوا المشاق فتغيرت
النفوس والطباع والعادات ونهلوا من علوم القرآن وسنة المصطفى عليه السلام،
وفتحوا الأقطار والبلدان وامتزجت الثقافات واللغات والعلوم واتسعت مداركهم
العقلية ووعيتهم ومعرفتهم عندها تبلورت خصوصية الأمة وحضارتها.

ففضل الإسلام على العرب كفضل الشمس على الأرض وفضل الماء على التراب.

¹ - أبي محمد عبد الملك بن هشام المعروف بـ ابن هشام: السيرة النبوية، ص 330.

² - شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الشهير بابن قيم الجوزية: عدة الصابرين
وذخيرة الشاكرين، ص 18.

³ - مقدمة ابن خلدون، ص 554.

فتعالوا نبأ:

✓ لماذا خُلق الإنسان عاقل؟.

✓ ماذا تعني كلمة العقل؟.

✓ ما حقيقة العقل؟.

خلق الإنسان العاقل

منذ أن خُلِقَ الإنسان أعطيت له قيمة عظيمة وشرف تشریفاً كبيراً وهُيئت الأرض لاستقباله:

- قال تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ البقرة/30.
- خلق الله عزَّ وجلَّ آدمَ ونفخ الروح فيه، ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ الحجر/29.

بهذه النفخة الروحية أصبح للإنسان قبساً من نور الله فاستحق بهذا القبس النوراني أن تميز عن بقية الكائنات وارتقى إلى أعلى مراتب الكمال والتفضيل، قال تعالى: ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ الإسراء/70.

هذا الإنسان يحمل ثنائية متناقضة: أصل ترابي - أرضي - وأصل روحي - علوي.

ولا يمكن أن تستقر لولا وجود ضابط بينهما هو العقل الذي به تميز الإنسان عن بقية المخلوقات ليميز بين الحق والباطل وليكون قادراً على حمل أمانة التكليف بالإعمار والاستخلاف في الأرض ويسعى لمعرفة خالقه فيعبده حق العبادة إنها صورة من صور الإعزاز والتكريم.

○ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ الإسراء/70.

أي لقد شرفنا ذرية بني آدم على جميع المخلوقات بالعقل والعلم والنطق، وتسخير جميع ما في الكون لهم⁽¹⁾.

لكن هناك من وقف بالمرصاد لهذا الإنسان منذ لحظة وجوده، إنه إبليس اللعين، رفض أمر الله عز وجل بالسجود لآدم سجود تحية وتكريم لأنه استكبر و أبى؛ ففسق عن أمر ربه.

واستهان الشيطان بخلق الله آدم وعصى أمره تعالى فكانت عاقبته أن طرد من رحمته وخرج من النعيم الذي كان فيه : ﴿قَالَ فَأَخْرَجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ 34 ﴿وَأَنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ الحجر/35.

بدأت المعركة بين الإنسان المكرم من الله تعالى وإبليس المطرود من رحمة الله، معركة بدأت من هذه الكلمات:

○ ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ الحجر/39.

المعركة بين الحق والباطل متصلة إلى قيام الساعة، إبليس أعلن الحرب ظاهرة وباطنه، مكشوفة ومستورة على آدم وذريته، أسلحته بث الإغواء والرذيلة والوسوسة، والوعود الباطلة لكن جاء الرد سريعاً من الحق تبارك وتعالى:

○ ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ الحجر/42⁽²⁾.

¹ - عبد الرحمن الصابوني: صفوة التفاسير، ص 652.

² - د. ماهر بايزيد: لنين منظومتنا الأخلاقية، ص 23.

لقد أبدع الله عزّ وجلّ هذا الكون وسخره من أجلك أيها الإنسان إنك
المخلوق الوحيد على الأرض الذي باستطاعته قهر كل المخلوقات التي عليها، لكن
لا تنسى الحكمة والغاية الحقيقية من وجودك أن تتعرف إلى الله عزّ وجلّ وأن
تخضع له.

الفرع الأول

ماذا قيل عن العقل

يقول الرازي في مختار الصحاح عن مادة العقل: ((الحجر والنهي، و«تعقل» تكلف العقل، مثل تحلم وتكيس))^(١).

يقول "الفيروز آبادي" في قاموس المحيط: ((العقل: العلم بصفات الأشياء، من حسنها وقبحها، وكمالها ونقصانها، أو العلم بخير الخيرين، وشر الشرين، أو القوة بكون التميز بين القبح والحسن))^(٢).

يقول "راغب الأصفهاني": ((وأصل العقل الإمساك والاستمساك كعقل البعير بالعقال))^(٣).

ويقول "أحمد المقري": ((العقل: غريزة يتهيأ بها الإنسان إلى فهم الخطاب))^(٤).

ويقول "زكي نجيب محفوظ" عن العقل: ((اسم يطلق على فعل من نمط ذي خصائص يمكن تحديدها وتميزها، والفعل ضرب من النشاط يعالج به الإنسان الأشياء على وجه معين)).

¹ - محمد بن زكريا أبو بكر الرازي: مختار الصحاح، ص 395-396.

² - مجد الدين الفيروز آبادي: قاموس المحيط، ص 1336.

³ - أبو القاسم الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن، ص 345.

⁴ - أحمد بن محمد الفيومي المقرئ: معجم المصباح المنير، ص 263.

العقل ليس له وجود لفظي في القرآن، إنما جاء بصيغة فعلية: (يعقلون- وتعقلون- وما يعقلها إلا العالمون) هذا دليل هام على أن وظيفته فعلية إجرائية.

وقد أحصيت مفردة "عقل، بتصريفاتها المتنوعة من كتاب المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم لـ محمد فؤاد عبد الباقي⁽¹⁾ فكان المجموع ثماني وأربعون مرة، وقمت بتقسيمها إلى تسع مجموعات حسب تكرارها ونوعها .

- المجموعة الأولى (أفلا تعقلون) تكررت ثلاث عشرة مرة.
- المجموعة الثانية: (لا يعقلون) تكررت إحدى عشرة مرة.
- المجموعة الثالثة: (لعلكم تعقلون) تكررت ثماني مرات.
- المجموعة الرابعة: (لقوم يعقلون) تكررت ثماني مرات.
- المجموعة الخامسة: (يعقلون) تكررت مرتين.
- المجموعة السادسة: (إن كنتم تعقلون) تكررت مرتين.
- المجموعة السابعة: (يعقلون) تكررت مرتين.
- المجموعة الثامنة: (تعقل) مرة واحدة.
- المجموعة التاسعة: (ما عقلوه) مرة واحدة.

وكثيرة هي الكلمات والمعاني المرادفة لمعنى العقل في القرآن تعود إلى اختلاف وظائف العقل منها التفكير، القلب، الرشد، الحكمة، التفقه، النظر، البصيرة، الرأي، العلم، التذكر، الاستنباط، الحجر، النهي، الأحلام، أولو الألباب، أولو الأبصار والتدبر، هذه بعض الألفاظ التي تعطينا لمحة سريعة عن وظائف ومهام العقل.

¹ - محمد فؤاد عبد الباقي: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، دار الحديث، القاهرة، ص575.

أقوال العلماء والأدباء عن العقل:

يقول عباس محمود العقاد: ((في مدلول لفظه العام ملكة يناط بها الوازع الأخلاقي أو المنع في المحذور والمنكر، ومن هنا كان اشتقاقه من مادة «عقل» التي تؤخذ منها العقل، وتكاد شهرة العقل بهذه التسمية أن تتوارد في اللغات الإنسانية الكبرى التي يتكلم بها مئات الملايين من البشر، فإن كلمة Mind وما خرج من مادتها في اللغات الجرمانية تفيد الاحتراس والمبالاة وينادى بها على العاقل الذي يحتاج إلى التنبيه والاحتراس))⁽¹⁾.

قال الماوردي في العقل:

((اعلم أن لكل فضيلة أسأ «أصلاً» ولكل أدب ينبوعاً، وأسّ الفضائل، وينبوع الآداب، هو العقل الذي جعله الله تعالى للدين أصلاً، وللدنيا عماداً، فأوجب التكليف لكماله، وجعل الدنيا مدبرة بأحكامه وألف به بين خلقه، مع اختلاف همهم وآريهم، وتباين أغراضهم ومقاصدهم، وجعل ما تعبدهم به قسمين: قسماً وجب بالعقل، فوكده الشرع، وقسماً جاز في العقل فأوجبه الشرع، فكان العقل لهما عملاً))⁽²⁾.

ويقول الشيخ محمد الغزالي عن مكانة العقل في الإسلام:

((إن حدة الذكاء، ويقظة الفكر، واستتارة الرأي: عناصر لا بد منها في تكوين الإيمان الصحيح، فإن الإيمان معرفة بلغت حد اليقين وانتفت معها الريبة، وحيث لا يوجد الإدراك الواضح والفهم الناضج يصبح اليقين غير ذي موضوع... فالعقول

¹ - عباس محمود العقاد: التفكير فريضة إسلامية، ص4.

² - علي بن محمد البصري أبو الحسن الماوردي: أدب الدنيا والدين، ص11، نسخة دار ابن كثير.

الذكية وحدها هي التي تستطيع اختراق أسرار الكون ومعرفة آيات الله في شتى
الأمكنة والأزمنة)).

بين الإمام أبو حامد الغزالي حقيقة العقل فقال: ((والحق الكاشف للغطاء
فيه أن العقل اسم يطلق بالاشتراك على أربعة معان:

فالأول: الوصف الذي يفارق الإنسان به سائر البهائم، وهو الذي استعد به لقبول
العلوم.

والثاني: هي العلوم التي تخرج إلى الوجود في ذات الطفل المميز بجواز الجائزات
واستحالة المستحيلات كالعلم بأن الاثنين أكثر من واحد.

والثالث: علوم تستفاد من التجارب بمجاري الأحوال، فإن من حنكته التجارب
وهذبته المذاهب يقال إنه عاقل في العادة، فهذا نوع آخر من العلوم يسمى عقلاً.

والرابع: أن تنتهي قوة الغريزة إلى أن يعرف عواقب الأمور ويقمع الشهوة الداعية
إلى اللذة العاجلة ويقهرها، فالأولان بالطبع والأخيران بالاكْتِسَاب.

ولذلك قال علي كرم الله وجهه:

فمطبوع ومسموع

أبى العقل عقليه

إذا لم يك مطبوع

ولا ينفخ مسموع

وذنوء العيب ممنوع⁽¹⁾

كما لا تنفخ الشمس

¹ - محمد بن محمد أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين، ص 110.

الفرع الثاني

حقيقة العقل

إن العقل من أعظم نعم الله عزّ وجل على الإنسانية جمعاء، به عُرِفَ صدق القرآن الكريم، وبه عرفت حجة الرسالة المحمدية وبالعقل تميز الإنسان عن بقية المخلوقات.

العقل: وسيلة ومملكة وصفة إنسانية تسعى لإصابة الحق ومعرفته بمسالك كثيرة مترابطة ومحددة له، وفق ضوابط وأحكام شرع الله المحكمة ينتهي بها لتحقيق الغاية الأولى لاستخلاف الإنسان في الأرض، وحمله أمانة الخلافة، ولهذا جعل الله عزّ وجل هذا العقل منوطاً للتكليف الشرعي وهذا هو دور العقل الفعلي الأسمى.

العقل هو ملكة غريزية نورانية معرفية فوق المحسوسات تقوم بإجراء سلوكي فعلي احترازي رقابي، قمعي، ناهي، ضابط، مانع-حاجز، إنه اجتنابي يمنع المحظور، ويضبطه بقوة تمنعه من الانفلات وتحيط وتحجر عليه، مما تدعو إليه النفس لركوب الهوى وحب الشهوات، فينهى ويזجر ويحد من انفلات وشروء الهوى ويكبح الشهوات الشيطانية وارتكاب المعاصي والمنكرات فيحد من طبع النفس الأمارة بالسوء.

وهو الوسيلة الأساسية لمعرفة الله عزّ وجل بعد أن يفهم هذا العاقل ويدرك ويستوعب منهج الله عزّ وجل الذي وصل عبر رسوله الكريم بالعلم والمعرفة التي هي أداة العقل فيحرسه من الانفلات.

○ قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ ﴿40﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ الانزاعات/40.

والعقل عقلاق، العقل الواعي ويسمى العقل المسموع محله في رأس الإنسان (الدماغ) ونوافذه وبواباته الإدراكية هي البصر والسمع والنطق واللمس والشم وهي تستقبل المعلومات والعلم وتحللها وتوضع بالذاكرة بخيالات وصور ذهنية.

والعقل الضابط الواعظ وهو مصدر الضبط والتوجيه والقيادة، محله قلب الإنسان وهو عقل طبيعي وهو أبو العلم يزداد تألقاً بقوة الإيمان المتوقد في قلب الإنسان المؤمن، فيبصر به القلب وهو وعاء جوهر النفس الإنسانية.

فتسمو وترتقي هذه النفس بسمو هذه الملكة النورانية لهذا قيل: ((ما عُرفَ اللهُ إلا بالعقل ولا أُطيع إلا بالعلم)) فيتناسب ارتقاء هذا الإجراء طرداً مع نور الإيمان ويزداد تألقاً بالعلم والمعرفة وكثرة التجارب.

يزداد إعماله حرصاً لتحري الحلال والنهي عن المحرمات والشبهات، ويزداد إعمال العقل تألقاً بازدياد اكتساب المعرفة الدينية وتطبيق شرع الله فيزداد طرداً مع الإدراك والوعي في فهم ما شرعه الله لأن حامله عرف عواقب الأمور فيجمع هوى نفسه وشهواته الداعية إلى لذة ما..

بينما الجاهل الأحمق فهو سفيه العقل لا يعرف حلالاً ولا حراماً يمشي بأهوائه وشهواته فلا يمنعه شيء ولا يحده ويكبحه عقلٌ فهو كالبعير بلا عقال يعقله.

○ كما قال تعالى: ﴿صُمُّ بَكْمٌ عُمِيٌّ فَهُمْ لَا يَعْقُلُونَ﴾ البقرة/171.

لأنهم انغمسوا في الحياة الدنيا وغرثهم ملذاتها.

○ قال تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهُوَ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ الأنعام/32.

والعقل محدود بحدود البوابات الإدراكية التي يملكها الإنسان، ولا يمكن أن يتخطاها، تدل دلالة أكيدة على قصوره، ومحدوديته، فالى اليوم يعجز العلماء وأدواتهم عن فهم وتفسير الكثير من الأمور الكونية والحوادث التي تحدث فيه.

لهذا ولكي لا تشط عقولنا كانت الرسائل السماوية تعلم الإنسان وتفهمه ضمن حدود إدراكه العقلي واجباته اتجاه خالق الكون لكي يعيش هذا الإنسان بأمان وطمأنينة في أرض الله الواسعة، وهنا تكمن الغاية الأساسية للإنسان، فمن كان يريد الارتقاء والسمو وتزكية النفس فعليه باستنهاض ملكات عقله عندها يعقل آيات الله والمسارة إلى طلب العون من الله عزّ وجل ليمده بطاقة الإيمان لكي يتدبر آياته في الأنفس والآفاق:

○ قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ يَبِينُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ البقرة/242.

((وكلما كان العبد عارفاً بربه، محباً له قائماً بعبوديته متمثلاً أمره مبتعداً عن نواهيه تحقق له بهذه المعرفة والعبودية اللتين هما غاية الخلق والأمر وكمال الإنسان وسموه المنشود))⁽¹⁾.

إن الهداية الدلالية والتوفيقية من الله يهدي بها عقول الناس إلى ربهم فيستقر الإيمان في قلوبهم.

عندها يصبح المؤمن العاقل مستعداً لأي امتحان وابتلاء صابراً محتسباً ثابتاً عزيزاً كريماً لأنه يعلم أن هذه الحياة ممر للآخرة.

العاقل من يتمسك بالصرائط المستقيم في الدنيا ويدفع دفعاً هوى النفس وشهواتها، ومسالك الباطل عن السبيل، ولهذا سميّ العقل عقلاً لأنه يعقل صاحبه عن ركوب الهوى والشهوات، ويمنعه من المحذور والمنكر.

¹ - عبد الرزاق بدر: فقه الأسماء الحسنی، دار التوحید للنشر، ص 19.

وفي حديث "النواس بن سمعان" عن رسول الله ﷺ أنه قال: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا، وَعَلَى جَنْبِي الصِّرَاطِ سَوْرَانِ فِيهِمَا أَبْوَابٌ مَفْتُحَةٌ، وَعَلَى الْأَبْوَابِ سُتُورٌ مَرْخَاةٌ، وَعَلَى بَابِ الصِّرَاطِ دَاعٍ يَقُولُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ ادْخُلُوا الصِّرَاطَ جَمِيعًا وَلَا تَعُوجُوا وَدَاعٍ يَدْعُو مِنْ فَوْقِ الصِّرَاطِ، فَإِذَا أَرَادَ الْإِنْسَانُ أَنْ يَفْتَحَ شَيْئًا مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ قَالَ: وَيْحَكَ لِمَا تَفْتَحُهُ، فَإِنَّكَ إِنْ تَفْتَحَهُ تَلَجَّهُ، فَالصِّرَاطُ الْإِسْلَامُ، وَالسُّورَانِ حُدُودَ اللَّهِ وَالْأَبْوَابُ الْمَفْتُحَةُ مَحَارِمَ اللَّهِ، وَذَلِكَ الدَّاعِي عَلَى رَأْسِ الصِّرَاطِ كِتَابَ اللَّهِ، وَالدَّاعِي مِنْ فَوْقِ الصِّرَاطِ وَأَعْظَمَ اللَّهُ فِي قَلْبِ كُلِّ مُسْلِمٍ﴾⁽¹⁾.

والداعي من فوق الصراط واعظ الله في القلب هو العقل الضابط الواعظ.

ألا يكفيننا من العقل أنه يعقل ما حلل الله لنا وما حرم الله علينا، ألا يكفيننا من العقل أنه يدل صاحبه على صدق رسالة نبي الرحمة، لكن الحقيقة أن العقل جندي من جنود الله، يرضخ لأمر الله، يملك سلطة الضبط والوعظ على نفس صاحبه وله حدود لا يمكن أن يتخطاها، ويدرك حقائق الأشياء ضمن نطاق محدوديته.

ولا يمكن أن يكون حكماً طالما هو تحت سيطرة الشرع فكل ما أنكره شرع الله هو منكر ولو تعارف عليه الناس وكل ما عرفه شرع الله هو معروف وإن أنكره الناس، فالعقل أمام النقل راضخ ومزغن ومطيع إطاعة كاملة للنقل، وأما الجهلاء الحمقى فليذهبوا إلى أسواق النخاسة هناك قد يجدون ما يسرهم.

قلوبهم مرآة مشاعرهم ومعتقداتهم، وعقولهم فهي ظلماء كظلمة الليل حقداً وعتواً واستكباراً ودفعاً للحق.

فهل تستوي القلوب المضاءة بنور من الله وقلوب مظلمة كظلمة الليل، لا يستويان.

¹ - رواه أحمد بن حنبل من مسنده.

أسئلة مطروحة:

- ✓ ما هو الجهاز العصبي للإنسان؟
- ✓ هل العقل البشري محله في الدماغ؟

الجهاز العصبي للإنسان

ينظم الجهاز العصبي للإنسان نشاط الجسم كله، فهو مسؤول عن تقلص العضلات، إفراز الغدد، عمل القلب، استقلاب المواد استقبال المنبهات الحسية...الخ.

- يتألف الجهاز العصبي من الدماغ والنخاع الشوكي والأعصاب.
- يشكل الدماغ مع النخاع الشوكي الجهاز العصبي المركزي.
- ينشأ من الدماغ/12/زوج من الأعصاب الدماغية.
- ينشأ من النخاع الشوكي/31/زوج من الأعصاب الشوكية، تعطي هذه الأعصاب فروعاً إلى مختلف أعضاء الجسم⁽¹⁾.

¹ - أعصاب النخاع الشوكي/الحبل الشوكي/عددها/31/زوج منها/8/أزواج رقبية، /12/صدرية، /5/أزواج قصبية،/5/أزواج عجزية،/1/زوج عصبي، هذه الأعصاب تتفرع من الحبل الشوكي المحاط بعظام الفقرات لتحميه، والحبل الشوكي يتركب من حزمة عصبونات وهذه الأعصاب تتفرع عنه لنقل السيالات العصبية من كافة أنحاء الجسم إلى الدماغ، ومن الدماغ إلى كافة أنحاء الجسم وذلك لوجود عصبونات حسية وأخرى حركية.

○ يستقر الدماغ في جوف القحف، يبلغ وزنه عند البالغين/1280 -
1380غ/وسطياً.

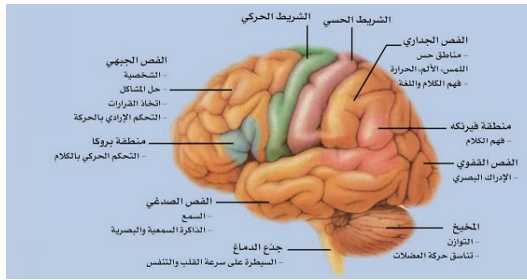
يتألف الدماغ من:

(1) نصفي كرة: تشكل حوالي 85% من كتلة الدماغ.

(2) جذع الدماغ: مسؤول عن عملية التنفس، وضربات القلب، وتنظيم درجات الحرارة في الجسم ويقع جذع الدماغ عند اتصال الدماغ بالحبل الشوكي.

(3) المخيخ: مسؤول عن ضبط توازن الجسم، وضبط الحركات الإرادية، ويقع أسفل مؤخرة الرأس.

○ يحيط بالدماغ ثلاثة أغشية: خارجية - متوسطة - داخلية، ويسمى الغشاء الداخلي الأم الحنون وهذا الغشاء الداخلي يغطي القشرة الدماغية والتي سمكها حوالي/3مم/ولها أهمية كبيرة في الوظائف الحسية والحركية للإنسان.



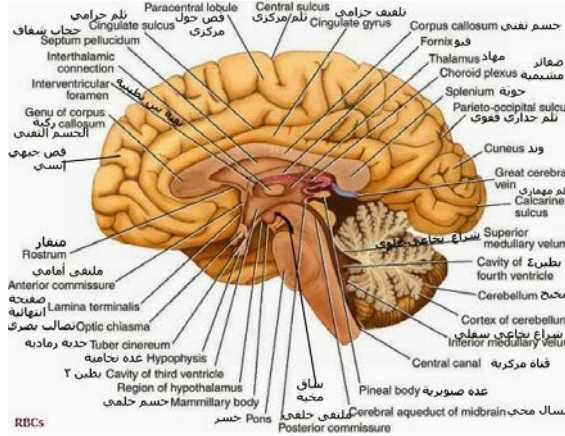
الشكل رقم (1)

أقسام الدماغ

معجزة القشرة الدماغية:

الدماغ مقسم إلى نصفان كرويان، وكل نصف مسؤول عن الوظائف الحركية والحسية في النصف الآخر من الجسم، بمعنى آخر النصف الأيسر من الدماغ مسؤول عن القسم الأيمن (الشق الأيمن)، فإذا وضع شيء ما في راحة اليد اليسرى، النصف الأيمن عن الدماغ هو الذي يشعر بتركيبه ويحركه.

يحيط بالدماغ القشرة الدماغية التي تغطي تلافيف الدماغ وهي رمادية اللون. ولو قسمنا المخ البشري «الدماغ» كما تنقسم التفاحة نرى الجسم الجاسئ يشكل هلالاً طوله/5-6سم/أبيض اللون لاحتوائه على ملايين الألياف العصبية التي تربط نصفي الدماغ ويلعب دور في تنظيم وظائف المخ والتخطيط والذاكرة.



الشكل رقم (2)

القشرة الدماغية والجسم الجاسئ

وينقسم الدماغ المغطى بالقشرة الدماغية إلى أربعة فصوص: الفص الجبهي: الأمامي في مقدمة الرأس أعلى الحاجبين - مسؤول عن السمات الشخصية والانفعالية للإنسان.

((هذه المناطق المخية تلعب دوراً مهماً في عمليات التخطيط والتنظيم والمهارات العقلية عالية المستوى))⁽¹⁾.

1- الفص الخلفي: القفوي في مؤخرة الرأس - مسؤول عن الإبصار.

2- الفص الجداري: بين الجبهي والقفوي مسؤول عن المهارات البصرية واللغوية.

3- الفص الصدغي: بين تحت الجداري، ويحده من الأمام الجبهي ومن الخلف القفوي - مسؤول عن الذاكرة والسمع.

ترتبط القشرة الدماغية مع باقي أقسام الجهاز العصبي بمسالك صاعدة ناقلة للتنبهات الحسية، وبمسالك نازلة حركية من القشرة الدماغية إلى بقية أجهزة الجسم، هذه المسالك تمر بها النبضات والإشارات الكهروكيميائية لتنفيذ الأوامر الحركية، فلو نزعنا من مكانها وفردت لغطت مساحة غرفة 10/م²، ولا يتجاوز سمكها 2-5 ملم/تغطي تلافيف الدماغ.

يعتقد العلماء أن لهذه القشرة الدماغية دوراً هاماً في عملية إثارة المشاعر الإنسانية والتحكم بدرجة شدتها، وضبط الأمور.

أما الدماغ فيتكون من أكثر من 100/مليار خلية عصبية وفي بعض المراجع أكثر من 16/بليون خلية عصبية، إضافة للخلايا الداعمة (اللاصقة) والتي تساعد الخلايا العصبية في تغذيتها وتثبيتها، ويعتقد أن لها دوراً في مستوى ذكاء الإنسان

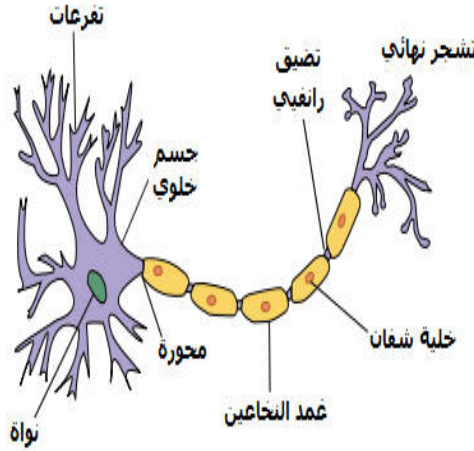
¹ - سلسلة عالم المعرفة: المخ البشري، العدد رقم 287، تأليف كرستين تمبل، ص 62.

ولا أحد يعلم عددها، لهذا التاريخ لم يتوصل العلم عن معرفة إلا 10% من عملها .

الوحدة الأساسية للدماغ هي الخلية العصبية، تعالوا نتعرف عليها .

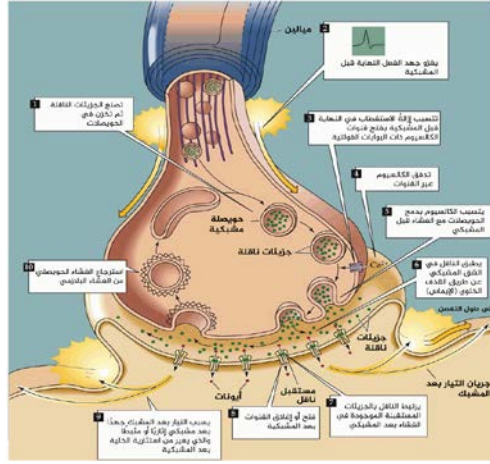
الخلية العصبية (العصبون):

تتألف من محور العصبي AXON اسطواناني الشكل، وجسم الخلية يشبه نجم البحر، ولهذا الجسم زوائد تدعى الشجيرات العصبية التي في نهاية المنطقة التي تفصل الخلية الأولى عن الخلية الثانية تسمى هذه المنطقة بالمشبك العصبي SYNAPSE .



الشكل رقم (3)

الخلية العصبية



الشكل رقم (4)

المشبك العصبي

تنتقل النبضة أو الإشارة العصبية باتجاه واحد تسمى السيالة العصبية حيث تستقبل من الشجيرات العصبية للخلية الأولى إلى الخلية المجاورة للثانية وهكذا.

آلية عمل المشبك العصبي Synapse (الموصل العصبي):

وهو عبارة عن موصل أو نقطة التقاء بين العصبون وخلية مستفعدة.

ينقل هذا المشبك العصبي الدفعات العصبية باتجاه واحد من العصبون المفرز إلى العصبون الآخر وفيه حويصلات مشبكية داخلها مواد كيميائية تسمى الناقلات العصبية الكيميائية.

لأن الإشارة أو النبضة العصبية لا تمر بشكل مباشر إلا بحصول تفجير بعض الحويصلات نتيجة فرق جهد كهربائي.

عندها تفرز مواد كيميائية تدعى (الناقلات العصبية الكيميائية) التي باستطاعتها فقط أن تمر عبر المشبك العصبي لتصل لمستقبل في جدار الخلية الثانية، بهذه الطريقة تصل النبضة العصبية أو الإشارة العصبية من خلية إلى أخرى، وأهم المواد الكيميائية (الناقلات العصبية الكيميائية):

الدوبامين الذي يسمى هرمون السعادة لأنه يمنح الإنسان ذلك الشعور، السيروتونين، الأدرينالين، النور أدرينالين، الدوبامين، استيل كولين، تأثيرها هام على الحالة النفسية والمزاجية للإنسان.

مثال: السيروتونين - ناقل عصبي كيميائي - يساعد على تهيئة مزاج الإنسان وهو مضاد اكتئاب ومنظم للنوم والهضم.

إن أصحاب المستويات المنخفضة من السيروتونين النساء، وهنَّ أكثر عرضة للاكتئاب من الرجال، ومستوى سيروتونين في المخ لدى النساء يعادل نصفه لدى الرجال، وهذا ما يفسر كون النساء أكثر عرضة للاكتئاب من الرجال.

إن انخفاض السيروتونين المستمر يؤدي إلى الضغط النفسي، مزاج سيء للغاية، تظهر أعراض الوسواس القهري، انفعال لا مبرر له، نظرة تشاؤم وقد يؤدي إلى الانتحار، ومن المفارقة الغريبة تبين أن مع تقدم العمر يقل مستوى السيروتونين مما يزيد حالة الاكتئاب عند الرجال وتتضاعف عند النساء.

هذه العمليات تجري بسرعة البرق بين الخلايا العصبية بأقل من 0.0001 من الثانية من انفجار الحويصلات وتحرير النواقل العصبية الكيميائية لتساعد الإشارة العصبية في التقدم من خلية إلى أخرى، وبقية النواقل العصبية الكيميائية إما أن يحتفظ بها بالحويصلة أو أن تتحطم بواسطة أنزيمات كيميائية وأهمها: أنزيم المؤكسد لواحدات الأمين.

وتعليل ذلك أن زيادة المواد الناقلة العصبية الكيميائية - أدريئالين - نور أدريئالين - سيروتونين - استيل كولين - دوبامين - في الدماغ قد يولد حالات من الاضطراب النفسي للإنسان .

وهنا دور الطب في عملية التخفيف من الأمراض النفسية كالقلق والاكتئاب والتشاؤم والانفعال السريع والضغط النفسي .

مثال آخر: شخص يجتاز الطريق «يسمع تنبيهاً صوتياً من السيارة» الحادث سيقع لكنه نجا بعناية وحماية الله عزَّ وجل، تنبه لاحتمال وقوع حادث بأسرع من البرق بأن يتراجع عن اجتياز الطريق نتيجة وصول الرسائل التنبيه وأوامر القشرة الدماغية بالتوقف عن متابعة السير .

وذلك بفرز النواقل العصبية الكيميائية مثل نور أدريئالين المسؤول عن إعداد الجسم للتعامل مع المصاعب والمواقف الخطرة والمفاجئة سبحانه الله .

مثال آخر: ((مرض باركنسون - نلاحظ التأثيرات الناجمة عن نقص الموصل العصبي المسمى بالدوبامين، إذ تتوقف الخلايا (الموجودة في منطقة المخ)، والتي تسمى المادة السوداء عن العمل بكفاءة، ولا تفرز كمية كافية من الدوبامين مما ينتج عن ذلك صعوبة السيطرة على الحركات الإرادية))⁽¹⁾ .

مثال آخر: الغدة الصنوبرية التي تقع أعلى وخلف الأذن في الدماغ تحوي على كمية من السيروتونين يفوق/50/مرة ما يحتويه باقي المخ البشري وذلك لوجود أنزيمات تخلق هذا الهرمون فيها لأن السيروتونين يساعد على تشكل الميلاتونين وخاصة عند بداية النوم ويقل في حالة النوم العميق، فسبحان الله فالذي يتوضأ ويصلي الفجر فإنه يشعر بالطمأنينة وراحة البال ونشاط الجسم، لأن الميلاتونين مسؤول عن

¹ - عالم المعرفة: المخ البشري، العدد رقم 287، تأليف كرستين تمبل، ص12 .

تنظيم الإيقاع الحيوي للجسم وينظم ساعات النوم، وتعديل الحالة المزاجية للإنسان.

فمن جنداً هذه المواد لخدمة المؤمن الذي يصلي الفجر:

○ قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الفتح/4.

الفرع الأول

هل العقل البشري موجود في الدماغ

الأساطير القديمة والفلاسفة الماديون يقولون أن الدماغ كتلة واحدة هو مركز العقل لكثرة المراكز الحيوية فيه، أمثال أفلاطون وأبو قراط وديكارت وداروين صاحب نظرية التطور التي هوت وضاع بريقها أي اختزال الحياة إلى مادة وتفاعلات كيميائية وفيزيائية! ويعتقدون أن الدماغ هو مركز العقل. نعم إن القشرة الدماغية لها دور هام في عمليات النطق، والتحكم بالأشياء والمشاعر الإنسانية، والذاكرة، لكن:

- هل المشاعر الإنسانية من الرأفة والرحمة والعدل والكرامة، هي نتاج مواد كيميائية وتفاعلات كيميائية مادية؟.

- هل تتشكل هذه المشاعر في القشرة الدماغية باتحاد مواد كيميائية؟.

الحقيقة الساطعة أن العلم يعجز عجزاً مؤكداً على إثبات أن هذه المشاعر وهذه القيم تكون نتاج إشارات وومضات كهروكيميائية.

وأنا على استعداد لأخذ جرعة من هذه التفاعلات لعلي أصبح عادلاً ومن أهل الرأفة والرحمة والسكينة!!.

- هل التفاعلات الكهروكيميائية المادية تحول النفس من نفس أمارة بالسوء إلى نفس مطمئنة؟.

- هل الدماغ له المقدرة على التمييز بين الحق والباطل؟
- هل الدماغ هو الذي يفرز الضمير، الوجدان، والوازع الأخلاقي؟ ويمنع العدوان وينصر المظلومين ويطمح للعدل والإنصاف؟
- هل الدماغ هو الذي يفرز سلوكنا الأخلاقي؟
- هل هذه المعادلات المادية الفيزيائية أو الكيميائية أو الكهروكيميائية تنتج عقلاً يعقل أوامر الله؟ وينهى عن الفحشاء والمنكر؟
- هل الدماغ ينتج ويفرز مواد تحث الإنسان على التبصر والتدبر والتأمل والفراسة والحكمة وووو.....عجبي!!!، سنقولها للماديين والعلمانيين نعتذر عن أوهامكم وترهاتكم كل هذه النظريات المادية باطلة.

لكن من قال بأن الدماغ لا عمل له!!!؟.

الدماغ تجري فيه عشرات بل الألوف من العمليات الحيوية والعمليات الكيميائية والكهروكيميائية إنه يستقبل الرسائل الحسية من البوابات والنوافذ الإدراكية للعقل الواعي ويحولها إلى صور ذهنية ليدرك بها الإنسان وفيه ذاكرة عظيمة تحفظ ما يصل من الحواس ويرسل رسائل حركية لكافة أنحاء الجسم.

ولو نزع الدماغ وفردَ على الأرض كمصانع للعمليات التي يقوم بها لما اتسعت اليابسة له قط.

إن الحفاظ على الدماغ حفاظاً على الحياة، وأي تلف جزئي به يؤدي لتخريب في الوظائف الجسمية والحسية للإنسان فالرأس يحمل النوافذ والبوابات الإدراكية للعقل الواعي والذي يسمى العقل المسموع.

أسئلة مطروحة:

- ✓ ما هي البوابات الإدراكية للعقل الواعي؟
- ✓ ماذا يستفيد منها العقل الواعي.
- ✓ كيف تصنع الصور الذهنية.

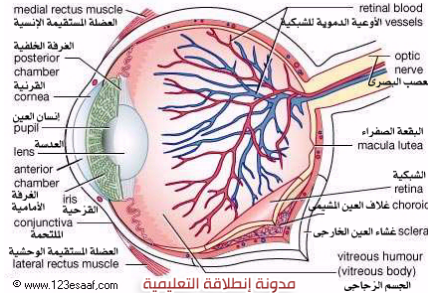
الفرع الثاني

البوابات الإدراكية للعقل الواعي

«العقل المسموع»

إن البوابات الحسية التي يرتبط الإنسان بمحيطه الخارجي ليُدرك الأشياء ويعي ما حوله، فأَيُّ خلل في أدائها يؤدي حتماً لقلّة إدراك هذه الأشياء ووعيها، ومراكز تحليلها في الدماغ.

تعالواً معاً نبحث في معجزة الإبصار: كيف نبصر الأشياء؟⁽¹⁾.



الشكل رقم (5)

تشرح العين

¹ - فاسيلي تاتارينوف: تشرح فيزيولوجيا الإنسان، دار المير، موسكو.

خلوق نور باقي: الإنسان ومعجزة الحياة، دار الصحوة للنشر، سنة 2000.

عالم المعرفة: المخ البشري، العدد رقم 287، تأليف كرتين تمبل.

معلومات إثرائية:

ينفذ الضوء المستقيم عبر القرنية « أول حاجز للعين » عندها ينكسر الضوء وينفذ إلى العدسة لينكسر مرة أخرى ليصل إلى الشبكية وهي صفحة في قعر العين فيها خلايا مخروطية تستجيب للضوء والألوان (الرؤيا النهارية) وخلايا العصوية تستجيب للضوء الباهت (الرؤيا الليلية).

وظيفة الشبكية تحويل الحزم الضوئية إلى تفاعلات كيميائية ثم إلى سيالة عصبية كهربائية التي تتجه عبر العصب البصري لمركز الرؤيا في الدماغ، الشكل رقم (5).

إن نافذة العين «البؤبؤ» الشبيهة بعدسة الكاميرا تضيق وتتسع حسب شدة الضوء لتحمي العين ولو اختلف هذا النظام لاحترقت شبكية العين من شدة الضوء فسبحان الله الذي أتقن كل شيء، فأعظم جوال يحوي عدسة الكاميرا بين/8-30/ميغا بيكسل بينما عند الإنسان/576/ميغا بكسل، ويعتقد أن العين يمكنها استقبال جميع الألوان وهنا يكمن الإعجاز العلمي في عملية الرؤية، إذ ترسل الألوان السبعة الواصلة إلى الشبكية بواسطة الأعصاب البصرية إلى الدماغ بتزامنات مختلفة منتظمة وبفواصل زمنية دقيقة ولو اختلف هذا النظام الكمبيوترى في التوصيلات والانتقالات لانعدمت الرؤية سبحان الذي أبدع وأتقن كل شيء.

فالخلية في الشبكية هي خلية، والخلية في عدسة العين أو في قزحية العين هي خلية، لكن الفرق بين هذه الخلايا هو في نوع البرمجة الرياضية المعطاة لكل منها وتتكامل أدوارها ضمن نظام معقدة جداً لتعطي معجزة الإبصار أكثر من/1200/لقطة في الثانية الواحدة، فسبحان الله.

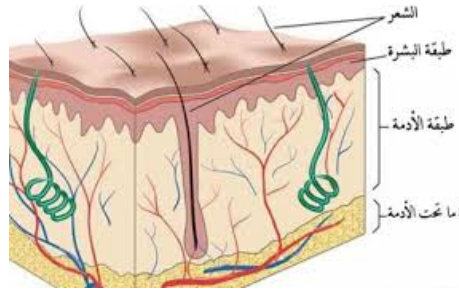
بل نجد أن المجال البصري الأيمن هو الذي يرتبط بالنصف الأيسر من المخ والعكس صحيح والمعتاد أننا في تحركاتنا نحرك أعيننا بحيث يتمكن نصف المخ من

أن يطلعا على المعلومات البصرية، ويتم تبادل المعلومات البصرية عبر الجزء الخلفي من الجسم الجاسئ⁽¹⁾.

والرؤية البصرية ما هي إلا خيالات مؤلفة من موجات ندرتها بعد أن فهمنا آثارها ووعاها رأسنا عندها تتكون الصور الذهنية البصرية لتحتفظ في ذاكرة الدماغ وتطلب عند الحاجة كأنطباعات بصرية.

معجزة حاسة اللمس:

الجلد فيه عدد كبير من المستقبلات الحسية المستشعرة للبرودة والحرارة والألم، الشفتان حساستان للحرارة كثيراً، وأطراف الأصابع فيها عدد كبير من مستقبلات اللمس للحرارة والبرودة والألم.



الشكل رقم (6)

تشرح الجلد

¹ - عالم المعرفة: المخ البشري، العدد رقم 287، تأليف كرسيتين تمبل، ص 66.

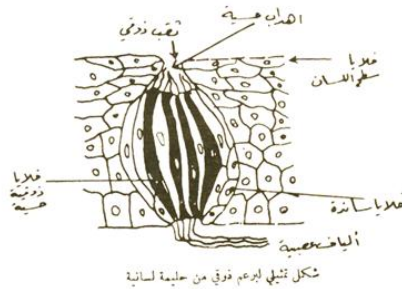
فسبحان الله الذي ميّز هذه الخلايا وبرمجها لتستقبل الشعور بالبرودة والحرارة والألم، لكي ترسل إشارات إلى الدماغ ليتمكن الإنسان من معرفة المخاطر المحدقة به فلولا أن الشفتين حساستان لدرجة الحرارة والبرودة لشرب الإنسان الماء المغلي وهكذا الشعور بالألم والضغط.

سبحان الله الذي أظهر معجزة استبدال الجلد الذي يغطي الإنسان فعذاب الكفار في نار جهنم عظيماً لإحساسهم بالحرق المستمر والدائم بعد أن تحترق جلودهم يبدلها الله عز وجل بجلود غيرها ليذوقوا عذاب النار الدائم قال تعالى:

○ ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصَلِّيهِمْ نَارًا كَلَّمًا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بِدَلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ النساء/56.

فعند مرحلة نضج الجلد وهي مرحلة متقدمة من احتراق الجلد عندها تحترق المستقبلات الحسية الموجودة في قاعدة الجلد مما يؤدي إلى عدم وصول إحساس بالألم للدماغ لذا يبدل الله جلود الكفار ليذوقوا العذاب المستمر بالألام المبرحة في الجسم. معجزة التدوق:

يتألف عضو التدوق من الحليمات الذوقية الموجودة في قاعدة اللسان وهناك عشرات بل مئات من الحليمات الذوقية موجودة على سطح اللسان لتمييز مذاق الأطعمة الحلوة والمالحة والمرّة.



الشكل رقم (7) تشريح حليلة ذوقية

ذكر في القرآن لفظ « ذوقوا » وقصد به العذاب لأن ذلك وإن كان في التعارف للقليل فهو مستصلح للكثير فخصه بالذكر ليعم الأمرين وكثر استعماله في العذاب نحو:

○ ﴿لِيذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ النساء/56.

○ ﴿وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ﴾ السجدة/20.

○ ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ الأحقاق/34.

○ ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ الدخان/49.

لكن التذوق لم يقتصر على العذاب فقد جاء في الرحمة:

○ ﴿وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَحَرِحَ بِهَا﴾ الشورى/48.

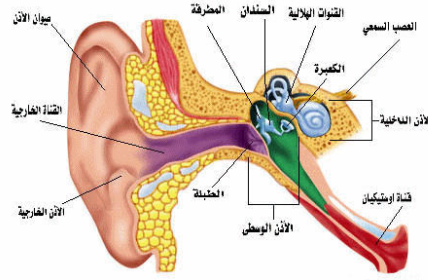
وفي موضع آخر يكون الجزاء في الدنيا قبل الآخرة:

○ ﴿فَإِذَا قَهَأَ اللَّهُ لِبَاسِ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ النحل/112⁽¹⁾.

معجزة السمع والتوازن:

الصوت عبارة عن تموجات هوائية تلتقط الأذن الخارجية والوسطى المنبهات الصوتية والمنبهات الناشئة عن تغير وضعية الجسم، فعندما يهتز الشيء تتولد عنه موجات صوتية تنتقل عبر مجرى السمع إلى غشاء الطبل فيهتز لتصل إلى العظيماة السمعية الثلاث (المطرقة والسندان والركاب).

¹ - أبو القاسم الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن، ص188.

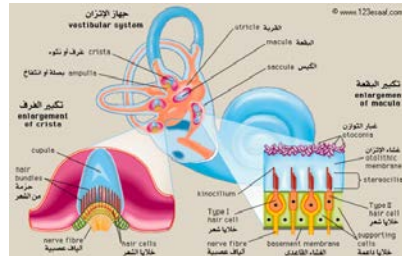


الشكل رقم (8)

تشريح الأذن

وهذا العظم الأخير يستند إلى غشاء في بداية الأذن الداخلية الذي يغطي القوقعة وفيها سائل يهتز باهتزاز هذه العظيمة الصغيرة لتتحرك الخلايا الشعرية عندها تتولد سيالة عصبية تنتقل عبر العصب السمعي إلى الدماغ، لتصل إلى محلل السمع - المنطقة السمعية الحسية في الفص الصدغي للدماغ.

في الأذن الداخلية يوجد جهاز الدهليزي يحوي قنوات الهلالية في قاعدتها توجد حويصلات تستجيب لحركة الجسم الدورانية نتيجة لوجود خلايا شعرية ضمن وسط سائل هلامي فكلما تحرك الجسم ومال الرأس تتبته هذه الخلايا فتتولد سيالة عصبية تصل الدماغ ليتم تحليلها وتفسيرها لتصدر الأوامر إلى العضلات الحركية لعملية التوازن.



الشكل رقم (9) جهاز التوازن في الأذن

فأي تعطيل لهذا الجهاز يؤدي إلى فقدان توازن الجسم، ويحدث ذلك بالطائرة أو السيارة شعور بفقدان التوازن وظهور أعراض الإقياء والدوران نتيجة تهيج الجهاز الدهليزي للأذن.

فسبحان الله الذي ميز الخلايا عن بعضها البعض بنوعية البرمجة المعطاة والمخصصة لها علماً بأن كل الخلايا تملك الوحدات البنائية الأساسية.

فالإنسان مخلوق على شكل واحد لكن أحدهم مهندسٌ والآخر طبيبٌ والآخر محامٍ، إذاً السمع ما هو إلا موجات كهرومغناطيسية يحللها مركز السمع في الدماغ، فآثر هذه الموجات تنشئ صورة ذهنية سمعية تستنتجها عقولنا لاحقاً لتعلل الظواهر والحوادث والأصوات لتعطينا إدراكاً ووعياً وفهماً لها (فليس العلم بالحقائق والأشياء ملامسة لها، أو اتصال العقل رأساً بها، إنما العلم يأتي عن طريق عرض آثار الأشياء والحقائق على الحواس أو غيرها (كالأجهزة العلمية للكشف) ثم وعي، وفهم، وإدراك معنى هذه الإشارات وفهم حقائقها بواسطة تلك القوة العظمى قوة العقل)⁽¹⁾.

ومعجزة حاسة السمع هي التحكم في توازن الجسم وتنظيم حركته، فأي تعطيل لهذا الجهاز نتيجة تحرك الجسم وميلان الرأس أو إجهاده نتيجة اضطراب في الذبذبات الصوتية يؤدي إلى تهيج في الجهاز الدهليزي للأذن الداخلية مما يفقده توازنه.

الآن ظهر في محرك البحث You tube موضوع المخدرات الرقمية التي تؤثر على الشباب وتعمل عمل المخدرات وتفعل مفعول المخدرات وهي عبارة عن نغمات صوتية بكل إذن نغمات مختلفة بذبذبات لا يتحملها الإنسان ولا يسمعا ظاهرياً

¹ - الشيخ عبد المجيد الزنداني: توحيد الخالق، المكتبة العصرية، ص22.

تؤدي إلى حالة مزاجية نفسية سلوكية تشبه حالة الإدمان على المخدرات، فمع استمرار سماع هذه الذبذبات الصوتية يؤدي إلى تشنجات وحركات هلوسة غير طبيعية يقوم بها الشخص وكأنه في حالة تعاطي المخدرات.

فيفقد توازنه النفسي والجسمي والسلوكي نتيجة وصول الذبذبات والموجات الكهرومغناطيسية لكل أذن مخالف للأخرى ينتج عنه أوامر حركية متعكسة مما يؤدي لظهور هذا الاضطراب الجسمي والسلوكي والنفسي ويصبح مزاجه كمزاج مدمن المخدرات فيشعر بالسعادة المؤقتة نتيجة فرز كمية هائلة من الدوبامين هرمون السعادة بشكل عشوائي من المشابك العصبية، وهذه الكمية الكبيرة منه تولد حالة الاضطراب النفسي والسلوكي للإنسان، إنها المخدرات الرقمية تقتحم الشباب، فعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا .

والمفارقة كبيرة بين ماضينا المشرق وحاضرهم المعيب تقول المستشرقة الألمانية "زيغريد هونكه": ((وللعرب فضل كبير آخر على علم الطب... وهو معالجتهم للأمراض العقلية والعصبية، وأبدعوا في المعالجة النفسية التي مثلت دوراً مهماً في مداواتهم الآلام الجسدية، ووضعت كتباً خاصة بهذا الموضوع ككتاب تأثير الموسيقى في الإنسان والحيوان، لأبن الهيثم العالم الفيزيائي العظيم، كذلك طالب ابن سينا بضم الوسائل النفسانية إلى التداوي بالعقاقير لزيادة مفعولها وإزالة الخوف عن المريض قائلاً: «علينا أن نعلم أن أحسن العلاجات وأنجحها هي العلاجات التي تقوم على تقوية قوى المريض النفسانية والروحية وتشجيعه لحين مكافحة المرض، وتجميل محيطه وإسماعه ما عذب من الموسيقى وجمعه بالناس الذي يحبهم»⁽¹⁾.

¹ - المستشرقة الألمانية زيغريد هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب، ص28.

سبحان الله الآن بعض المشايخ في ألمانيا يبيثون صوت القرآن الكريم كعلاج مهدئ لبعض المرضى، حيث أظهرت الأبحاث التأثير الإيجابي لصوت القرآن على تهدئة توتر الإنسان وعلى ضربات القلب وحركاته حيث لوحظ انخفاض توتره وتنظيم دقات قلبه وسكون حركته واعتدال في ضغط الدم لأن حاسة السمع مسؤولة عن توازن الجسم وتنسيق حركاته مما يسهل تنظيم العمليات الحيوية فيه.

وأكد العلماء وجود ارتباط وثيق بين الأذن الداخلية والقلب عن طريق العصب العاشر الذي يسمى العصب الحائر.

بهذه الذبذبات الصوتية لكلمات القرآن الكريم تعطي طاقة إيجابية ذات ترددات متوافقة مع لغة تركيب المورثات السلوكية وتردداتها الموجودة في القلب فتتوسم بهذه الطاقة النورانية.

مما يؤدي إلى تزكيتها وتطهيرها، فيشعر الإنسان المؤمن الذي ينصت ويستمع للقرآن الكريم بهدوء وطمأنينة في داخله فما أعظمك يا رسول الله صلوات الله عليه وسلامه حيث قال: ﴿الْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ﴾، فما بالكم بكلمات الله تعالى علينا، سبحانك ربي.

أليست البوابات الحسية التي توصل الوعي وإدراك الأشياء فأني خلل في أدائها سيؤدي حتماً لقلّة إدراك هذه الأشياء، فيجب ضبطها كما أراد الله عزّ وجل في طاعته وامتثال أوامره لكن عدم ضبطها تكون أدوات لإثارة الشهوات والغرائز الشيطانية لأن البصر أدرك صوراً مسيئة للأخلاق فتحوّلت لصورة ذهنية بصرية ستصل للعقل المطبوع فينزغ العقل لتقبلها فينتج هيجان وإثارة الشهوات الجنسية مما يزيد في تغير بدقات القلب وإفراز هرمونات الإثارة الجنسية وتكرار المشاهدة للأفلام الإباحية تصبح كإدمان المخدرات.

وعن أبي ذر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَخْلَصَ قَلْبَهُ، وَجَعَلَ قَلْبَهُ سَلِيمًا وَلِسَانَهُ صَادِقًا، وَنَفْسَهُ مُطْمَئِنَّةً، وَخَلِيقَتَهُ مُسْتَقِيمَةً، وَجَعَلَ أُذُنَهُ مُسْتَمِعَةً وَعَيْنَهُ نَاطِرَةً﴾⁽¹⁾.

هنا المؤمن العاقل وصلت هذه الصور الذهنية لعقله فيرفض رفضاً قاطعاً قبولها لأن الشرع يرفضها فيغض بصره فوراً.

○ قال تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ النور/30.

وإنه أمر من الله تعالى لعباده المؤمنين، أن يغضوا من أبصارهم عما حرم عليهم كما قيل: من حفظ بصره أورثه الله نوراً في بصيرته⁽²⁾.

عن أبي أمامه رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ﴿ما من مسلم ينظر إلى محاسن امرأة ثم يغض بصره إلا أخلف الله له عبادة يجد حلاوتها﴾⁽³⁾.

فالعاقل المؤمن هو الذي يضبط حواسه وجوارحه كاملة بما أمره الله تعالى:

○ ضبط السمع: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ الحجرات/12.

○ ضبط الحركة: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرْحًا﴾ الاسراء/37.

○ ضبط الصوت: ﴿وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ﴾ لقمان/19.

¹ - رواه أحمد في مسنده.

² - الشيخ محمد علي صابوني: تفسير مختصر ابن كثير، دار القرآن الكريم، بيروت - لبنان، الطبعة السابعة، 1402 هـ - 1981 م ج2، ص596.

³ - أخرجه أحمد في مسنده.

- ضبطَ النظر: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ طه/131.
- ضبطَ اللسان: ﴿وقولوا للناس حسناً﴾ البقرة/83.
- ضبطَ التعامل مع المال والطعام: ﴿ولا تسرفوا﴾ الأنعام/141.
- ضبطَ النفس: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ الرعد/28، هنا الشرع الرياني غلب طبع النفس وهواها.

إن آثار السمع والبصر تعمل عملها في العقل ويفهم معناها، فالمؤمن بربه مجهز بنور العقل الذي يستنتج من أي قضية تعرض له فيتبع الحق لأنه مرتكز على نور الإيمان، وهي المادة الأولى في تسيير دفة العقل لإنتاج التصور السليم لبناء أفكار سليمة فلا يبصر إلا الحلال ولا يسمع إلا الحق.

- قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ الإسراء/26.

- وقال رسول الله ﷺ في الحديث القدسي: ﴿أَنَّ النَّظَرَ سَهْمٌ مِنْ سَهَامِ إبْلِيسَ مَسْمُومٌ مَنْ تَرَكَهُ مَخَافَتِي أَبَدَلْتَهُ إِيْمَانًا يَجِدُ حَلَاوَتَهُ فِي قَلْبِهِ﴾⁽¹⁾.

وفي الصحيح عن أبي هريرة ؓ أنه قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿كُتِبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حَظُّهُ مِنَ الزَّنَى أَدْرَكَ ذَلِكَ لَأَ مَحَالَةً، فَزَنَى الْعَيْنَيْنِ النَّظَرَ، زَنَى اللِّسَانَ النَّطْقَ، وَزَنَى الْأَذُنَيْنِ الْأَسْتِمَاعَ، وَزَنَى الْيَدَيْنِ الْبَطْشَ، وَزَنَى الرَّجْلَيْنِ الْخَطْيَ وَالنَّفْسَ تَمَنَّى وَتَشْتَهَى، وَالْفَرْجَ يُصَدِّقُ ذَلِكَ أَوْ يُكَذِّبُهُ﴾.

¹ - أخرجه أبو القاسم، سليمان بن أحمد الطبراني عن ابن مسعود.

○ لهذا فاحذروا من النفس الأمارة بالسوء فإنها تضل صاحبها قال تعالى:

﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يوسف/53.

○ ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلْمُ مَا تُوسَّوْسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾ ق/18.

فكبح النفس عن ما تتمناه هو عين العقل، فجعلها كالدابة يزكيها عقلك الفطن عندها تصطبغ بحلة الوقار والسكينة والخوف والوجل من الله تعالى.

وعلينا مراقبة ما يرد إلى مسامعنا وأبصارنا بفلترة الصحيح والحسن وخاصة من أهل الغلو والتطرف الذين يبنون أفكارهم المسمومة بصور ذهنية بصرية وسمعية عبر أجهزة التلفاز والانترنت، فالحرص كل الحرص على أولادنا من الانزلاق في متاهات الغلو والتطرف من بعض الدعاة الذين يبثون الفتاوي المشبوهة للقتل ونشر الرعب والفكر الظلامي، فالعاقل الذي يتابع تصرفات أبنائه قبل فوات الأوان ومراقبة ما يستمعون ويشاهدونه، لضبط الصور الذهنية البصرية والسمعية لأنها ستشكل لهم لاحقاً أفكاراً ومعتقدات فالحرص كل الحرص قبل فوات الأوان في تهذيب وفلترة وضبط الصور الذهنية، قبل أن تصبح مخدرات بصرية وسمعية إدمانية.

لكن أين يقع العقل الضابط الناهي والزاجر والذي يسمى العقل المطبوع أسئلة تراودنا جميعاً.

(1) أين يقع العقل الضابط (العقل المطبوع)؟

(2) هل يوجد ما يثبت في القرآن والسنة أن محله القلب؟

تعالوا نتابع.....

العقل الواعظ الضابط للنفس البشرية

«العقل المطبوع»

بإذن الله سنثبت أن محله القلب وذلك من:

(1) كتاب الله تعالى (القرآن الكريم) الذي فيه تبيان لكل شيء.

(2) من السنة النبوية الشريفة.

(3) من العلماء الثقات.

أولاً... من كتاب الله (القرآن الكريم):

صَّرح القرآن الكريم وبشكل واضح أن العقل محله القلب، وأنه ليس مجازاً:

○ قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ

يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾

الحج/46.

هنا استخدم القرآن الكريم العقل وأكد أنه في القلب وهذه عدة تفاسير تؤكد ذلك:

▪ الآية تدل على أن محل العقل: في القلب، ومحل السمع: في الأذن، فما

يزعمه الفلاسفة من أن محل العقل الدماغ باطل، وكذلك قول من زعم أن

العقل لا مركز له أصلاً في الإنسان، لأنه زمني فقط لا مكاني فهو في غاية السقوط والبطلان^(١).

■ أضاف العقل إلى القلب لأنه محله، ولكن تعمى القلوب التي في الصدور أي عن إدراك الحق والاعتبار وقال قتادة: ((البصر الناظر جعل بلغة ومنفعة، والبصر النافع في القلب، وقال مجاهد: لكل إنسان أربع أعين: عينان في رأسه لدنياه، وعينان في قلبه لآخرته، فإن عميت عينا رأسه وأبصرت عينا قلبه فلم يضره عماه شيئاً، وإن أبصرت عينا رأسه وعميت عينا قلبه فلم ينفعه نظره شيئاً... أي من كان في هذه أعمى بقلبه عن الإسلام فهو في الآخرة في النار))^(٢).

■ أي أن العمى الضار في الدين، عمى القلب^(٣).

■ أي ليس العمى عمى البصر، وإنما العمى عمى البصيرة، فإن كانت القوة الباصرة سليمة فإنها لا تنفذ إلى العبر ولا تدري ما الخبر^(٤).

■ أفلم يسافروا في نواحي الأرض ليروا مصارع المهلكين، فيعتبروا؟! فتصير لهم قلوب يتعقلون بها، أو آذان يسمعون بها الوحي سماع تدبر وتفهم، فإن

¹ - محمد الأمين الشنقيطي: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، الناشر: دار الفكر للطباعة و النشر، ص1239.

² - أبو عبد الله محمد بن أحمد شمس الدين القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، الجزء الثاني المجلد السادس، ص234.

³ - عبد الرحمن بن ناصر السعدي: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ص544.

⁴ - تفسير مختصر ابن كثير للصابوني، ج2، ص547.

الأبصار ليست عمياء، وإنما العمى عمى البصيرة، وسوء استعمال العقل
باتباع الهوى والتقليد^(١).

■ أي يعقلون ما يجب أن يعقل من التوحيد ويسمعون ما يجب سماعه من
الوحي^(٢).

■ فمن كان أعمى القلب لا يعتبر ولا يتدبر، وذكر الصدور للتأكيد ونفي
توهم المجاز^(٣).

وفي موضع آخر قال تعالى:

○ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ ق/37.

■ لمن كان له قلب" أي عقل يتدبر به، فكنى بالقلب عن العقل لأنه موضعه،
قال معناه مجاهد وغيره^(٤).

وقال جل وعلا: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ الأنفال/24.

■ وقال مجاهد: المعنى يحول بين المرء وعقله حتى لا يدري ما يصنع^(٥).

○ ثم قال سبحانه وتعالى ﴿لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا﴾ يس/70.

■ ((أي حي القلب، قاله قتادة، وقال الضحاك: عاقلاً))^(٦).

¹ - د. وهبة الزحيلي: الموسوعة القرآنية الميسرة، ص338.

² - محمود بن عمر الخوارزمي الزمخشري: تفسير الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، ج3،
ص145.

³ - صفوة التفاسير للصابوني، ص756.

⁴ - الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، ج3، ص17، المجلد/9.

⁵ - المرجع السابق، ج2، ص253، المجلد/4.

⁶ - المرجع السابق، ج3، ص38، المجلد/8.

○ وقال أيضاً: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾
الأعراف/179 .

■ ((أي بمنزلة من لا يفقه، لأنهم لا ينتفعون بها، ولا يعقلون ثواباً ولا يخافون عقاباً))^(١).

■ ((لهم قلوب لا يفقهون بها" أي: لا يصل إليها فقه ولا علم، إلا مجرد قيام الحجة))^(٢)، والفقه الذي هو الفهم لا يكون إلا بالعقل.

ثانياً... أدلة من الأحاديث النبوية الصحيحة:

تثبت العديد من الأحاديث النبوية الشريفة أن القلب أمير البدن وبصلاح الأمير تصلح الرعية لأن الضابط والواعظ العقلي في القلب.

○ ورد عنه ﷺ أنه قال: ﴿أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضَغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، إِيَّا وَهِيَ الْقَلْبُ﴾^(٣).

قال النووي في شرحه للحديث: ((واحتج بهذا الحديث على أن العقل في القلب لا في الرأس))^(٤).

وخص بالقلب بذلك لأنه أمير البدن، وبصلاح الأمير تصلح الرعية، وبفساده تفسد، وفيه تنبيه على تعظيم قدر القلب، والحث على صلاحه وإشارة إلى أن لطيب الكسب أثراً فيه والمواد المتعلقة به من الفهم الذي ركبه الله فيه.

¹ - الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، ج2، المجلد الرابع، ص210.

² - تفسير كريم الرحمن للسعدي، ص303.

³ - رواه البخاري رقم/52/ومسلم برقم/1599/.

⁴ - مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري: صحيح مسلم، ج11، ص29.

ويستدل به على أن العقل في القلب، ومنه قوله تعالى: ﴿فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ وقوله تعالى: ﴿لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾، قال المفسرون: ((أي عقل وعبر عنه بالقلب لأنه محل استقراره))^(١).

○ وعنه ﷺ قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى «أَشَارَ بِأَصَابِعِهِ إِلَى صَدْرِهِ»﴾^(٢).

○ قال رسول الله ﷺ: ﴿لِيَلِينِي مِنْكُمْ أَوْلُو الْأَحْلَامِ وَالنُّهَى، ثُمَّ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ﴾^(٣)، وما ذلك إلا ليعقلوا عنه ما يقوله صلوات الله وسلامه عليه^(٤).

ثالثاً... الاستدلال:

بقول عمر رضي الله عنه في ابن عباس رضي الله عنهما: ((إن ذاكم فتى كهول، له لساناً سؤولاً وقلباً عقولاً))^(٥).

مثل العقل والقلب كمثال الصدفة المتينة التي تحيط إحاطة كاملة بالجوهرية وهكذا العقل هو جوهرية النفس البشرية الكامنة في مستودع القلب، فكلما كانت الصدفة متينة قوية بالإيمان كلما حافظت على الجوهرية العقلية، فتقوى وغرس الإيمان في القلب يتناسب طردأً مع نور العقل.

¹ - شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني: فتح الباري في شرح صحيح البخاري ص274، ج1.

² - رواه مسلم برقم/2564.

³ - رواه مسلم.

⁴ - مختصر تفسير ابن كثير، ج3 ص461.

⁵ - رواه الطبراني والحاكم وأبو نعيم الأصبهاني في حلية الأولياء وطبقات الأصفياء.

أسئلة مطروحة:

✓ هل الصفات الجسمية تورث للأبناء.

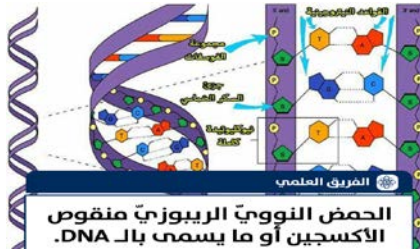
✓ هل للبيئة تأثير في ذلك.

تعالوا نتابع....

توريث الصفات الجسمية بين الوراثة والبيئة

علم الوراثة Genetics: علم يدرس الصفات وكيفية توريثها للأبناء، ويدرس الأمراض الناتجة عنها والتأثير البيئي لها، والعيوب الوراثية التي تظهر وعن إمكانية علاجها في المستقبل، بعد دراسة تاريخية للعائلة.

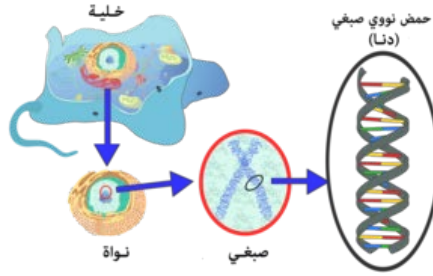
- المادة الأساسية لعلم الوراثة هي DNA "حمض الريبوزي منقوص الأوكسجين" هي التي تحمل الشيفرة الوراثية للإنسان.
- شكل الشيفرة الوراثية المحمولة على DNA عبارة عن سلسلتين متصلتين مع بعضهما البعض من الوحدات البنائية للـ DNA وهي أربع قواعد بنائية كيميائية نيتروجينية.



الشكل رقم (10)

بنية الـ D.N.A

الأدينين A، الجوانين G، السيتوسين C، التايمين T، ويرتبط الأدينين A مع التايمين T، والجوانين G مع السيتوسين C بروابط هيدروجينية. وكل قاعدة ترتبط مع سكر ومجموعة فوسفات لتشكل النيوكليوتيد، وكل ثلاث قواعد تحدد شفرة لحمض أميني المسؤول عن صناعة البروتينات. صناعة البروتينات تكون في خارج نواة الخلية (الريبوزوم) عن طريق طباعة نسخة من الشفرة الوراثية ونقلها من النواة للخارج لصناعة البروتينات.



الشكل رقم (11)

تشكل البروتينات في الخلية

الجين Gene - المورثة: هي جزء من تراكيب كبيرة تسمى الكروموسوم، خلية الإنسان تحتوي على 23/زوج من الكروموسومات منها 22/زوج جسدي و زوج واحد (1) جنسي.

((قبل أن تنقسم الخلية يجب أن تنسخ معلوماتها الوراثية بحيث تنقل نسخة كاملة من هذه المعلومات إلى الخلية البنت، وهكذا عندما يتفرق الشريطان المكونان للولب المزدوج الـ DNA، فإن كلا منهما يشكل قالباً لإنتاج شريط آخر مكمل له يماثل تماماً الشريط المكمل الأصلي (ومع ذلك قد تقع الأخطاء أحياناً، عندها

تسمى الطفرة) وكل ثلاث أحرف أو قواعد بناء في - DNA - ترمز إلى حمض أميني من الحموض الأمينية العشرين، هذه الحموض الأمينية ترتبط ببعضها لتشكل واحداً من آلاف البروتينات والتي تعتبر المكونة للجسم البشري^(١).

((إن التطور السريع لعلوم المورثات ظهر حديثاً، حيث تم كسر شيفرة المادة

الوراثية التي يحملها الحمض النووي الريبي DNA من جيل إلى جيل وذلك بسبب بنيته اللولبية ودرجات السلم المكونة من أربع مركبات كيميائية بسيطة شكلت المفتاح إلى حل لغز شيفرة الحياة.

هذا الشريط الحلزوني عبارة عن شريط من المعلومات الرقمية التي تشرح عمل جسم الإنسان.

ففي/26/حزيران من العام 2000م وقف كولينزوفتر بجانب بيل كلنتون في البيت الأبيض وخاطب كلنتون قائلاً: ((اليوم نتعلم اللغة التي خلق الله بها الحياة))^(٢).

((الشفرة الوراثية الكاملة تشرح عمل جسم الإنسان وتحتوي على ثروة من المعلومات لا تقدر بثمن، لكن قراءة هذه المادة المكونة من ثلاثة بلايين حرف عمل ممل للغاية.

ولو أن الشيفرة الوراثية كتبت على الأوراق التي نكتب فيها فإن الصفحة الواحدة ستحوي/300/رمز وراثي والمورثة الواحدة ستأخذ خمس صفحات وسطياً وسيشغل الشريط الوراثي للصبغي الواحد/200/كتاب، وتحتاج المادة الوراثية

¹ - كيفن ديفس: الجينوم - كسر شفرة المورثات، الناشر: شركة العبيكان للنشر، ص 57-58.

² - المرجع السابق، ص 78-79.

مجتمعة إلى/4000/ نسخة وبعبارة أخرى فإن الاستماع إلى قراءة كاملة لرموز في المادة الوراثية البشرية سيستغرق عمر الإنسان بأكمله⁽¹⁾.

يلتف DNA ويتكثف ضمن نواة الخلية، والمسافة بين رمزين متجاورين في الشيفرة هي 0.34 نانو متر (أي أقل من واحد إلى بليون من المتر) ولو مدَّ الـ DNA بشكل كامل فقط في: خلية واحدة لكان طوله متران أو ستة أقدام.

إن المادة الوراثية الموجودة في/100/ تريليون خلية تشكل جسم الإنسان تساوي لو مدت عشرين ضعفاً المسافة بين الأرض والشمس⁽²⁾.

الطفرة الوراثية تؤدي إلى أمراض وراثية نتيجة اختلالات من الانقسامات الخلوية المنصفة للخلايا، مثال ذلك:

متلازمة داون المنغولية:

التي تحدث بسبب فشل الصبغيات في الانفصال عن بعضها أثناء انقسام بويضة الأم فينتج نسخة إضافية من الصبغي/21/ أي وجود ثلاث كروموسومات للكروموسوم/21/ ويتضمن صفات الشخص المصاب بمتلازمة داون، وجود طية في جلد الجفون العليا - قصر القامة - الأيدي واسعة - أصابع اليد والقدم قصيرة - الوجه مستدير عريض - اللسان بارز عريض، مع ظهور علامات للتخلف العقلي يجعل الكلام صعباً وهناك أمراض شائعة تصيب هؤلاء المصابين بمتلازمة داون.

¹ - المرجع السابق، ص55.

² - المرجع السابق، ص56.

إصابات في الجهاز التنفسي - الليوكيميا - إصابات قلبية - ومع وجود جراحة القلب المفتوح والتقنيات العلاجية⁽¹⁾.

ليست الوراثة هي العامل الوحيد في تكوين صفات الإنسان، لكن للبيئة وهي عامل قوي ومؤثر في تكوين صفات الإنسان.

وقد تكون البيئة المؤثرة إما المحيطة به (الطبيعة) كالجو والمسكن والقوم ونمط الأكل والمشرب والجغرافية، بشكل عام تؤثر على تكوين صفات الإنسان.

السؤال الهام هل توجد مورثات سلوكية في الإنسان؟!

إن الفكرة القائلة بأن المورثات تؤثر على سلوك الإنسان وشخصيته، هي فكرة جذابة، ففي السنوات الخمس السابقة ازدادت الأدلة على أن عدداً من الصفات

السلوكية عند الإنسان تتأثر جزئياً على الأقل بالـ DNA.

ورأى عدد من الدراسات أن السلوك الإنساني المعقد يمكن أن تصوغه مورثة واحدة، أكثر الأمثلة دلالة على ذلك أولئك الأشخاص الذين يقومون بشكل منتظم بارتكاب جرائم الاغتصاب وإشعال الحرائق، وقد تبين أن لديهم طفرة مورثة مسؤولة عن ناقل عصبي يدعى مونو أمين أوكسداز⁽²⁾.

وقد وجد المؤلفون دلائل قوية على مساهمة الوراثة بإحساس الإنسان بالسعادة.

إذا استغرقتنا أكثر في مفهوم مورثات السعادة سنجد أن أول مادة يمكن أن تلعب مثل هذا الدور هو الناقل العصبي المسمى الدوبامين، وهي مادة السرور الكيميائية

¹ - مدخل إلى علم الوراثة البشرية: د. سمير قاري، الناشر دار الفكر للنشر والتوزيع، ص 314 - 315.

² - الجينيوم-كسر الشيفرة الوراثية، ص 328.

الموجودة في الدماغ، إن إطلاق وتحول الدوبامين والمادة القريبية (السيروتونين) هي أول الظواهر التي تفسر تأثير المورثات على السلوك⁽¹⁾.

أهم الهرمونات التي تفرزها النواقل العصبية هي الدوبامين - السيروتونين - الأدرينالين - النور أدرينالين التي تتحكم في مزاجنا وشعورنا وسعادتنا فالسلوك والأخلاق والعادات والمواهب وإنماء العقل والشخصية يعتمد بشكل كبير على البيئة الاجتماعية المحيطة بالفرد وعلى التربية، فإذا كانت جميع معطيات البيئة سلبية كالفقر - أمراض وبائية واجتماعية - تخلف - شعوذات - النتيجة ضعف السلوك والأخلاق والمعتقد الديني وتهاوي العقول لشطط الفكر وانحلاله في المجتمع، نتيجة كثرة الصور الذهنية الخاوية والمثبطة التي يحملها أكثر أفراد هذه المجتمعات ستولد حتماً أفكار واهية للأشخاص قد يجنح بعضهم لارتكاب الجرائم والشذوذ فتتطفئ شعلة العقل، وعلى العكس تماماً، عندما تكون الحاضنة الاجتماعية والمدرسية وصحبة الأخيار والأهل ذات السمعة الطيبة والمعتقد والأعراف الصالحة تحف الإنسان ليرتقي ويربو في المنبت الصالح والمعتقد الصالح.

○ ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبثَ لَا يَخْرِجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ الأعراف/58.

بهذا تنوَس الطبائع المطبوعة في قلب الإنسان والمجبولة فيه بنور الإيمان وشعلة العقل فتزداد تألقاً فينمو ويربو بها الإنسان بفكر صالح ومعتقد سليم فتزداد دواعي الخير في قلبه وتطفئ على دواعي الشر وطبائع الخبث فيه، فيخنث شيطانه.

وأما الآخر الذي من المنبت الشر ومتأثر بهوى نفسه وأهله فتتقوى دواعي الشر على دواعي الخير:

¹ - كيفن ديفس: الجينوم - كسر شفرة المورثات، ص331.

○ ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ محمد/16.

وعنه ﷺ قال: ﴿مَا مِنْ مَوْلِدٍ إِلَّا يُوَلَّدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يَنْصُرَانِهِ أَوْ يمجسانه﴾⁽¹⁾.

والمراد بالفطرة: الخلقة والجبلة، أي أن الله خلق الناس على حالة تمكنهم من إدراك الحق وقبوله، ووضع في قلوبهم محبة الحق وهو الإيمان بالله وفعل الخير، لكن عوامل إفساد هذه الفطرة كثيرة، وعلى رأسها إغواء الشيطان وتأثير الأهل والمعتقدات الفاسدة، فتنحرف الفطرة وتفسد كما يفسد الخل العسل.

أسئلة محيرة:

- ✓ هل المورثات السلوكية موجودة في قلب الإنسان فقط؟.
- ✓ هل جِبِل الإنسان على بعض الطبائع الطيبة والخبیثة؟.
- ✓ هل يوجد تأثير للبيئة الاجتماعية والتربية في تهذيب الطبائع الخبيثة المَجْبُولَة في قلبه؟.
- ✓ هل الوراثة السلوكية تورث إلى الأبناء؟.
- ✓ هل جِبِل الإنسان على بعض الصفات السلوكية الخيرة والشريرة؟.

تعالوا معاً نتابع الإعجاز المبيح في توريث الصفات السلوكية كما بدا لي في القراء العظيم
والسنة المطهرة

¹ - أبو عبد الله محمد بن اسماعيل البخاري: صحيح البخاري، الحديث رقم/1258.

المورثات السلوكية

الموجودة في قلب الإنسان

«دراسة علمية قمت بها بفضل من الله وكرمه»

مما يدل دلالة قاطعة على وجود مورثات سلوكية مندمجة في قلب الإنسان ومؤلفة من زوج «شفع» صنفين متقابلين أحدهما ظاهر والآخر ضامر في قلب الإنسان، موجودة في خلايا خاصة متميزة ومتطورة جداً ولا توجد إلا في القلب... أكرر لا توجد إلا في القلب.

فالظاهرة تكون قوية واضحة للمرء والعيان منها الخلق الحسن ومنها الخلق السيئ والأخرى مستورة «أو متنجية» تكون خامدة لا تظهر للعيان منها خلق خير ومنها خلق شر، فالإنسان لديه استعداد فإما ينميها أو يخفيها، وذلك بالتعود الإرادي ومزاولته. فتعالوا نشبث لكم صحة هذا القول بإذن الله.

○ قال تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ الذاريات/49، (أي صنفين)⁽¹⁾.

○ قال تعالى: ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾ الزخرف/12.

¹ - تفسير كريم الرحمن للسعدي، ص 823.

أي الأصناف جميعها، مما تنبت الأرض، ومن أنفسهم ومما لا يعلمون، من ليل ونهار، وحر وبرد، وذكر وأنثى، وغير ذلك^(١).

○ قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ يس/36.

○ قال تعالى: ﴿مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ﴾ 19 ﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ﴾ عبس/20.

○ قال تعالى: ﴿فَبَشِّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ الصافات/101، (يتضمن الصبر، وحسن الخلق، وسعة الصدر، والعمو عن جنى)^(٢)، أي أن إسماعيل عليه السلام حلِيم في جبلته التي خلق منها.

○ قال تعالى: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَيَّ الْأَرْضَ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ 26 ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يَضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاَجِرًا كَفَّارًا﴾ نوح/27.

ومصدقا لهذا ما جاء في السنة المطهرة:

○ ﴿حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ كَثِيرٍ قَالَ: أَخْبَرَنَا سُفْيَانُ، عَنْ زَيْدٍ، عَنْ مَرَّةَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَسَمَ بَيْنَكُمْ أَخْلَافَكُمْ كَمَا قَسَمَ بَيْنَكُمْ أَرْزَاقَكُمْ وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُعْطِي الْمَالَ مَنْ أَحَبُّ وَمَنْ لَا يُحِبُّ وَلَا يُعْطِي الْإِيْمَانُ إِلَّا مَنْ يُحِبُّ﴾^(٣).

○ وعنه ﷺ قال: ﴿يُطَبِّعُ الْمُؤْمِنُ عَلَى كُلِّ خَلْقٍ إِلَّا الْخِيَانَةَ وَالْكَذِبَ﴾.

¹ - المرجع السابق، ص773.

² - تفسير كريم الرحمن للسعدي، ص713.

³ - الإمام أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري: المستدرک علی الصحیحین، 33/1، وأخرجه أحمد بن الحسين أبو بكر البيهقي في كتاب شعب الإيمان وقال الألباني: صحيح من كتاب الأدب المفرد للبخاري، رقم/257.

هذا للمؤمن يطبع على كل الصفات والسلوكيات الخلقية إلا الخيانة والكذب.

○ عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿لَا يَجْتَمِعُ غِبَارٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَدُخَانٌ جَهَنَّمَ فِي جَوْفِ عَبْدٍ أَبَدًا، وَلَا يَجْتَمِعُ الشُّحُّ وَالْإِيمَانُ فِي قَلْبِ عَبْدٍ أَبَدًا﴾^(١).

○ عن أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ قال: ﴿خَصَلْتَانِ لَّا يَجْتَمِعَانِ فِي مُؤْمِنٍ: الْبَحْلُ وَسُوءُ الْخُلُقِ﴾^(٢).

○ سأل الإعراب رسول الله، قالوا: ﴿يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا خَيْرٌ مَا أُعْطِيَ الْإِنْسَانُ ؟ قَالَ " خَلَقَ حُسْنًا "﴾^(٣).

هذا مما يؤكد أن المؤمن قلبه "مثل الصفا لا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض" لأن قلبه أشرب نور الإيمان والحكمة ونور القرآن فتتوسم المورثات السلوكية الخلقية الحسنة فتزداد تألقاً ونوراً حتى يصبح القلب أبيض سليماً فلا مكان مطلقاً لسوء الخلق في قلبه لأنه ألزم نفسه وتعود على إنماء الخلق الحسن لديه وتقرب لأهل الخير والبر.

أما الكافر فلا يملك إلا الدناءة وسوء الخلق لأنه تعود عليه لاستعداد في طبعه وجبلته فتسعى إرادته لعمله:

○ ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ محمد/16.

عن ابن عباس قال: قال النبي ﷺ للأشج عبد القيس:

¹ - رواه البخاري في الأدب المفرد رقم/281 و محمد بن عيسى الترمذي في كتابه سنن الترمذي برقم/1633.

² - رواه البخاري في الأدب المفرد، برقم/282 والترمذي في سننه برقم/1962.

³ - رواه البخاري في الأدب المفرد، برقم/291.

○ ﴿إِنَّ فِيكَ لَخَصَلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللَّهُ: الْحَلْمُ، وَالْأَنَاةُ﴾^(١).

وفي رواية أخرى قال له النبي ﷺ: ﴿أَمَا إِنَّ فِيكَ لَخَلْقَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ، فَقَالَ: جَبَلًا جَبَلَتْ عَلَيْهِ، أَوْ خَلْقًا مَعِيَ؟ قَالَ: لَا، بَلْ جَبَلًا جَبَلَتْ عَلَيْهِ، قَالَ: الْحَمْدُ لَهُ الَّذِي جَبَلَنِي عَلَى مَا يُحِبُّ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾^(٢).

الحلم ضبط النفس والطبع عن هيجان الغضب وجمعه أحلام:

○ قال تعالى: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ﴾ الطور/33، قيل معناه عقولهم وليس الحلم في الحقيقة هو العقل لكن فسروه لذلك لكونه من مسببات العقل.

○ ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾ هود/75.

○ ﴿فَبَشِّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ الصافات/101، أي وجدت فيه قوة الحلم^(٣).

الأناة: ترك العجلة، فهي التأنى في الأمور وعدم العجلة.

والأناة هي التؤدة وهي التأنى والرزانة والصبر وحسن التصرف، وضده الطيش والعجلة.

والعجلة هي طلب الشيء وتحريه قبل أوانه وهو من مقتضى الشهوة، فذلك صارت مذمومة في عامة القرآن حتى قيل العجلة من الشيطان:

○ ﴿سَأْرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ الأنبياء/37.

○ ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ﴾ طه/114^(٤).

¹ - أخرجه مسلم، 25/17.

² - رواه البخاري في الأدب المفرد برقم 587.

³ - المفردات في غريب القرآن للأصفهاني، ص 136.

⁴ - المرجع السابق، ص 326.

إذاً هذه المورثات تنتقل من جيل إلى آخر على شكل استعداد طبيعي، فالذي ينميها هو الشخص نفسه، فتكون رغبته وميله وإرادته، والعقل هو الذي يتحكم بأهوائه وشهواته ويضبط تصرفاته بالتؤدة والرزانة وحسن التصرف وتفويض الأمر لله عز وجل.

وعنه ﷺ قال: ﴿إذا أردت أمراً فعليك بالتؤدة، حتى يريك الله منه المخرج، أو حتى يجعل الله لك مخرجاً﴾^(١).

فالمزاج الطبيعي المتعجل والطائش للأهل مؤثر على الأولاد، فيكون الأولاد على استعداد متعطش لهذه العجلة، وأخذ القرار السريع والانفعال والغضب، وهنا يتوقف الأمر على البيئة، وعلى الإنسان نفسه أن يتعود بإرادته على ضبط انفعالاته وإخماد ثورة الغضب بالرزانة والصبر، وذلك بالتعود والتكرار، وبالتحلم والتصبر، فلو كانت الأخلاق السلوكية لا تقبل التغيير لما قال رسول الله ﷺ: ﴿حسنوا أخلاقكم﴾، وفي موضع آخر: ﴿اللهم حسن خلقي وخلقهم﴾^(٢).

تعالوا نتابع معاً المورثات السلوكية...

¹ - البخاري في الأدب المفرد رقم 888، والبيهقي في شعب الإيمان.

² - أخرجه احمد برقم 38 13.

الفرع الأول

حادثة شق صدر النبي ﷺ

أسئلة مطروحة:

- ✓ ما مغزى شق صدر النبي ﷺ؟.
- ✓ ماذا أخذ من صدره؟ وما هيئته؟.
- ✓ هل كان شيئاً مادياً؟ أم معنوياً؟ ولماذا؟.
- ✓ لماذا تكررت حادثة شق صدر النبي ﷺ لأكثر من مرة؟.

عن أنس بن مالك: ﴿أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَتَاهُ جَبْرِيْلُ وَهُوَ يَلْعَبُ مَعَ الْغُلَّامَانِ فَأَخَذَهُ فَصَرَعَهُ فَشَقَّ عَنْ صَدْرِهِ فَاسْتَخْرَجَ الْقَلْبَ فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ عُلْقَةً فَقَالَ هَذَا حَظُّ الشَّيْطَانِ مِنْكَ﴾.

ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم ثم لأمه ثم أعاده إلى مكانه وجاء الغلمان يسعون إلى أمه «حاضنته سعدية» فقالوا إن محمداً قد قتل.

فاستقبلوه وهو منتقع اللون قال أنس: ((وقد كنت أرى أثر ذلك المخيط في صدره))⁽¹⁾، (فاستخرج منه علقه)، «العلق التشبث بالشيء، يقال علق الصيد في الحباله، والعلق الدم الجامد متشبث بعضه ببعض - مادي - محسوس»⁽²⁾. فقال: ((هذا حظ الشيطان))، ثم إخرجه من قلبه الشريف.

¹ - رواه مسلم برقم/262.

² - المفردات في غريب القرآن للأصفهاني، ص 347.

• حادثة شق الصدر تكررت مرة أخرى قبيل الإسراء والمعراج حيث قال ﷺ: ﴿بَيْنَا أَنَا فِي الْحَطِيمِ «وَرُبَّمَا قَالَ فِي الْحَجْرِ» مُضْطَّجِعَ بَيْنَ النَّائِمِ وَالْيَقْظَانَ أَتَانِي آتٌ، فَشَقَّ مَا بَيْنَ هَذِهِ إِلَى هَذِهِ «يَعْنِي نَعْرَهُ إِلَى شِعْرَتِهِ» قَالَ: فَاسْتَخْرَجَ قَلْبِي، ثُمَّ حَشِي ثُمَّ أُعِيدَ»^(١).

• وبرواية مسلم... ﴿فَاسْتَخْرَجَ قَلْبِي فَعُغِلَ بِمَاءِ زَمْزَمَ ثُمَّ أُعِيدَ مَكَانَهُ ثُمَّ حَشِيَ إِيْمَانًا وَحُكْمَةً»^(٢).

استنتاجات حادثة شق الصدر الحسية الحقيقية:

تؤكد أن القلب مستودع المعتقدات والأحاسيس والمشاعر، والمعتقد الإيماني - الإسلام - هو نور من الله يستقر في قلب الإنسان. إن شق الصدر واستخراج القلب المادي ونزع العلقه منه «مادية» لدلالة أكيدة على وجود المورثات السلوكية تسمى الطباع، مجبولة في قلب الإنسان.

بهذه الحادثة تم نزع حظ الشيطان منه فنزع كل مسبب لعمل الشيطان مهما كان ضامراً أو مخفياً فلا ولن يتمكن الشيطان من الاقتراب منه أبداً وبث وسوسته وظنونه الشريرة فيه وكل ذلك تحت العناية الإلهية وحصراً لرسوله الكريم ﷺ.

فلا حقد ولا غل ولا سخط لعدم وجود حظ من هذا في قلب رسول الله ﷺ فكل دواعي الشر ألغيت مهما صغر فتاته فلن يقات الشيطان عليه لعدمه، بل استعويض عنه بغسل قلبه بماء زمزم الطاهر النقي وبنور الله الذي أنار قلبه وعقله بالإيمان والأخلاق الحميدة من الرحمة والرفقة والمحبة والسكينة، تدبروا الآية الكريمة عندما يدخل المؤمنون الجنة وينتزع من قلوبهم الغل، وهو حظ الشيطان منهم:

¹ - رواه البخاري برقم/6-332.

² - رواه مسلم برقم/164.

○ قال تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غَلٍ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ الحجر/47.

فليس الخير والسكينة والرأفة والعدل إفراز يفرزه الجسم «ليست مادية» بل نورانية تعطي من الله لمن أراد له الخير، وكان رسولنا ﷺ أولاهم - وعليه نزل القرآن، هذا النور المضيء لقلبه الشريف، وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت ﴿كَانَ خُلُقَ رَسُولِ اللَّهِ الْقُرْآنَ﴾⁽¹⁾.

○ قال تعالى: ﴿نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ النور/35.

○ ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ الشورى/52.

كيف لا وهو يتحضر لاستقبال القرآن الكريم وهو أعظم أنوار الحكمة فيضيه عقله ليتبصر نور الحكمة الإلهية.

إن الإنسان يحمل في قلبه هذه المورثات السلوكية «الطباع» وعلى المؤمن أن يجاهد نفسه لكي يتغلب على مزالتق الطبع الإنساني كشهواته وأهواء نفسه بلجم دواعي الشر في قلبه وإضعاف هذه الطاقات السلبية في قلبه لكي يخنث الشيطان من العبث به بوسوساته وظنونته الشريرة.

ويجب أن يبقى هذا الإنسان في مجاهدة مع نفسه حتى لحظة موته خوفاً من ضعف نور الإيمان في قلبه فيضعف واعظ الله في نفسه، فيركن العقل لهوى وشهوة النفس، لأن كل إنسان معه قرين من الجن يبث وسوسته لفعل الشر، فبنور الإيمان والقرآن يقوى واعظ الله في قلبه فيغلب هذا القرين الذي يعبث بالمورثات الضامرة من حقد وحسد وغيره، فتهدأ النفس المؤمنة المطمئنة وتركن إلى نور الإيمان فتقوى شجرة الإيمان وأوراقها التي فيها محبة وعطاء وخير.

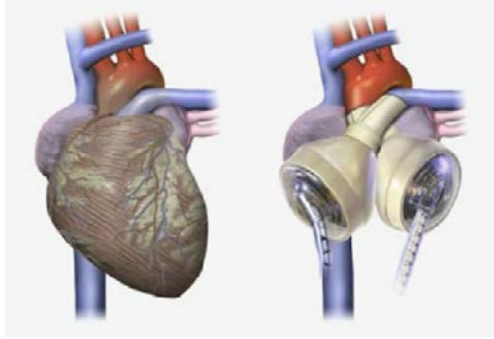
¹ - رواه مسلم برقم 746.

عن عبد الله بن مسعود قال رسول الله ﷺ: ﴿مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَكُلَّ بِهِ قَرِينُهُ مِنَ الْجِنِّ وَقَرِينُهُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، قَالُوا: وَإِيَّاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: وَإِيَّايَ، إِلَّا أَنْ اللَّهَ أَعَانَنِي عَلَيْهِ فَأَسْلَمَ، فَلَا يَأْمُرُنِي إِلَّا بِخَيْرٍ﴾^(١).

وعنه ﷺ قال: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنْ أَيْدِي أَدَمَ مَجْرَى الدَّمِ﴾^(٢).

ولهذا فإن القلب أمير البدن وبصلاح الأمير تصلح الرعية وهذا ما أكده رسول الله ﷺ حيث قال: ﴿أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضَغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، إِنْهَا وَهِيَ الْقَلْبُ﴾^(٣).

في العصر الحديث وبتطور العلوم الطبية استطاع الأطباء أن يستبدلوا القلب المريض بقلب إنسان آخر أو بقلوب اصطناعية.



الشكل رقم (12)

قلب اصطناعي... قلب طبيعي

¹ - أخرجه مسلم في صحيحه برقم/8-139.

² - أخرجه مسلم برقم/2174.

³ - رواه البخاري برقم/52 ومسلم برقم/1599.

كانت المفاجأة أن بعد عملية زرع القلب الاصطناعي يتأثر الإدراك والفهم والمشاعر بل يزداد المريض تشاؤماً وقد يؤدي إلى الانتحار للتغير الكامل في طبائع هذا الإنسان ومشاعره، أي تغير كامل في شخصية الإنسان، وكثير منهم من يفقد الإيمان، لأن الإيمان مترسخ في القلب وكذلك المشاعر والمعنويات والهوى والشهوات والعقل، حتى الإرادة البشرية تتغير وتتغير المفاهيم الفكرية وهذا ما يثبت أن القلب الطبيعي هو دماغ مصغر يتحكم بكل شيء، حتى أنه يتحكم بالدماغ الأساسي وذلك لوجود عشرات الألوف من الخلايا العصبية المتميزة والمتطورة في خلايا القلب التي تأمر الدماغ بإفراز الهرمونات وتنظيمها وتنظيم عمله وكأن القلب هو الكمبيوتر المغذي والمبرمج لكل الجسم، حتى أن مجال الحقل الكهربائي للقلب يؤثر على بقية أعضاء الجسم وخاصة على عمل الدماغ.

هذه الهالة الكهرومغناطيسية تتناثر مع بعض القلوب وتتجاذب مع الأخرى، وكلنا نشعر بهذا ونلاحظه حتى بدقات القلوب ويزداد التواصل مع الآخر أو النفور منه.

ألم يقل رسول الله ﷺ: ﴿الْأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا اثْتَلَفَ وَمَا تَنَاطَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ﴾^(١).

قال الخطابي: ((الأرواح جنود مجندة، إشارة إلى معنى التشاكل في الخير والشر والصلاح والفساد، وأن الخير من الناس يحن إلى شكله، والشرير نظير ذلك يميل إلى نظيره، فتعارف الأرواح يقع بحسب الطباع التي جبلت عليها من خير وشر، فإذا اتفقت تعارفت، وإذا اختلفت تناكرت))^(٢).

بهذه الدراسة التي قمت بها يتأكد لنا أن هذا القلب يحمل في خلاياه المتميزة جداً والمبرمجة بشكل لم يستطيع العلماء دراسته، أن حامله إن كان مؤمناً فإنه يملك قلباً سليماً أبيض لضعف وضمور العلة المادية «حظ الشيطان» فتضمير فيها لمة

¹ - رواه مسلم برقم/2638.

² - الأدب المفرد للبخاري ص373.

الإيعاذ بالشر وتقوى لمة الإيعاذ بالخير، وتنمو شجرة القلب النقية بالإيمان والأخلاق الحميدة وثمارها «الكلام الطيب والعمل الصالح» قال تعالى:

○ ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿24﴾ تُوْتِي أ كُلَّهَا كُلَّ حِينٍ يَاذِنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبِ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ابراهيم/24-25.

أما الكافر فإنه يحمل قلباً أسوداً قاسياً لعدم سقايته من نور الإيمان، فتتمو فيه لمة الإيعاذ بالشر لتملاً القلب كله المشحون بشجرة خبيثة من الكفر والحقد والكره والطبائع السيئة الماكرة وحب الهوى والشهوات والمعصية، فثمارها هالكة، فلا قول ولا عمل صالح، قال تعالى:

○ ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ ابراهيم/26.

ويشهد لهذا قوله ﷺ: ﴿إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَذْنَبَ ذَنْبًا نُكْتَ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءٌ، فَإِذَا تَابَ وَنَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ صُقِلَ قَلْبُهُ وَإِذَا زَادَ زَادَتْ حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبَهُ فَذَلِكَ الرَّأْنُ الَّذِي ذَكَرَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ المصطفين/14﴾^(١).

هذا الحديث يؤكد على لزوم تعود المؤمن على الالتزام بالأخلاق الحميدة.

- الحياء كذلك، مطبوع في جبلة الإنسان والحياء شعبة من شعب الإيمان^(٢).
- عن أنس بن مالك، عن النبي ﷺ، قال: ﴿مَا كَانَ الْحَيَاءُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ، وَلَا كَانَ الْفُحْشُ فِي شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ﴾^(٣).

تعالوا ننظر إلى تأثير البيئة على الإنسان ومزاولة ومعاودة التخلق بخلق حسن.

1- أبو عبد الله محمد بن يزيد ابن ماجة الربيعي القزويني: سنن ابن ماجه، رقم/4234.

2- قال ﷺ: ﴿الإيمان بضع وستون شعبة، والحياء شعبة من الإيمان﴾، أخرجه البخاري برقم/9.

3- أخرجه الترمذي برقم/1974.

عن أم الدرداء قالت: ((قام أبو الدرداء ليلة يصلي، فجعل يبكي ويقول: اللهم أحسنت خلّقي فحسن خلّقي، حتى أصبح، فقلت: يا أبا الدرداء ما كان دعاؤك منذ الليلة إلا في حسن الخلق؟ فقال: يا أم الدرداء إن العبد المسلم يحسن خلقه حتى يدخله حسن خلقه الجنة، ويسيء خلقه، حتى يدخله سوء خلقه النار))^(١).

○ وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ محمد/17.

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿الْمُؤْمِنُ غَرِيبٌ، وَالْفَاجِرُ حَبٌ لِنَيْمٍ﴾^(٢).

وإثبات أن النفس المؤمنة تقترب أكثر وأكثر لما يحب الله ويرضى فتتوسم هذه الصفات الخيرة بنور الإيمان والقرآن وبإشراقه العقل، فيتعود المؤمن على فعل الخير، وهذا ما يؤكد تأثير المنهج الرباني على توجيه الإنسان ودفعه باتجاه الطريق المستقيم فيألف الطاعة ويحبها ويتعود عليها.

وفي الحديث النبوي الشريف: ﴿الْخَيْرُ عَادَةٌ وَالشَّرُّ لَجَاجَةٌ﴾^(٣)، وإذا اعتادت النفس فعلاً ما من أفعال الخير حصل له نور في قلبه، وأن يشرح به صدره، فلا يأتي فعل ثانٍ إلا وفي النفس له القبول.

هذا في عادة الله في أهل الطاعة، وعادة أخرى جارية في الناس، أن النفس أقرب انقياداً إلى فعل يكون عندها فعل آخر من نوعه، ومن هنا كان ﷺ يكره أضداد هذا ويحب ما يلائمه، فكان يحب الرفق ويكره العنف، وينهى عن التعمق والتكلف

¹ - أخرجه أبو داود رقم/3855/ وصححه الألباني.

² - أخرجه أبو داود برقم/4790/.

³ - سنن ابن ماجه.

والدخول تحت ما لا يطاق حمله، لأن هذا كله أقرب إلى الانقياد، وأسهل في التشريع للجميع^(١).

وعنه ﷺ قال: ﴿وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ، يُعِفَّهُ اللَّهُ وَمَنْ يَسْتَعْنِي يُعِنِّهِ اللَّهُ، وَمَنْ يَصْبِرْ، يُصَبِّرْهُ اللَّهُ﴾^(٢).

وإليكم بعض الآيات التي تدل على عملية الوسم النوراني الإيماني للصفات والطباع للمؤمن لكي يعتاد عليها بعد أن زاولها مراراً وتكراراً...
البداية نور الإيمان:

○ قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِّنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ الزمر/22.

○ قال تعالى: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُّورٍ﴾ النور/40.

○ قال تعالى: ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾
الروم/50.

هذا القلب هو محل نظر الله عز وجل لأنه وعاء لكل المعتقدات والصفات السلوكية المجبولة في جبلة الإنسان، فجعله قلباً سليماً أبيضاً نقياً، لكي تصل إلى الله عز وجل غانماً وسعيداً.

فتعالوا معاً ندخل إلى القلب ونعدد المراكز التي بداخله... وسنلاحظ دائماً هناك لكل شيء إيجابي يقابله السلبي، فمن أشرب هواه دواعي الشر والخبث والمعصية

¹ - الحافظ إبراهيم بن موسى الشاطبي: الموافقات في بيان مقاصد الكتاب والسنة والحكم والمصالح الكلية الكامنة تحت آحاد الأدلة ومفردات التشريع والتعريف بأسرار التكليف في الشريعة ج2، ص52.

² - رواه البخاري برقم/1469/ومسلم برقم/1053/.

أسود قلبه ومن أنكر هذه الدواعي وابتعد عن المعصية وسوء الخلق كان قلبه أبيض سليماً .

وعن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ﴿تُعْرَضُ الْفِتْنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عوداً عوداً، فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكَّتَتْ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءٌ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكَّتَتْ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيضاءٌ، حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ: عَلَى أبيضَ مِثْلَ الصَّفَا فَلَا تُضِرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ، وَالْأَخْرُ أَسْوَدُ مَرِياداً كَالْكُوزِ مَجْحِيأً لَا يُعْرَفُ مَعْرُوفاً وَلَا يُنْكَرُ مَنْكَراً إِلَّا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ﴾⁽¹⁾.

بهذا البحث يتأكد لنا أن القلب أمير البدن وبصلاح الأمير تصلح الرعية وبفساده تفسد، لهذا جعل قلب النبي صلى الله عليه وسلم أبيض القلوب وأنقاها وجبل بأحسن الأخلاق وهذا ما أكدته الله عز وجل: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ القلم/4.

فتعالوا نحسن أخلاقنا بإرادة التعويد كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿حَسِّنُوا أَخْلَاقَكُمْ﴾، بأن يكون ضمير المؤمن ووجدانه هو صوت الواعظ العقلي في قلبه يصدق ويرشده لعمل الواجب وفعل الخير، ويمنعه من عمل المنكر، عندها يشعر بالسعادة وراحة البال، أما الفؤاد فأصل الكلمة من فعل «فأد»، وهو فعل يشير إلى إصابة القلب بداء أو وجع.

أسئلة مطروحة:

- ✓ هل تعتقد أن في القلب مراكز لكل شيء؟.
- ✓ هل صحيح بأن القلب أمير البدن كيف ولماذا؟.

تعالوا معاً نناقش....

¹ - أخرجه مسلم برقم/144.

الفرع الثاني

القلب أمير البدن

جميلة المعتقدات والأحاسيس والمشاعر والسلوكيات والمعارف لها مراكز في القلب والتي تحتوي على زوج أحدهما ظاهر والآخر ضامر، هذا التآرجح بينهما يميل إما إلى كفة الخير وإما إلى الشر، لكن المعتقد الإيماني للمؤمن يطغى على الكثير من المراكز الدافعة إلى المعصية، لأنه نور من الله تعالى فأسألوا الله أن تكون لمة الإيعاذ بالخير هي القوية والسائدة، فتعالوا نبداً:

القلب مركز الإيمان والكفر:

○ قال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبِيبٌ إِلَيْكُمْ إِلِيمَانٍ وَزَيْنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَهُ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾ الحجرات/7.

○ قال تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ الحجرات/14.

○ قال تعالى: ﴿إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ النحل/22.

○ قال تعالى: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيْمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكَفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ النحل/106.

○ قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾ المجادلة/22.

● القلب مركز الخير والشر:

- قال تعالى: ﴿إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا﴾ الأنفال/70 .
- قال تعالى: ﴿وَلِيْمَحْصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ آل عمران/154 .

● القلب مركز البر والإثم:

- حديث شريف: ﴿إِنَّمَا مَا حَاكَ فِي الصَّدْرِ وَخَشِيْتُ أَنْ يَطَّلَعَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾⁽¹⁾ .
- قال بعض السلف: ((الإثم حواز القلب)).

● القلب مركز التقوى والنفاق:

- قال تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعِظْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ الحج/32 .
- قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى﴾ الحجرات/3 .
- قال تعالى: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ التوبة/77 .
- حديث شريف: ﴿التَّقْوَى هَا هُنَا، وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ﴾⁽²⁾ .

● القلب مركز الطمأنينة والرعب:

- قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ الرعد/28 .

¹ - رواه أحمد برقم/18023/ومسلم/2553/ .

² - رواه مسلم برقم/2564/ .

○ قال تعالى: ﴿سَأَلْتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ الأنفال/12.

○ قال تعالى: ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ الأحزاب/26.

○ قال تعالى: ﴿فَتُخِيبَتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ﴾ الحج/54، أي تطمئن وتسكن.

● القلب مركز اليقين والظن والريبة والشك:

○ قال تعالى: ﴿فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ الأعراف/2، أي شك.

○ قال تعالى: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ التوبة/110.

○ قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رِيبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ التوبة/45.

● القلب مركز الحب والبغض:

حديث شريف: ﴿أَوْتِقُ عَرَى الْإِيمَانِ الْحُبُّ فِي اللَّهِ وَالْبُغْضُ فِي اللَّهِ﴾⁽¹⁾.

● القلب مركز الهداية والضلال وإنكار الحق:

○ قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِنَّا بِيَدِنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنِ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ التغابن/11.

○ قال تعالى: ﴿إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ النحل/22.

¹ - رواه أحمد بن حنبل في مسنده.

○ قال تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ النساء/155.

● القلب مركز العلم والمعرفة والجهل:

○ قال تعالى: ﴿وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ التوبة/93.

○ قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ العنكبوت/49.

● القلب مركز الثبات (رياضة الجأش) والتقلب:

○ قال تعالى: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ الكهف/14.

○ قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ الفرقان/32.

○ قال تعالى: ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ القصص/10.

○ قال تعالى: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ النور/37.

○ حديث شريف: ﴿يَا مَقْلَبَ الْقُلُوبِ ثَبَّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ، فَقَالَ لَهُ أَصْحَابُهُ وَأَهْلُهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ اتَّخَافُ عَلَيْنَا وَقَدْ أَمَّنَّا بِكَ وَبِمَا جِئْتَ ۖ، قَالَ: أَنْ الْقُلُوبَ بِيَدِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ يُقَلِّبُهَا﴾⁽¹⁾.

● القلب مركز الهداية والإزاغة:

○ قال تعالى: ﴿مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾ التوبة/117.

○ قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرَهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ الأنعام/110.

¹ - أخرجه أحمد بن أحمد في مسنده.

○ قال تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ آل عمران/8.

● القلب مركز الأمن والخوف والرغبة:

○ قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ سبأ/23.

○ قال تعالى: ﴿لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهَبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ الحشر/13.

● القلب مركز السكينة والقلق:

○ قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزِدُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾ الفتح/4.

● القلب مركز انشراح الصدر وضيق الصدر:

○ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ الحجر/97.

○ قال تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ الزمر/22.

● القلب مركز الصدق والكذب:

○ قال تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ الفتح/11.

○ قال تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ آل عمران/167.

● القلب مركز الشح والبخل والكرم:

- حديث شريف: ﴿خَصَلْتَانِ لَأَيَّجَتَمَعَانِ فِي مُؤْمِنِ الْبَحْلِ وَسُوءِ الْخَلْقِ﴾^(١).
- عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ: ﴿لَا يَجْتَمِعُ عُبَارٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَدُخَانٌ جَهَنَّمَ فِي جَوْفِ عَبْدٍ أَبَدًا، وَلَا يَجْتَمِعُ الشُّحُّ وَالْإِيمَانُ فِي قَلْبِ عَبْدٍ أَبَدًا﴾^(٢).
- القلب مركز التواضع والتكبر والأنفة والتعصب والتسامح:
 - قال تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الْحَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةَ﴾
الفتح/26.
 - ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٌ﴾ غافر/35.
 - قال تعالى: ﴿فَأَجْعَلِ أَفْتِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ إبراهيم/37.
 - القلب مركز اللين والقساوة والفضاظة والغلظة:
 - قال تعالى: ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ
وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمُ﴾ الحج/53.
 - قال تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾
البقرة/74.
 - قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظًا لَّالْقَلْبِ
لَآنْفَضُوا مِّنْ حَوْلِكَ﴾ آل عمران/159.

¹ - أخرجه الترمذي في سننه برقم/1962.

² - أخرجه الترمذي برقم/1633، والبخاري الأدب المفرد برقم/283.

○ قال تعالى: ﴿ثُمَّ تَلِينَ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَىٰ اللَّهُ﴾
الزمر/23.

● القلب مركز إرادة الخطأ والصواب (الحق والباطل):

○ قال تعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ
وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ الأحزاب/5.

○ قال تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ
قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ البقرة/225.

● القلب مركز السرائر والخفايا:

○ قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ غافر/19.

○ قال تعالى: ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ فاطر/38.

● القلب مركز الخشوع والوجل والرحمة والرأفة وعكسها القساوة:

○ قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ الحديد/27.

○ قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ الحديد/16.

○ قال تعالى: ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ الحديد/16.

● القلب مركز الطهارة والنقاوة والإصغاء والاستماع والاستجابة للحق
وعكسه مركز الطبع والختم:

○ قال تعالى: ﴿ذَلِكُمْ أَطْهَرَ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ الأحزاب/53.

○ ﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ التحريم/4.

- قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ المطففين/14.
- قال تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ البقرة/7.
- قال تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ﴾ فصلت/5.
- قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ غافر/35.
- وعنه ﷺ قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ﴾⁽¹⁾.

● القلب مركز التشفي والغيظ والغضب والحقد والكرهية والغل والاشمئزاز والعكس هو:

مركز الحب والتآلف والاستبشار والود والطهارة:

- قال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ الزمر/45.
- قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ الأحزاب/53.
- قال تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍ﴾ الأعراف/43.
- قال تعالى: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ الأنفال/63.

¹ - رواه مسلم في صحيحه برقم/2564.

○ قال تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً﴾ آل عمران/103.

○ قال تعالى: ﴿وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ التوبة/14.

○ قال تعالى: ﴿وَيُدْهَبَ غِيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ التوبة/15.

○ قال تعالى: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ الحشر/10.

○ قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ﴾ محمد/29.

○ قال تعالى: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْرِجُهُمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ 14 ﴿وَيُدْهَبَ غِيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ التوبة/14-15.

○ قال تعالى: ﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسِبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾ الحشر/14.

○ القلب مركز الأمانة والخيانة:

○ حديث شريف: ﴿أُنزِلَتِ الْأَمَانَةُ فِي جُدُورِ قُلُوبِ الرِّجَالِ﴾.

○ حديث شريف: ﴿يَنَامُ الرَّجُلُ النَّوْمَةَ فَتَقْبِضُ الْأَمَانَةُ مِنْ قَلْبِهِ﴾⁽¹⁾.

القلب مركز النفاق والإثم واللغو ومركز النقاء وسلامة السريرة:

○ قال تعالى: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ التوبة/77.

¹ - رواه الحاكم في مستدرکه .

○ قال تعالى: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثَمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ البقرة/283.

○ قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ 88 ﴿إِنَّمَا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ الشعراء/88-89.

○ قال تعالى: ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسْرَأَ النَّجْوَى﴾ الأنبياء/3.

إذا القلب أمير البدن إن صلح صلحت كل الرعية «الجوارح» وإن فسد فسدت الرعية.

فتعالوا نقرأ هذا الحديث الشريف كيف أكد رسول الله وجود لمتان في القلب لمة الخير من الله تعالى و لمة الإيعاذ الشر من وسوسة الشيطان.

قال رسول الله ﷺ: ﴿فِي الْقَلْبِ لِمَتَانِ لِمَةٌ مِنَ الْمَلِكِ إِيْعَازٌ بِالْخَيْرِ وَتَصْدِيقٌ بِالْحَقِّ فَمَنْ وَجَدَ ذَلِكَ فَلْيَعْلَمْ أَنَّهُ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَلِيَحْمَدِ اللَّهَ وَلِمَّةَ الْعَدُوِّ وَإِيْعَازٌ بِالشَّرِّ وَتَكْذِيبٌ بِالْحَقِّ وَالنَّهْيِ عَنِ الْخَيْرِ فَمَنْ وَجَدَ ذَلِكَ فَلْيَسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾⁽¹⁾.

وسوف يتطرق المؤلف للكشف العلمي الذي يؤكد وجود مورثات سلوكية في قلب الإنسان، في الفرع الأول من البحث الثالث عشر بعنوان «معجزة الكلمة القرآنية عند الاستماع والانصات لها»، ص 343.

¹ - أخرجه الترمذي في سننه.

أسئلة مطروحة:

- ✓ ما معنى أمانة التكليف الشرعي وما علاقته بالعقل؟.
- ✓ ما هي خواص النشاط العقلي.
- ✓ ما معنى الإدراك العقلي؟.
- ✓ ما معنى الفهم العقلي؟.
- ✓ ما معنى أن العلم والمعرفة أداة العقل؟.
- ✓ ما معنى الوعي العقلي؟.

العقل وأمانة التكليف الشرعي

أعظم أمانة وتكريم من الله عزّ وجلّ منح الإنسان من بين كل المخلوقات بعد أن سخر له الأرض بما فيها منحه العقل المدرك، وهو أداة المعرفة ومناطق التكليف، فيلزم المكلف بمعرفة ربه معرفة يقينية مؤيدة بالأدلة النقلية والمترافقة مع الأدلة العقلية، عندها يسير هذا الإنسان طريق الهداية لأنها توصله لربه سامماً غانماً وجنة عرضها السموات والأرض.

فعن عليّ رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ﴿رُفِعَ الْقَلَمُ عَنْ ثَلَاثَةٍ: عَنِ النَّائِمِ حَتَّى يَسْتَيْقِظَ، وَعَنِ الصَّغِيرِ حَتَّى يَكْبُرَ، وَعَنِ الْمَجْنُونِ حَتَّى يَعْقِلَ أَوْ يُفِيقَ﴾، رواه الترمذي في سننه.

والتكليف اسم لما يفعل بمشقة أو تصنع، والتكلف المحمود هو ما يتحراه الإنسان ليتوصل به إلى أن يصير الفعل الذي يتعاطاه سهلاً ويصير كلفاً به ومحبباً له، وبهذا النظر يستعمل التكليف في تكلف العبادات⁽¹⁾.

وكل التكاليف التي أقرها الشرع سهلة التطبيق ويدركها كل صاحب تكليف، فما لا قدرة لمكلف عليه لا يصح التكليف به شرعاً.

¹ - المفردات في غريب القرآن للأصفهاني، ص 441.

○ قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ البقرة/286.

فلو كانت شاقة ومعقدة ما دخلها إلا أصحاب الفهم والدراية ((فإن السالك في أول الأمر يجد تعب التكاليف ومشقة العمل لعدم أنس قلبه بمعبوده فإذا حصل للقلب روح الأنس، زالت عنه تلك التكاليف والمشاق فصارت قرّة عين له، وقوة ولذة، فتصير الصلاة قرّة عينه، بعد أن كانت عالة عليه، ويستريح بها، بعد أن كان يطلب الراحة منها، فله ميراث من قوله ﷺ:

○ ﴿أَرْحَنًا بِالصَّلَاةِ يَا بَلَاءُ﴾.

○ ﴿وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ﴾.

بحسب إرادته ومحبته وأنسه بالله سبحانه⁽¹⁾.

إن الشريعة إنما جاءت لتخرج المكلفين عن دواعي أهوائهم، حتى يكونوا عباداً لله وهذا المعنى إذا ثبت لا يجتمع مع فرض أن يكون وضع الشريعة على وفق أهواء النفوس وطلب منافعها العاجلة لكانت كما قال تعالى:

○ ﴿وَلَوْ أَتَبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾

المؤمنون/71⁽²⁾.

العاقل يحمي نفسه من عذاب الله ويزكيها بطاعته، والجاهل يبيعهها لهواها لتتقع في عذاب الله، يقول ﷺ: ﴿كُلُّ النَّاسِ يَعْدُوا فَبَائِعٌ لِنَفْسِهِ فَمَعَتَقَهَا أَوْ مَوْبِقُهَا﴾⁽³⁾ والخسارة العظيمة أن يخسر العبد نفسه يوم القيامة.

¹ - ابن قيم الجوزية: تهذيب مدارج السالكين، ص369.

² - الموافقات في أصول الأحكام للشاطبي، الكتاب الأول، جزء الثاني، ص23.

³ - صحيح مسلم، رقم/2682.

إن بعض النفوس المريضة والحاملة للعقول الواهية سولت نفوسها الأمانة بالسوء تحريف بعض التكاليف الشرعية وخاصة العملية إلى منحى آخر باتجاه المفساد في أصول العقيدة مما يؤدي إلى انحراف بالأعمال وفسادها .

أدى لظهور جماعات منحرفة متطرفة تنادي بالغلو الديني قال ﷺ: ﴿هَلَكَ الْمُتَتَبِعُونَ فَمَأَلُوا﴾، وحذر رسولنا الكريم ﷺ من هذا الأمر حيث قال لابن عمر: ((دينك دينك، إنه لحمك ودمك، خذ عن الذين استقاموا، ولا تأخذ عن الذين مالوا))⁽¹⁾.

والماضي من العمر لن يعود والمتبقي لا يعلم مدته إلا الله .

قال الحسن البصري: ((ما من يوم ينشق فجره إلا ينادي: يا بن آدم أنا خلق جديد، وعلى عملك شهيد، فتزود مني فأني لا أعود إلى يوم القيامة)).

وللوقت أهمية عظيمة في حياة المسلم وأقسم الله به لأهميته قال تعالى:

○ ﴿وَالْعَصْرِ ۝1 ۝ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝2﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا

الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ العصر/1-3.

○ قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيَهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ البقرة/148.

فالعاقل أشد الناس لنفسه أخذاً، لأنه عرف شرف الوجود وعقل أمانة التكليف، فحدد طريقه بالبوصلة الإيمانية وسعى لتحصيل أفضل الخيرات لنفسه وللاخرين وجاهد في تحصيل ثمرة الحياة بالعلم والعمل وتطبيق شرع الله ليكون من سعداء الدنيا والآخرة، والمكلف العاقل مأمور بحفظ الضروريات الخمس وهي مقاصد الشريعة:

¹ - علاء الدين علي المتقى بن حسام الدين الهندي والمشهور بـ المتقي الهندي: كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، عن ابن عمر.

بحفظ دينه اعتقاداً وعملاً، وحفظ ماله لاستمرار حياته.

بحفظ عقله لفهم وإدراك المنهج الرباني الذي وصل إليه عن طريق الرسل، ومن لا عقل له لا تكليف له، ونعمة الإسلام لا تتحقق إلا بنعمة العقل.

بحفظ نسله لإعمار الأرض، ويحفظ نفسه للاستفادة في إعمار الأرض.

وعنه عليه السلام قال: ﴿اعْتَمَّ خَمْساً قَبْلَ خَمْسٍ: حَيَاتِكَ قَبْلَ مَوْتِكَ، وَصِحَّتِكَ قَبْلَ سَقَمِكَ، وَفِرَاغَكَ قَبْلَ شُغْلِكَ، وَشِبَابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ، وَغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ﴾^(١).
العاقل يستغل صحته في القيام بالتكاليف الشرعية، فرأس ماله الواجبات والفرائض، والربح في النوافل والطاعات فمن يريد زيادة ماله فعليه بالامتثال لأوامر الله في الواجبات والفرائض ومن يريد زيادة الربح فعليه بالنوافل والقربات، حتى يصبح من «المقربين» وهم الفائزين بأعلى الدرجات التي خص بها الله عباده الصالحين.

ويقول الله عز وجل في الحديث القدسي: ﴿وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِأَحَبِّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتَهُ عَلَيَّ وَمَا زَالَ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أَحِبَّهُ﴾^(٢).

يقول ابن عطاء الله: ((من عاملته بالدنيا وعاملك بالمنن، كيف لا تحبه؟! من عاملك بالكرم وعاملته باللؤم كيف لا تحبه؟! إياك أن تخرج من هذه الدار وما ذقت حلاوة حبه))^(٣).

1- رواه الحاكم في مستدركه.

2- البخاري: كتاب الأحاديث الصحيحة، حديث قدسي، ص 80.

3- أبي الفضل أحمد بن محمد المعروف بـ ابن عطاء الله السكندري: تاج العروس الحاوي لتهذيب النفوس، ص 299.

هذا هو العاقل الذي أوعى وأدرك معنى أمانة التكليف الشرعي ((الشرعية جارية في التكليف بمقتضاها على الطريق الوسط الأعدل، الأخذ من الطرفين بقسط لا ميل فيه، الداخلة تحت كسب العبد من غير مشقة عليه ولا انحلال، بل هو تكيف جار على موازنة تقتضي في جميع المكلفين غاية الاعتدال كتكاليف الصلاة، والصيام، والحج، والجهاد، والزكاة، وغير ذلك مما شرع ابتداء على غير سبب ظاهر اقتضى ذلك أو لسبب يرجع إلى عدم العلم بطريق العمل، كقوله تعالى:

○ ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ﴾ البقرة/219.

○ ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ البقرة/219⁽¹⁾.

هذه الشريعة السمحة في حالة من الاعتدال والتوازن الرائع، تشعر المكلف بالتقرب منها حباً وعشقاً، لكن الخطورة كل الخطورة من يأخذ من الشريعة ما يهوى، بل ويحاول أن يحرفها عن مسارها الطبيعي.

فيخرج من عبادة الله إلى عبادة هواه، ومقصود الشريعة إخراج المكلف عن داعية هواه وانطوائه تحت عبادة الله الواحد وفق حكم الله وتنفيذ أوامره ونواهيه:

○ ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ص/26.

والوحي يرفض الهوى مطلقاً لأنهما متعاكسان كلياً.

○ قال تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى﴾ ﴿3﴾ ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ النجم/3-4.

فالمكلف عليه تطبيق ما جاء من الوحي بكامل التسليم والإذعان والوجل:

¹ - الموافقات في أصول الأحكام للشاطبي، ج2، ص90.

○ قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ ﴿40﴾ فَإِنَّ

الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ النازعات/40-41.

شريعة سمحة ورب غفور رحيم....

وياب رفع الحرج عن المكلف واسع، وعنه قال ﷺ: ﴿عَلَيْكُمْ مِنَ الْأَعْمَالِ مَا تُطِيقُونَ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَمَلُ حَتَّى تَمَلُّوا﴾.

إضافة لمشروعية الرخص كرخص القصر في الصلاة والجمع عند السفر:

○ ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ النساء/29، إنه دين يسر.

○ قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ النساء/29.

○ قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ النساء/107.

خواص النشاط العقلي

بعد أن تكلمنا عن العقل وأمانة التكليف الشرعي سنتحدث عن خواص النشاط العقلي وهي:

- خاصية الإدراك العقلي.
- خاصية الفهم العقلي.
- خاصية الوعي العقلي.
- خاصية التمييز العقلي.
- خاصية التفكير العقلي.
- الصفات الضابطة للنشاط العقلي.
- خاصية الإرادة العقلية.

الفرع الأول

الإدراك العقلي

معنى أدركته إذا طلبته فلحقته، وأدرك الغلام بلغ الحلم، وأدركت الثمار نضجت، وأدرك الشيء بلغ وقته،... ويقال: ((أدركت جماعة من العلماء إذا لحقتهم ومدارك الشرع مواضع الطلب الأحكام، من حيث يستدل بالنصوص، والاجتهاد))⁽¹⁾.

أدرك شيء، أي وصل إليه بعد أن كان دونه، والإدراك حركة في الرؤيا والسمع والنضج.

والعقل الإدراكي هو الذي يناط به التكليف وبه تدرك الأشياء وتفهم، وعنه يتحدث الفقهاء في العبادات والمعاملات، لهذا يبدأ التكليف عندما يدرك الغلام ويبلغ الحلم.

ويدرك العلم والمعرفة، وهو الذي أراده الحارث بن أسد المحاسبي حيث قال في حد العقل: ((إنه غريزة يتهيأ بها إدراك العلوم النظرية وكأنه نور يقذف في القلب به يستعد لإدراك الأشياء))، وبوابات المعرفة الإدراكية الخمسة هي التي تستقبل المعلومات عما يجري من حولها فيعيها ويدركها العقل ويتدبرها، لكن هل العقل يدرك كل شيء؟، يقول الشيخ الشعراوي: ((إن العقل ليس إلا وسيلة إدراك، مثله

¹ - المرقئ: معجم المصباح المنير، ص 123.

مثل العين، ومثل الأذن، فهل ترى عينك كل ما يمكن أن يرى؟ طبعاً لا، لأن للرؤية بالعين قوانين وحدوداً، فإن كنت بعيداً بمسافة كبيرة عن الشيء فلن تراه، ذلك أن العين لا ترى أبعد من حدود الأفق)).

وكل إنسان يختلف أفقه حسب قوة بصره، فهناك من أنعم الله عليه ببصر قوى وحاد، وهناك من هو ضعيف البصر، ويحتاج إلى نظارة طبية تساعد على دقة الإبصار.

فاذا كانت للعين «وهي وسيلة إدراك المرئي» حدود، وإذا كانت للأذن، وهي وسيلة، إدراك الأصوات بحد المسافة الموجية للصوت، فلا بد أن تكون هناك حدود للعقل، فمنه ما يمكن أن تفهمه، وهناك ما لا يمكن أن تفهمه والرسول ﷺ قال عن آيات القرآن: ﴿مَا عَرَفْتُمْ مِنْهُ فَأَعْمَلُوا بِهِ، وَمَا تَشَابَهَ مِنْهُ فَأَمِنُوا بِهِ﴾.

فلا يجوز التمادي والانفصال عن الوحي فيتخبط صاحبه كما إذا مسته الشياطين، وغرور العقل يشرد بصاحبه إلى التيه، وهذا ما حلّ بالفلاسفة والملاحدة الذين اعتقدوا اعتقادات واهية وقبلتها أنفسهم.

فالإنسان بحواسه التي يملكها لا يمكن مطلقاً إدراك أي شيء عن الغيبيات فما بالكم بصاحب الغيب وهذا ما أكدته القرآن الكريم:

○ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ الشورى/11.

ومهما اتسعت الملكات العقلية فسيظل محدوداً في قدراته وطاقته، ولن يستطيع أن يدرك كل الحقائق مهما أوتي من قدرة وطاقه على الاستيعاب والإدراك... وإذا ما حاول الخوض فيما لا طاقة له، فسيعرض صاحبه للالتباس والتخبط...

يقول الإمام الشاطبي في كتابه الاعتصام: ((إن الله جعل للعقول في إدراكها حداً تنتهي إليه لا تتعداه، ولم يجعل لها سبيلاً إلى الإدراك في كل مطلوب، ولو

كانت كذلك لاستوت مع الباربي تعالى في إدراك جميع ما كان وما يكون وما لا يكون)).

فالغيبيات التي لا تقع تحت مدارك العقل لا مجال له أن يخوض فيها، كما دلت عليه النصوص الشرعية كمعرفة حقيقة صفات الله تعالى، وتفصيل أمور الملائكة والجن والروح والقيامة والجنة والنار ونحو ذلك فالعقل البشري لا يهتدي إلى تفاصيل تلك الغيبيات إلا بالرسالة والوحي، وكذلك التعرف إلى تفاصيل التعبدات واستبانة وجه الحكمة فيها، وعلى هذا نفهم عبارة الإمام علي كرم الله وجهه: ((لو كان دين الله بالرأي لكان باطن الخف أحق بالمسح من أعلاه، ولقد رأيت رسول الله ﷺ يمسح هكذا بأصابعه يعني أعلى الخف))⁽¹⁾.

إذاً العقل له حدود معينة للإدراك يتعطل بعدها الإدراك والفهم والعلم وحادثة موسى عليه السلام مع الخضر في سورة الكهف خير مثال على محدودية الإدراك العقلي للإنسان.

والعقل لا يدرك من الله إلا ما يلهمه إياه قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ البقرة/255.

فنسأل الله عز وجل أن يلهمنا العلم لكي نتمكن من زيادة القوة الإدراكية العقلية. في الختام نسأل؟.

لماذا ندرك الحقيقة... عندما يدب فينا الهم؟ لماذا هذا التأخر في إدراك حقيقة الاستخلاف، وحقيقة يوم الحساب ﴿بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ﴾ النمل/66.

¹ - عبد الله بن صالح العجيري: ينبوع الغواية الفكرية غلبة المزاج الليبرالي وأثره في تشكيل الفكر والتصورات، ص 501 - 504 بالتصرف.

لماذا أضعنا وقتنا بأحداث تافهة... وهمية... نقاشات عقيمة... جلسات
استعراضية... حتى بلغت الغفلة منا أبعد مداها؟ فلنجعل وعينا وإدراكنا لفهم ما
يدور من حولنا باكراً في شبابنا لا في هرمنا فلنستيقظ من غفلتنا... ولنغير ما
بأنفسنا لإنارة عقولنا قبل فوات الأوان ولنستعد ليوم الرحيل.

الفرع الثاني

الفهم والاستيعاب العقلي

الفهم هيئة للإنسان بها يتحقق معاني ما يحس، يقال فهمت كذا:

○ قال تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾ الأنبياء/79.

إما بأن جعل الله له من فضل قوة الفهم ما أدرك به ذلك، وإما بأن ألقى ذلك في روعة أو بأن أوحى إليه وخصه به⁽¹⁾.

والعرب إنما سمت الفهم عقلاً لأن ما فهمته قد قيدته وأوعته، بالفعل وضبطته، أي أن الفهم عملية عقلية معرفية أساسها حسن تصوير المعنى.

○ وقول الله عز وجل لموسى عليه السلام: ﴿فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾ طه/13.

قال فخر الرازي: ((فيه نهاية الهيبة والجلالة، فكأنه قال: لقد جاءك أمر عظيم هائل فتأهب له، واجعل كل عقلك وخاطرك مصروفاً إليه))⁽²⁾.

وقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه وقد سئل: ((هل خصكم رسول الله ﷺ بشيء دون الناس؟)) فقال: لا، والذي خلق الجنة وبرأ النسمة، إلا

¹ - المفردات في غريب القرآن للأصفهاني، ص388.

² - تفسير صفوة التفاسير للصابوني، ص703.

فهماً يؤتیه اللّٰه عبداً فی کتابه وما فی هذه الصحيفة، وكان فیها العقل، وهو الدیات، وفكاک الأسیر وأن لا یقتل مسلم بكافر)).

فالفهم نعمة من اللّٰه على عبده، ونور یقذفه اللّٰه فی قلبه، یعرف به، ویدرك ما لا یدرك غیره ولا یعرفه، فیفهم من النص ما لا يفهمه غیره، مع استوائهما فی حفظه وفهم أصل معناه⁽¹⁾.

الفهم هو حسن تصور المعنى، واستعداد الذهن للاستبطاط، یقال: ((فهمت عن فلان وفهمت منه))، لكن لا یقال أدركت عن فلان.

ویتضح من تعریفات الفهم أنه العملية الأكثر عمومية والتي تتطوي على الإدراك وليس العكس، أي أن الفهم هو العملية النهائية التي تبدأ بالإدراك وتنتهي بالفهم أو الاستيعاب، هذا مما یعني أن الإدراك والفهم مختلفان لكنهما غیر منفصلين وعليه فإن أكثر الباحثين یرون أن عملية الفهم تتكون من ثلاثة جوانب هي:

1- إدراك الكلام (أي تميز أصوات الكلام).

2- فهم التراكيب (أي فهم قواعد النحو أو بناء اللغة).

3- فهم الدلالة الذي یعني بفهم المعنى فی اللغة- الاستيعاب⁽²⁾.

لتوضیح أكثر، ما معنی أن نقبل دعوة لحضور محاضرة عن شيء ما، أي أن المحاضر سیتحدث لكي یعبر عن معنی أفكاره فی المحاضرة والمستمعون بإنصاتهم وإدراكهم لكلامه وفهمهم لبناء اللغة ودلالاتها یستطیعون أن یكتشفوا معنی ما

¹ - ابن قیم الجوزية: التفسیر القيم، ص44.

² - د. جمعة سيد يوسف: سيكولوجية اللغة والمرض العقلي، سلسلة عالم المعرفة، عدد رقم/145، ص80 - 84 بالتصرف.

يقوله المحاضر، وكل من الحضور فهم الأفكار واستوعبها وأدركها بطريقته حسب فهمه للمعنى وحسب استقباله الصور الذهنية في عقله فتتلور الفكرة على أساسها، بل مزيداً، فكل ما يسمع من الآخر يعطينا نظرة على مستوى دينه وعلمه وأخلاقه، فاللسان مرآة صاحبه.

تعالوا معاً ندرس مثال آخر: كيف يفهم القرآن الكريم؟.

لا يمكن أن يفهم القرآن إلا بأن يكون وعاء العلم وهو القلب في حالة حضور عقلي مدركاً وواعياً لاستقباله وشرطه الأساسي فهم لغة القرآن «اللغة العربية» وخاصة الفهم العقلي لها دور هام في استيعاب المنهج الرياني التي أوكلت مهمة إنجازها وفهمه لأهل العقول السليمة لكي يصلون إلى السعادة في الدارين ولا يتم إلا بالتفقه والدراسة والاجتهاد والاستنتاج والتمحيص لفهم الأحكام والأوامر لكي تكون جاهزة ومحفوظة بشكل صور ذهنية لتترجم إلى أقوال وأفعال لكي يستطيع المؤمن العاقل تطبيقها وتنزيلها دون تجريب أو تبديل على أرض الواقع، فهو بحاجة إلى لغة غنية بمعاني الكلمات لبناء صور ذهنية تساعد على تشكيل خيال خصب لبناء الأفكار لتشكل لاحقاً مفاهيم راسخة في قلب المؤمن وهذا لا يمكن إلا مع لغة القرآن، اللغة العربية.

فمن يحفظ القرآن يكون لديه ملكة التصور الذهني وخصوبة التخيل على كثير من أقرانه لكثرة حفظه وفهمه لمسمى ومعاني الكلمات القرآنية، وهذا خزان ضخم يحفظ ويحفر في الذاكرة العقلية طويلة الأمد، لهذا اعتاد السلف على تحفيظ أطفالهم القرآن الكريم منذ الصغر، وعليه فالقرآن الكريم تكفل بحفظ اللغة العربية من الضياع، وتكفل لحافظة نتيجة اكتسابه الألوفاً من معاني أو المسميات بزيادة الفهم والاستيعاب وخصوبة الخيال لكثرة الصور الذهنية عند حفاظه وبذلك تعلق مفاهيمهم وأفكارهم عن أقرانهم الذين يتكلمون العامية التي تقل

الكلمات المتداولة عن ألف كلمة فتشع عندهم معاني ومسميات الكلمات مما
تضمحل لديهم تشكل الخيال والصور الذهنية لبناء الأفكار.

عرّف "ابن جنى"، اللغة بأنها: ((أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم أي
المعاني والدلالات التي يراد بها نقلها من المتكلم إلى المستمع باستخدام الأصوات
المنطوقة أو المكتوبة))، ومعنى هذا أن اللغة هي الوسيلة التي تقرب بين البشر
بواسطة النطق والسمع^(١).

إذاً البداية من البوابات المعرفة الإدراكية السمع والبصر في حالة ترقب لاستقبال
هذا العلم وفهمه:

○ وعنه ﷺ قال: ﴿لَيْسَ الْمُخْبِرُ كَالْمُعَايِنِ﴾^(٢).

○ وقيل: ((العين مرآة القلب)).

إن كلاً منهما له خاصية فضل بها الآخر، فالمدرك بالسمع أعم وأشمل والمدرك
بالبصر أتم وأكمل، فالسمع له العموم والشمول والبصر له الظهور والتمام وكمال
الإدراك^(٣).

○ قال تعالى: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾
الإسراء/36.

قال ابن عباس: ((يسأل الله العباد فيما استعملوا هذه الثلاثة: السمع والبصر
والفؤاد والله تعالى أعطى العبد السمع ليسمع به أوامره ونواهيته وعهوده،

¹ - د. جمعة سيد يوسف: سيكولوجية اللغة والمرض العقلي، ص 67.

² - رواه أبو حاتم محمد بن أحمد بن حبان: صحيح ابن حبان، وأحمد في مسنده.

³ - ابن قيم الجوزية: مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، ص 129.

والقلب ليعقلها ويفقهها، والبصر ليرى آياته فيستدل بها على وحدانيته وربوبيته، وعليه لفهم القرآن الكريم بحاجة لإنصات واستماع وتسجيل ما يقال))، وفي الأثر: ((دونوا العلم بالكتابة))، وبالتركيز العقلي ليعيد الشرود، والتذكر مع الحفظ عندها يستتار القلب بفهم هذه العلوم، فالوظيفة الأسمى للعقل هي فهم الدين، وليس تشريع الدين:

○ قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ ق/37.

○ ((قال مجاهد وغيره "لمن كان له قلب" أي عقل يتدبر به، فكفى بالقلب عن العقل لأنه موضعه))⁽¹⁾.

○ قال ابن عطية: ((القلب هنا عبارة عن العقل إذا هو محله))⁽²⁾، (وهو شهيد) أي حاضر بفطنته لأن من لا يحضر ذهنه فكأنه غائب)⁽³⁾.

هذا هو الفهم العقلي وشرفه من شرف علومه ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَاءٍ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ يوسف/76.

هو نعمة من الله تعالى ونور يعطي لحامله رؤى بعيدة المدى لأن يفهم الواقع والمستقبل وبعين البصيرة ويدرك ويستوعب ما لا يستوعبه الآخر.

وهذا ما حدث عندما سأل عمر بن الخطاب ابن عباس رضي الله عنهم عن سورة الفتح فقال له: "أنها نعي الله سبحانه لنبيه إلى نفسه وقرب أجله".

وكذا كتاب عمر لأبي موسى الأشعري رضي الله عنه: ((الفهم الفهم فيما أدلي إليك)).

1- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، الجزء التاسع، ص17.

2- ابن قيم الجوزية: مفتاح دار السعادة، ص203.

3- الكشاف للزمخشري، ج4، ص338.

وفي الختام يتبين لنا مما تقدم أن اللغة هي مفتاح لفهم العلوم والمعرفة وأساسها الكلمة وهي اللبنة الأساسية لبناء اللغة لاستيعاب الفهم.

تعالوا معنا نتابع....

الكلمة مرآة فهمك:

الفهم هو فهم المعنى من الكلمة، ومجموعة الكلمات تعطي معلومة والمعلومة يستفاد منها لبناء الصور الذهنية لعملية الفهم، فالكلمة هي الوسيلة الأولى لعملية التواصل، وامتلاك زمام المبادرة، بالكلمة تحدد شخصيتك... تحدد فهمك للموضوع.

بالكلمة تحدد دينك... تحدد مسار حياتك، لذا العاقل ضابط لما يتفوه من كلام، لأن اللسان مغرفة القلب يخرج ما في القلب من طيب الإيمان ونوره، أو يخرج من القلب الضغائن والأحقاد.

والكلام هو وسيلة الإبانة عما في النفس- في القلب- ، يقول سقراط: تكلم حتى أراك، لأن من يتكلم تكون بطاقة تعريفه من كلامه.

بالكلمة تحدد طموحك وأهدافك... بها تتكون الأفكار والمعتقدات وتترسخ في عقل صاحبها لتدفعه دفعاً لحمايتها.

والكلمة القرآنية لها سلطانها وطاقاتها الإيجابية، وجعل الله سبحانه وتعالى تلاوة القرآن عبادة عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

○ ﴿مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ وَالْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا لَا أَقُولُ أَلَمٌ حَرْفٌ بَلْ أَلِفٌ حَرْفٌ وَوَلَامٌ حَرْفٌ وَمِيمٌ حَرْفٌ﴾⁽¹⁾.

¹ - رواه الترمذي وصححه الألباني.

○ عن يعلى بن شداد قال: ﴿حَدَّثَنِي أَبِي شَدَادٌ وَعَبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: هَلْ فِيكُمْ غَرِيبٌ، يَعْنِي: أَهْلَ الْكِتَابِ؟، قُلْنَا: لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ: فَأَمَرَ نَغْلِقَ الْبَابَ، وَقَالَ: ارْضَعُوا أَيْدِيَكُمْ، وَهُؤُلُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ" فَرَفَعْنَا أَيْدِينَا سَاعَةً، ثُمَّ وَضَعَ ﷺ يَدَهُ ثُمَّ قَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ، اللَّهُمَّ إِنَّكَ بَعَثْتَنِي بِهَذِهِ الْكَلِمَةِ، وَأَمَرْتَنِي بِهَا، وَوَعَدْتَنِي عَلَيْهَا الْجَنَّةَ وَإِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ، ثُمَّ قَالَ: "أَبْشُرُوا: فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ غَفَرَ لَكُمْ" (١).

وقوة الكلمة وسلطانها تأتي من قائلها :

○ قال تعالى: ﴿يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ الأعراف/144.

○ وقال تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَنْوَاجِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ الأعراف/145.

الكلام هو وسيلة الإبانة عما في النفس من معارف ونصائح ورغبات شتى وتفهم ذلك للآخرين، ولا شك أن الله سبحانه متصف بصفة الكلام، فقد ورد أنه سبحانه كلم موسى، ونطق القرآن بأنه (القرآن) كلام الله، فمصدر الكلام المسموع عنه تعالى لا بد أن يكون شأنًا من شؤونه، وصفة من صفاته جل وعلا، ولا شك أن الله سبحانه عليم بكل شيء بما كان، وما هو كائن الآن، وما سيكون في المستقبل إلى ما شاء الله وما يدل على هذا العلم من كلمات لا نهاية لها كذلك، ألا ترى أن أحدنا في مباشرة أعماله المحدودة يحتاج إلى قاموس من الألفاظ، فما ظنك برب العالمين، الخالق لهذه الكائنات، الحاكم لها، والمدبر لأموها والمنظم لشؤونها، ألا يكون كلامه عز وجل من السعة والاستبحار على النحو الذي يقول الله تعالى فيه:

○ ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لَكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ الكهف/109.

¹ - رواه أحمد والطبراني وأبو بكر أحمد بن عمرو البزاز.

وإن اتصاف الله سبحانه بالكلام والتكليم هي إحدى صفاته الملازمة لكمالته وجلاله ومتى ما شاء تكلم بها إلى من يشاء⁽¹⁾:

وتأثير الكلمة على النفس البشرية تفعل الأعاجيب، فالذين يملكون ملكات قيادية يكون تأثيرهم قوي على الآخرين، لذا جميع جيوش العالم لديها إدارة تسمى إدارة التوجيه المعنوي مهمتها الأساسية رفع معنويات الجنود المنهارة خاصة في زمن الحروب.

ماذا تعني كلمة رفع معنويات؟ أي رفع مستوى الطاقة الكامنة في داخلهم وتحويلها من طاقة سلبية منخفضة إلى إيجابية مرتفعة، ولا يتم ذلك إلا بشحنهم بأفكار وصور ذهنية إيجابية رافعة لمعنوياتهم، وما الصور الذهنية إلا كلمات.

مثال عن الطاقة السلبية للكلمة:

الصور الذهنية المترسخة في العقل ما هي إلا مجموع كلمات فمنهم من يحمل ظنوناً وأوهاماً ومعتقدات باطلة هي بالحقيقة عبارة عن كلمات سلبية ومعلومات خاطئة وصلت إليهم بصور ذهنية باطلة تتحول رويداً رويداً إلى مفاهيم خاطئة يتشربها العقل الواهي فتترسخ في قلوبهم، ومنهم من يمكر بالمعلومة فيغيرها ويكذب بها لما رآب أخرى، لماذا الله عز وجل عاب بعض أحبار اليهود ووصفهم بأنهم لا يعقلون فلو دققنا النظر في الآية الكريمة:

○ قال تعالى: ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يَحْرَفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ البقرة/75.

¹ - الشيخ عبد المجيد الزنداني: توحيد الخالق، ص35، ج3.

أي والحال قد كان طائفة من أحبارهم وعلمائهم، يتلون كتاب الله ويسمعونه بيناً جلياً، ويغيرون آيات التوراة بالتبديل أو التأويل، من بعد ما فهموه وضبطوه، لا عن خطأ أو نسيان⁽¹⁾.

والكلمة الطيبة تلقى صداها في نفوس الآخرين وتعمل عملها قال رسول الله ﷺ: ﴿الْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ﴾، هذه كلمة فما بالكم عندما نطبق سنة رسول الله في زيارة المريض وما يحدث للمريض وكم صورة ذهنية تصله.

في البداية: دخولنا إلى غرفة المريض يشعر بالارتياح لأنه استقبل صورة ذهنية بصرية بمجيء أحبابه، وصورة ذهنية سمعية بسماع أصواتهم وصورة ذهنية لمسية بمصافحتهم إياه.

هذه الصورة الذهنية تستقبل من العين والأذن واللمس وهي البوابات المعرفة الإدراكية، وتحلل معطياتها في قشرة المخ وتتوزع على مراكز الدماغ والاحتفاظ بها لكنها تفعل فعلها في القلب (المريض) الذي يحمل مشاعر الامتنان والسرور لزيارة الأحباب.

ولقد أثبت حديثاً أنه يوجد توافق في لغة تركيب المورثات ولغة تركيب الحروف «الرموز» وما الكلمات إلاذبذبات صوتية تعطي طاقة وتؤثر وتعيد تفعيل الشيفرة الوراثية «DNA» بشكل إيجابي مما يؤثر على طرح مواد كيميائية وعلى رأسها الدوبامين.

فتدخل السرور والبهجة بل والطمأنينة إلى قلبه لهذا كان ديننا سباق للاهتمام بالمسكين والمريض لرفع طاقتهم الإيجابية بنشوء صور ذهنية عندهم تشعرهم

¹ - صفوة التفاسير للصابوني، ص 60.

بقربهم من الآخر وحب الآخر لهم وتزداد سعادتهم بكلمة طيبة من الآخر، وهذه السعادة في معاملة الخلق أن تعاملهم لله فترجو الله فيهم.

فالكلمة لها دور هام في رفع الطاقة الإيجابية وأرقى هذه الكلمات وأعظمها سحراً كلمات القرآن الكريم.

فتعالوا معاً نعرف أهم آله للعقل... العلم والمعرفة.

الفرع الثالث

أداة العقل

«العلم والمعرفة»

العلم إدراك الشيء بحقيقته، وأشرف ما رغب فيه الراغب، وأفضل ما طلب وَجَدَ فيه الطالب، وأنفع ما كسبه واقتناه الكاسب، لأن شرفه يثمر على صاحبه، وفضله ينمي عند طالبه، فبقدر عقل المرء تكون عبادته، فالإسلام دين العقل باعتماده على العلم والحجة والبرهان. يقدم التساؤلات لتصل إلى الفهم، ثم بعدها يدعوك لتؤمن.

○ قال تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الزمر/9.

فمنع سبحانه المساواة بين العالم والجاهل بما قد خُص به العالم من فضيلة العلم: فالمرء عدو ما يجهل، والمرء العاقل جامع لأمره ورأيه، والإسلام لا يخشى العلم ولا يتناقض معه.

○ قال تعالى: ﴿وَمَا يَعْزُبُهَا إِلَّا الْعَالَمُونَ﴾ العنكبوت/43.

فنفي أن يكون غير العالم يعقل عنه أمراً، أو يفهم فيه زجراً، ويتعلق بالدين علوم قد بين الشافعي رحمه الله فضيلة كل واحد منها، فقال: من تعلم القرآن عظمت قيمته، ومن تعلم الفقه نبيل مقداره، ومن كتب الحديث قويت حجته، ومن تعلم الحساب جزل رأيه، ومن تعلم العربية رق طبعه، ومن لم يصن نفسه لم ينفعه علمه.

وقال يحيى بن خالد لابنه: ((عليك بكل نوع من العلم فخذ منه، فإن المرء عدو ما جهل وأنا أكره أن تكون عدو شيء من العلم)).

فينبغي لمن استدل بفضائله على استحسان الفضيلة، واستقباح الرذيلة أن ينفي عن نفسه رذائل الجهل بفضائل العلم، وقد قيل: ((كل عز لا يوطده علم مذلة، وكل علم لا يؤيده عقل مضلة)).

لهذا قيل أن العلم والعقل سعادة وإقبال، وإن قلَّ معهما المال، وضاعت معهما الحال، وقيل في منشور الحكم: كم من ذليل أعزه علمه، وكم من عزيز أذله جهله⁽¹⁾، والعقل يحرس العلم والمعرفة والمعتقدات من الانفلات، فيقدر عقل المرء تكون عبادته، وبدائها البوابات الإدراكية للعقل الواعي للإنسان منذ اللحظة الأولى لوجوده على الأرض.

○ قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ النحل/78.

وأعظم وأفضل العلوم علوم القرآن:

○ ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ محمد/19، فبدأ بالعلم، وهذا العلم هو أشرف العلوم على الإطلاق.

العلم نوعان: النوع الأول علمٌ جلي، يدرك بالعيان، أو باستفاضة صحيحة، أو صحة تجربة قديمة أي أن هذا العلم الجلي ثلاثة أنواع:

(1) إما وقع عن عيان وهو البصر.

(2) ما استند إلى السمع، وهو علم الاستفاضة.

¹ - أبو الحسن علي بن محمد الشهير بـ الماوردي: أدب الدنيا والدين، ص 32 و40 و42 و49 و50، بالتصرف.

3) ما استند إلى العقل وهو علم التجربة.

ولا تنحصر طرق العلم فيها، فإن سائر الحواس توجب العلم، إذ يلحق بها ما يدرك بالباطن، وهي الوجدانيات، وكذا ما يدرك بخبر المخبر الصادق، وبالفكر والاستبطاء.

والنوع الثاني من العلم ما يسمى المعرفة تنبت في القلوب الطاهرة ولا تحمل هذه القلوب إلا الأبدان الزاكية، التي زكت بطاعة الله، ونبتت على أكل الحلال، فقبلت بذور العلم والمعارف، فإن سقيت بمدد من الشرع والسنة المحمدية، أنبتت العلم والحكمة⁽¹⁾.

○ والعلم النافع ينبت الفكر الصائب فما بالكم بعلوم القرآن والسنة إنه نور من الله: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾ النساء/174.

○ ﴿وَاتَّبِعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ﴾ الأعراف/157.

به ينمو ويصوب فكرنا وإدراكنا ووعينا والدين لا ينصر بالجهل والقساوة وإقصاء الآخرين بل ينصر بالعلم والمعرفة والكياسة عندها يتفتح العقل بنور العلم ويزهر ثمراته:

○ ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ

خَبِيرٌ﴾ المجادلة/11.

وهذا الفكر هو الدعامة الأساسية لبناء المفاهيم، فينضج فكراً نيراً يبنى الإنسان المؤمن العاقل بفكر سليم لا تطرف فيه ولا ضلال فشراف العلم يرفع منزلة العقل وقيمة حامله، وعنه ﷺ قال: أَهْلُ الْقُرْآنِ هُمْ أَهْلُ اللَّهِ وَخَاصَّتِهِ.

¹ - أبو عبد الله محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية: تهذيب مدارج السالكين، ص434.

وطريق العلم ممدود والسباق فيه مرغوب ومع هذا يظل الإنسان قليل العلم:

○ ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ الإسراء/85.

○ ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ البقرة/232.

والمراد نفي كماله، لأن الإنسان له علم، لكن لنقصان علمه نفي الله عنه العلم، فإذا كان الله يعلم، ونحن لا نعلم فإن مقتضى ذلك أن نستسلم غاية الاستسلام لأحكامه سبحانه وتعالى، وأن لا نعارضها بعقولنا مهما كانت، ولهذا ينفي الله عزّ وجل على الكفار والمشركين عدم العقل، وكل من خالف الشرع فليس بعاقل⁽¹⁾.

هنيئاً للمؤمنين العاقلين الذين أعزهم الله بعلمه وأذل أعداءهم بجهلهم.

○ وعنه ﷺ قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ﴾⁽²⁾.

وعلينا جميعاً أن ننهل من أهل العلم والمعرفة وعنه ﷺ قال: ﴿الْعُلَمَاءُ وَرِثَةُ النَّبِيِّاءِ﴾⁽³⁾.

لذا وجهنا الله عزّ وجل أن نسأل أهل القرآن وأن نكونوا قدوتنا:

○ ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ النحل/43.

¹ - تفسير القرآن الكريم للشيخ ابن عثيمين، المجلد الثالث، ص 142.

² - رواه مسلم وغيره.

³ - أخرجه أحمد في مسنده.

○ وعنه عليه السلام قال: ﴿فَضَّلُ الْعَالَمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أَدْنَاكُمْ وَإِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ حَتَّى النَّمْلَةِ فِي حَجَرِهَا لِيَصِلُونَ «أَيَّ يَدْعُونَ» عَلَى مُعَلِّمِ النَّاسِ الْخَيْرِ﴾^(١).

فأهل العلم فهموا وأدركوا عظمة الله عز وجل، وكل يوم تظهر اكتشافات علمية تزيد يقيناً عظمة الله تعالى في إبداع هذا الكون وإحكامه وإتقانه فيزدادوا خشوعاً وخشية منه، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ فاطر/28. إنما يخشاه حق خشيته العلماء العارفون به، لأنه كلما كانت المعرفة للعظيم القديم أتم والعلم به أكمل، كانت الخشية له أعظم وأكثر... وقال مالك: ((إن العلم ليس بكثرة الرواية، وإنما العلم نور يجعله الله في القلب))^(٢).

هذا العلم الباعث على العمل بل هو مما جاء من أدلة على أن روح العلم هو العمل، قال الإمام مالك: ((أن الله قد قسم الأعمال كما قسم الأرزاق، فرب رجل فتح له في الصلاة ولم يفتح له في الصوم، ونشر العلم من أفضل أعمال البر، وإلا فالعلم عارية وغير منتفع به))... عن أبي الدرداء: ((إنما أخاف أن يقال لي يوم القيامة أعلمت أم جهلت؟ فأقول: علمت، فلا تبقى أية من كتاب الله أمرة أو زاجرة إلا جاءتني تسألني فريضتها، فتسألني الأمرة: هل اتتمرت؟ والزاجرة؟ هل ازدجرت؟، فأعوذ بالله من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعاء لا يسمع وقال ابن مسعود: إن الناس أحسنوا القول كلهم فمن وافق فعله قوله فذلك الذي أصاب حظه، ومن خالفه فعله قوله فإنما يوبخ نفسه))^(٣).

¹ - رواه الترمذي والطبراني.

² - مختصر تفسير ابن كثير، ج3، ص145.

³ - الموافقات في أصول الأحكام للشاطبي، ج1 ص32-34.

ويجب التماس العلم من أهل العلم بلطف ودوام المتابعة والتكرار.

لكي يصبح ملكة وسجية لهذا المتعلم وعنه ﷺ أنه قال: «إِنَّمَا الْعِلْمُ بِالْتَعَلُّمِ»⁽¹⁾ وقالوا: ((والمزاولة تعطي الملكات، ومعنى هذا أن من زاول شيئاً واعتاده، وتمرن عليه صار ملكة له، وسجية وطبيعة))⁽²⁾.

فمزاولة العلم والتعود على متابعته يزيد المؤمن إثراءً ومعرفةً بالله إلى أن تصبح هذه المتابعة سجية وملكة وطبعاً فيستقيم أمره ويزداد نور قلبه ويطمئن ويستكين بعلم الله إلى أن يصل إلى حبه وعشقه لخالق السموات والأرض:

○ «وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ» النجم/42.

هذا النور الذي في قلب المؤمن العاقل تشرب النقل والسنة فيسلك العقل مسالك القرآن والسنة ويعمل بها ويتناغم معها.

بهذا العلم نستطيع أن ندرك ونفهم فنصوب فهمنا وإدراكنا لكي نعي ما نسمع ونقول.

لكن الغفلة مضادة للعلم منافية له، وقد ذم سبحانه وتعالى أهل الغفلة، ونهى عن إطاعتهم.

○ قال تعالى: «وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا» الكهف/28.

والغفلة سهو يعتري الإنسان من قلة التحفظ والתיقظ، وهي من أهم أمراض القلب، لأن القلب الغافل مطية للشيطان ومأوى للهوى وحب الشهوات.

¹ - رواه أبو الحسن علي بن عمر ويلقب بـ الدارقطني: سنن الدارقطني، وصححه الألباني.

² - ابن القيم: عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين، ص18.

○ قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلَّ هُمْ أَضْلُ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ الأعراف/ 179 ،
لهذا كان العلم السبيل الأول للابتعاد عن الغفلة، والعلم ثمرته العمل، وخير
العمل الصلاة، قال ﷺ: ﴿واعلموا أنّ خير أعمالكم الصلاة﴾⁽¹⁾.

فتعالوا معاً ندرس خاصية الوعي العقلي.

¹ - رواه احمد .

الفرد الرابع

الوعي العقلي

هو شعور الإنسان بنفسه، فيعي ويفهم ويستوعب ويحفظ ما يسمعه ويشاهده ويحسه «حالة يقظة الوعي» أما فاقد الوعي فهو كالإنسان المغشى عليه لا يعي ولا يدرك ما يحيط به «حالة غفلة الوعي»، وعند استيقاظه نقول أنه وعي أي استوعب ما يجري وما يحدث أمامه، بعد أن أدرك ما يبصره ويسمعه ويحسه كأثر، لأن الوعي يقاس بأثر ما أدركه كمعلومات حفظت بوعاء الذاكرة.

○ قال تعالى: ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ الحاقة/12.

○ قال: ﴿رُبَّ مَبْلَغٍ أَوْعَىٰ مِنْ سَامِعٍ﴾^(١).

قال ابن عباس: ((حافضة سامعة، وقال قتادة: عقلت عن الله فانتفعت بما سمعت من كتاب الله، وقال الضحاك: سمعتها أذن ووعت، أي من له سمع صحيح وعقل رجيح، وهذا عام في كل من فهم ووعي))^(٢).

يقال: ((وعيت الحديث وعياً، أي حفظته وتدبرته))^(٣).

أي أفهم وأكثر استيعاباً، فعند اكتساب الإنسان العلوم المعرفية والثقافية والمهارات الفكرية يتم فهمها واستيعابها وحفظها لحين استرجاعها، يتم معنى وعيته في

¹ - رواه البخاري برقم/67، جزء من الحديث.

² - مختصر تفسير ابن كثير للصابوني، ص539.

³ - المقرئ: معجم المصباح المنير، ص418.

الذاكرة منها قصيرة الأمد الموجودة في الدماغ وأن توعى في القلب حيث يتم حفظ المعلومات الهامة والمتكررة والمعتقدات الإيمانية - ذاكرة طويلة الأمد .

○ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ ق/37 .

قال مجاهد وقتادة: ((يكتُمون في صدورهم))^(١)، أي بما يعملونه وينونه سراً، فالله يعلم سرهم وجهرهم وسيجازيهم بأعمالهم^(٢).

○ قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾ الانشقاق/23 .

أي لب يضيء به، وقال مجاهد: ((وألقى السمع وهو شهيد))، أي استمع الكلام فوعاه، وتعقله بعقله وتفهمه بلبه، وقال الضحاك: العرب تقول: ((ألقى فلان سمعه إذ استمع بأذنيه))^(٣).

عن عائشة قالت: ((الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادلة إلى النبي ﷺ تكلمه، وأنا في ناحية البيت ما أسمع، فأنزل الله عز وجل: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ المجادلة/1، وفي رواية عنها أنها قالت: تبارك الذي أوعى سمعه كل شيء))^(٤).

والوعي يختلف من شخص لآخر بسبب تجاربه واكتسابه للعلوم والمهارات فتتجلى شخصية الإنسان ويقظة وعيه وفطنته لفهم ما حوله ويكون حاضر القلب ليتبصر العقل فيعي العاقل القضايا والأحداث مما ينشأ لديه تصورات ذهنية عميقة،

¹ - مختصر تفسير ابن كثير، ص 615 .

² - تفسير السعدي، ص 932 .

³ - تفسير مختصر ابن كثير، ج 3، ص 455 .

⁴ - المرجع السابق، ج 3، ص 7 وص 455 .

تخوله أن يعي لما حوله فيرى ما لا يراه الآخر، ويفهم ما لا يفهمه الآخر، ويدرك ما لا يدركه الآخر عندها يرتقي هذا العاقل بيقظة وعيه فتظهر لديه إمكانات واعية خلاقة ونظرة ثاقبة تؤثر على الآخر إما بالكلمة أو بالعمل الصالح فيربح خير الدنيا والآخرة شرط أن تكون نيته خالصة لله تعالى.

وقد أثبت العلم وجود خلايا متميزة ومتطورة جداً في القلب تعمل عمل الذاكرة وحفظ واستيعاب المعلومات وهي أكثر تمايزاً وعملاً من الخلايا الدماغية المسؤولة عن الذاكرة قصيرة الأمد.

وتبين وجود تنسيق بين الخلايا السمعية الاستيعابية للأذن، والخلايا الاستيعابية التي تعمل عمل الذاكرة في القلب عن طريق العصب العاشر والمسمى العصب الحائر.

أما الصنف الآخر الذي انحرف وعيه عن الطريق واتبع هواه وغفل، بل وعزم على الكفر والعصيان ووطن قلبه أن لا يعي خيراً قط وقال عبيد: ((والشر أخبث ما أوعيت من زاد ويحسب نفسه أنه الأوعى والأفهم والأصح أعمالاً هذا الصنف هم الأخسرين أعمالاً حقيقية)).

○ قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِاللَّذِينَ خَسِرِينَ أَعْمَالًا﴾ الكهف/103.

○ ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ

صُنْعًا﴾ 104 ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ

فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ 105 ﴿ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا

وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا﴾ الكهف/104-106.

كيف يتشرب القلب الفتن:

قال حذيفة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ﴿تُعْرَضُ الْفِتْنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عوداً عوداً، فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكَّتَتْ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءٌ، وَأَيُّ قَلْبٍ أُنْكَرَهَا نُكَّتَتْ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيِّضَاءٌ، حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ: قَلْبٍ أَبْيَضٍ مِثْلَ الصَّفَا فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ، وَالْآخِرُ أَسْوَدٌ مِرْبَاداً كَالْكُوزِ مَجْحِيأً لَّا يُعْرَفُ مَعْرُوفاً وَلَا يُنْكَرُ مَنْكَرًا إِلَّا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ﴾⁽¹⁾.

مجحياً أي منكوساً، قال القاضي عياض رحمه الله: ((هو وصف آخر للقلب الأسود ومن أوصافه بأنه قَلْبٌ وَنُكْسٌ حَتَّى لَا يَعلُقُ بِهِ خَيْرٌ وَلَا حَكْمَهُ، وَمِثْلُهُ بِالْكُوزِ المَجْحِي وَبَيْنَهُ بِقَوْلِهِ: لَا يَعرِفُ مَعْرُوفاً وَلَا يَينْكَرُ مَنْكَرًا، قَالَ القَاضِي رَحِمَهُ اللهُ: شَبَهَ القَلْبَ الَّذِي لَا يَعي خَيْرًا بِالكُوزِ المَنْحَرَفِ الَّذِي لَا يَثْبِتُ المَاءَ فِيهِ.

وقال صاحب التحرير: معنى الحديث أن الرجل إذا اتبع هواه وارتكب المعاصي دخل قلبه بكل معصية يتعاطاها ظلمة، وإذا صار كذلك افتتن وزال عنه الإسلام، والقلب مثل الكوز فإذا انكب انصب ما فيه ولم يدخله شيء بعد ذلك))⁽²⁾.

فشتان بين من أوعى قلبه الإيمان، فكان نوراً يضيء عقله لفعل الخير والقلب المنكوس الذي لا يعي إلا الشر والمنكر فتكون ظلمة تهوي بالعقل إلى الردى، ويزداد وعي الإنسان بزيادة التجارب وتنوع المعارف ودراسة تاريخ الأمم البائدة والسائدة لأن التاريخ ذاكرة الأمة ووعاء قيمها وتراثها وأساس شخصيتها.

¹ - رواه مسلم برقم/144.

² - صحيح مسلم بشرح النووي، ج2، ص332.

وعليه تعطي دافعاً قوياً لتكوين العقل الإنساني الواعي فعلينا التمسك بأعظم موروث بالعالم قرآنا الخالد، فيه ذكر هذه الأمة والأمم السابقة.

لنعي ونفهم وندرك بعض الحقائق المستورة عن أعيننا وأسماعنا قال تعالى:

○ ﴿أَوْ لَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مَنْ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ السجدة/26.

آيات الله فيعوها فينتفعون بها، فلو كان لهم سمع صحيح وعقل رجيح، لم يقيموا على حالة يجزم بها بالهلاك⁽¹⁾.

لأن دراسة التاريخ والاعتبار من نتائجه يساعد على تعميق الوعي الثقافي والمعرفي للإنسان فلا يمرر وعينا أي أحداث إلا ونعيه ونفهم مغزاه وأبعاده ونتائجه.

وعي الإنسان يمر بثلاث مراحل حسب الفترة الزمنية:

○ قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ الروم/54.

المرحلة الأولى: البدء باكتساب الوعي من المحيط الأسرة والمدرسة والبيئة، فيتعلم دينه رويداً رويداً.

المرحلة الثانية: نضج الوعي وهي بداية مرحلة التكليف.

وهي مرحلة البحث عن التفكير بآيات الله المنظورة والمقروءة، وظهور علامات القوة قوة الشباب فالعاقل هنا يعي أن يكبح شهواته وأهواءه، وهنا يكون شرهاً جداً للبحث وحب الاطلاع وكلها تسهم في زيادة وعيه.

¹ - تفسير تيسير الكريم للسعدي، ص663.

والجاهل ينساق وراء شهواته وحب ذاته والزهو بقوته فهو ووعيه كغشاء
السييل.

المرحلة الثالثة: مرحلة الكهولة مرحلة مرض ونقصان وضعف جسمي ووهن
نفسي.

وقد يدخل مرحلة الزهايمر إلا من رحمه ربه، في هذه المرحلة يشعر بفقدان قوته
فتضعف فيه حب الأنا والزهو وحب العظمة ويشعر بأن الأجل قادم فيعي أكثر
وأكثر أن أيامه قد قلت في هذه الدنيا فيتجه لخالقه.

فالإنسان العاقل الواعي عليه أن يربي أولاده على حب الله ورسوله وعلى التسامح
وحب الآخر ورفض الغلو والأفكار المتطرفة التي تبث في إعلام التفكير الظلامي،
عن طريق بعض المتطرفين فتابعوا أولادكم وانظروا ماذا يوعون.

تعالوا نتابع خاصية جديدة من النشاط العقلي هي التمييز العقلي.

الفرع الخامس

خاصية التمييز العقلي

التمييز الفصل بين المشتبهات نحو:

- ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ الأنفال/37.
- وفي المختلطات نحو: ﴿وَأَمَّا زُوا الْيَوْمِ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ يس/59^(١).
- ويقال: ((مازه يميزه ميزا- عزله وفرزه))^(٢).

والفقههاء يقولون: سن التمييز، والمراد: سن إذا انتهى إليها عرف مضاره ومنافعه وكأنه مأخوذ من ميزت الأشياء، وبعض الناس يقول التميز قوة في الدماغ يستتبط منها المعاني^(٣).

وأهم ما يميز الإنسان عن بقية المخلوقات أنه سبحانه وتعالى نبه العقول على التمييز بين الحسن والقبيح، لكي يتم الانتفاع بالحسن وبيتعد عن القبيح، وما الحسن إلا ما أحله الله وما القبيح إلا ما حرمه الله عز وجل، وضرب الله عز

¹ - المفردات في غريب القرآن للأصفهاني، ص 481.

² - القاموس المحيط لفيروز أبادي، ص 523.

³ - المقرئ: معجم المصباح المنير، ص 367.

وجل أمثلة كثيرة لكي ينبه العقول على التمييز بين استحسان فعل واستقباح فعل آخر، ولا يتم هذا إلا بعد معرفة وعلم، لأن من أولويات مهام العقل التمييز بين البدائل وأخذ الأفضل .

والأحمق: هو الذي يجهل عيوب نفسه إما لقلّة علمه وتميزه وضعف فكرته، وإما لأنه يقدر أن عيوبه خصال، وهذا أشد عيب في الأرض، ومن الناس كثير يفخرون بالزنا واللياقة والسرقة، والظلم، فيعجب بتأتي هذه النجوس له وبقوته على هذه المخازي⁽¹⁾.

المؤمن العاقل أدرك وفهم بخاصية التمييز هذه أن عليه أن ينهي أنا النفس عن الهوى فيردعها عن الطبع الغضبي والشهواني والاستكباري والتسلطي والقهري وكلهم تحت موجب حب الهوى بتصميم وعزيمة فالحسن يمضيه والقبیح يردعه .

وقبائح الأفعال قد تكون نتيجة التقاليد الموروثة عن الآباء الذين لم يعقلوا فاقتدوا بهم قال تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ الزخرف/23 . هؤلاء لم يميزوا الأفعال الحسنة من القبیحة كل شيء مقبول عندهم طالما اصطبغوا بتقليد آباءهم، فلم يكثرثوا لنتائجها، فخاصية التمييز عندهم ضحلة .

بينما العاقل يقوم بعملية التفكير وتحليل الأمور والمعطيات ودراستها واستنباط الحلول وتمييز الصالح من الضار بما يوافق شرع الله، بهذا التميز تنقذ الصور الذهنية القابلة للحل لتكون نواة لفكرة صائبة لأي مشكلة دون أن يكون فيها غلواً بل توازناً مضبوطاً والرجوع إلى المنهج البين والواضح لكي يميز الحق عن الباطل المزيف والمزین:

¹ - أبو محمد علي بن أحمد ابن حزم الأندلسي: الأخلاق والسير في مداواة النفوس، ص106.

○ ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾

محمد/14.

لهذا كان التمييز والتفريق بين استحسان الفضائل واستقباح الرذائل من مجاهدة النفس وغلبتها على طبائعها عندها تستكين النفس إلى بارئها خاشعة طائعة بعدما عقلت أوامره وعنه ﷺ قال: ﴿الْكَيْسُ مِنْ دَانَ نَفْسُهُ وَعَمَلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعُ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ الْأَمَانِيَّ﴾^(١).

فالكيس هو العاقل الذي استطاع أن يميز ما ينفعه، والعاجز رضح لهوى نفسه ولهذا قيل: ((النفس كالشريك الخوان، إن لم تحاسبه ذهب بمالك نفسه)).

ولأجل هذا تعالوا ننقل إلى خاصية التفكير العقلي.

¹ - أخرجه أحمد في مسنده.

الفرع السادس

التفكير العقلي

«العقل وصراع الأفكار»

قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾

النحل/44.

إن التفكير العقلاني فريضة وعبادة وأخلاق لأن المؤمن العاقل مطالب ومدعوا لأن يُعمل فكره في كل مناحي حياته وعبادته ليزداد سمواً بالتفكير فيما أبدع خالق الكون عز وجل فيزداد معرفة وعبودية وخشية منه.

وقال بعض السلف: ((تفكر ساعة خير من عبادة ستين سنة وقال الحسن: تفكير ساعة خير من قيام ليلة)).

المؤمن العاقل أراح فكره بالتفكير عن سبب إيجاده على هذه الأرض؟ وكيف؟ ولماذا؟ وما معنى الموت والجنة والنار؟.

لأنه آمن بالله عز وجل وأمن بالغيب، على عكس الملحد الذي يدور في متاهات تساؤلاته الضالة.

إن القرآن الكريم حث المؤمنين على عملية التفكير بآيات الله المقروءة والمنظورة ليشاهد عياناً وإدراكاً عظمة خالقه فيعرفه.

○ ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ آل عمران/191.

أليست الآية التالية واضحة جلية للدعوة إلى التفكير في خلق وإبداع الله عز وجل
والبداية منك أيها الإنسان:

○ ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ العلق/2.

وكلما تعمقت في المعرفة والنظر العقلي في إبداع ما خلق الرحمن وتفكرت
في مخلوقاته ستسمو ويكرمك الله المزيد من المعرفة فتزداد يقيناً على يقين
ويترسخ إيمانك بالله:

○ ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ العلق/3.

فكان إكرام الله للإنسان ابتداءً أكرمه بالعقل، فعلى المؤمن العاقل أن يتفكر بكل
أمر يعرض عليه وألا يتحدث قبل التفكير به واستخلاص نتائجه وقد ميز الإمام
الشافعي نوعين من الإيمان: الأول إيمان المتفكرين وهم أهل العلم والمعرفة الذين
يتفكرون بعقولهم:

○ قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ فاطر/28، الثاني إيمان
العوام وهم عامة الناس.

ماذا تعني كلمة التفكير:

مادة "التفكر" تكررت في القرآن الكريم في ثمانية عشر موضعاً كلها بصيغة
المضارع "تتفكرون" (يتفكروا-يتفكرون)، إلا في موضع واحد جاءت بصيغة الماضي
لأن التفكير هو المحرك الأساسي لجميع نشاطات الإنسان لكي تظهر الفكرة
أعمالاً، ذلك بإعمال العقل والنظر فيه للوصول إلى معانيه وحقيقته.

الفكرة: قوة مطرقة للعلم إلى المعلوم، والتفكر جولان تلك القوة بحسب نظر العقل،
وذلك للإنسان دون الحيوان، ولا يقال إلا فيما يمكن أن يحصل له صورة في القلب
ولهذا روي: ((تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في الله))، إذ كان الله منزهاً أن

يوصف بصورة، ورجل فكير كثير الفكرة، ويستعمل الفكر في المعاني وهو فكر الأمور ويحثها طلباً للوصول إلى حقيقتها⁽¹⁾، بينما العقل هو فهم وإدراك الأشياء واستنتاج ما يجب عمله قولاً أو فهماً.

والفكر: تردد القلب بالنظر والتدبر لطلب المعاني، والفكر: ترتيب أمور في الذهن يتوصل بها إلى مطلوب يكون علماً أو ظناً⁽²⁾.

ويقال: ((فكر في الأمر، يفكر، فكراً: أي أعمل العقل فيه، ورتب بعض ما يعلم))⁽³⁾. والفيلسوف الفرنسي ديكارت قال جملة الشهيرة: ((أنا أفكر، إذاً أنا موجود)).

كيف تتشكل الفكرة:

نتاج لمجموعة عناصر ومعلومات تظهر بانطباعات حسية (صور ذهنية خيالية) تصقل وتزداد تألقاً بروافد العلوم المعرفية وكثرة التجارب، لهذا كانت قوة التفكير تتناسب طردياً مع درجة العلوم المعرفية.

التفكير العقلي:

هو استرجاع في ما تعلمناه وتعرفنا عليه ثم أوعيناه في داخلنا كصور ذهنية استقبلت عبر البوابات الإدراكية المعرفية للحواس، فعندما نسمع الأصوات والأقوال أو نقرأ ما يكتب فإننا نتعامل مع اللغة التي هي الرموز كإشارة إلى الأشياء، واستحضار الأحداث والأشخاص، ولذا يعرف التفكير بأنه تجربة ذهنية وليست تجربة فعلية يدرك فيها الإنسان بعض الملاحظات فيربط السبب بالنتيجة

¹ - المفردات في غريب القرآن لـ الراغب الأصفهاني، ص386.

² - المقيس: معجم المصباح المنير، ص298.

³ - معجم الوسيط: إصدار مجمع اللغة العربية بالقاهرة، مادة فكر.

والعلة بالمعلول ليصل إلى قناعة لحالة ما، أو حدث ما، أو استفسار ما ينتج حلاً لها .

فالتفكير بالطاعات لكي يصل المؤمن إلى رحب الحياة في الآخرة لا يأتي إلا بالحب والرغبة في عمل الطاعات، وما عمل الطاعات إلا زلفى للمحبوب، لكي يعبد حقه العباد، فيمتلئ القلب بحب الله ورسوله فينفذ أوامر خالقه، والتفكير في معاني كلمات القرآن وبذكر القرآن وتلاوته وفهمه وتدبره والتفكير به فيزداد معرفته بخالق الكون.

وهناك فرق واضح بين يتفكرون ويفقهون، يفقهون من الفقه وهو الفهم المركز العميق للمعنى وإدراكه، (لقوم يفقهون) أي يفهمونه تدبراً وتبصراً بتركيز شديد .

أدوات بناء الفكرة:

1- استعداد العقل بالمعرفة والعلم، يسهم في نشوء صور ذهنية مولدة للفكرة.

2- خصوبة الخيال العقلي وما يسمى بالإلهام الفكري.

3- أن تكون الفكرة قابلة للتنفيذ على أرض الواقع.

الصور الذهنية: هي تصور شيء في الذهن يخيل هذا الشيء، وله أنواع منها صور حسية بصرية، فإذا كنت تنظر إلى قصر جميل، أغمض عينيك فإنك تستطيع تخيله وتصوره في ذهنك، هذه هي الصورة الذهنية الحسية البصرية.

فكر بأمك لحظة، تستطيع أن تسمع صوتها وأن تراها كصورة ذهنية سمعية بصرية حسية.

إذا كنت جائعاً ستفكر بالرجوع للمنزل لأكل اللحم، فبخيالك تتذوق اللحم «صورة ذهنية ذوقية حسية»، وكثرة الصور الذهنية تدل على وفرة معاني الكلمات وكثرة حفظ الذكريات والأحداث السابقة.

الإلهام - الوحي - الرؤيا الصادقة - حديث المرء مع نفسه - الخاطرة:

وهي أهم المحفزات الهامة في عملية بناء الأفكار وتجديدها .

الإلهام: وهو من الله عزَّ وجل قد يكون إلهام بفعل الخير وكان رسول الله ﷺ يدعو: ﴿اللَّهُمَّ أَهْمَنِي رَشْدِي وَقْنِي شَرَّ نَفْسِي﴾^(١).

هذا الإلهام قد يكون إحاء أو وعظ ولا يعطى إلا للمؤمن ﴿وَأَعْظُ اللَّهُ فِي قَلْبِ كُلِّ مُؤْمِنٍ﴾^(٢).

الرؤيا الصادقة: قال ﷺ: ﴿لَمْ يَبْقَ مِنَ النُّبُوَّةِ إِلَّا الْمُبَشِّرَاتُ قِيلَ: وَمَا الْمُبَشِّرَاتُ، يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ، يَرَاهَا الْمُؤْمِنُ أَوْ تَرَى لَهُ﴾^(٣).

عندها يتحفز المؤمن على بلورة الفكرة التي قد تتحول إلى عمل شرط النية على إمضاء الأمر.

أحياناً تظهر صور ذهنية افتحامية وسواسية في أذهاننا، ونستعيد بالله من الشيطان الرجيم منها .

وعنه ﷺ قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي مَا وَسَّوَسَتْ بِهِ صُدُورُهَا، مَا لَمْ تَعْمَلْ أَوْ تَتَكَلَّمْ﴾^(٤).

¹ - رواه الترمذي، برقم/3483 .

² - رواه الترمذي برقم/2859، جزء من الحديث.

³ - رواه البخاري برقم/6990 .

⁴ - رواه البخاري، برقم/2528 .

هذه الوسوسة والتخيلات الواهية في النفس لا معنى لها تظهر نتيجة الغفلة لكثرة الذنوب، وتتضاءل مع كثرة الاستغفار والإنابة إلى الله.

أما الوحي في اللغة (هو الإعلام السريع الخفي، ويقال في فعله، وحي، وأوحى)⁽¹⁾. يقال للكلمة الإلهية التي تلقى إلى أنبيائه وأوليائه وحي وذلك إما برسول مشاهد ترى ذاته ويسمع كلامه كتبليغ جبريل عليه السلام للنبي في صور معينة، وإما بسماع كلام من غير معاينة كسماع موسى كلام الله وإما بإلقاء في الروع كما ذكر عليه الصلاة والسلام: ﴿إِنَّ رَوْحَ الْقُدُسِ نَفَثَ فِي رَوْعِي﴾، وإما بإلهام نحو:

○ ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ القصص/7.

○ وإما بتسخير نحو قوله: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ النحل/68.

أو بمنام كما قال عليه الصلاة والسلام:

○ ﴿انْقَطَعَ الْوَحْيُ وَبَقِيَتِ الْمُبَشِّرَاتُ وَرُؤْيَا الْمُؤْمِنِ وَالْإِلْهَامِ وَالْتِسْخِيرِ وَالْمَنَامِ﴾⁽²⁾.

بعد أن تتشكل الصورة الذهنية نتيجة مشكلة ما حدثت أمامك، حديث سمعته، خاطرة وحلم راودك تجارب سابقة تمثل عشرات الأنواع من الصورة الذهنية في أذهاننا، يتم حفظها في الذاكرة وموقعها في الدماغ، والتي تكون متكررة وذات أهمية اعتقادية تفرز إلى الذاكرة طويلة الأمد وموقعها في القلب وتترسخ فيه وتلعب القشرة الدماغية دوراً هاماً في تحليل المنبهات والمعلومات الواردة وفرزها وتبيانها ووضعها في مراكز التابعة لها فالإنسان قادر على تكوين المفاهيم العامة

¹ - ابن القيم: التفسير القيم، ص42.

² - المفردات في غريب القرآن للأصفهاني، ص530.

والتصورات، يقول العالم بافلوف: ((عندما يتعلم الطفل التكلم فإن نطق وسماع كلمة معينة (الليمون) يترافق بمنبهات مختلفة، تظهر عند التعرف على هذه المادة - المنبهات البصرية - السمعية - الشمية - الذوقية، فالتهيج الناتج في قشرة الدماغ عند لفظ الكلمة، فإن الإشارات والمعاني من الكلمات المنفردة لا تستقبل معزولة وإنما بشكل إجمالي، فتركب الكلمات جملاً بسيطة، ومن أعقد فأعقد ويتعامله مع الكلمات، يستطيع الإنسان بسرعة واختصار تقبل وتقديم إشارات عديدة، مما يحدد إمكانية العلاقة الواسعة بين الناس))⁽¹⁾.

فالناس بهذه الكلمات يستطيعون تشكيل أفكارهم وذلك ضمن جملة مفيدة تعطي صورة ذهنية فتتجمع لتشكّل فكرة والأفكار تتجمع لتعطي ما يسمى المدركات مشكلة لاحقاً المفاهيم والتي هي محصلة المؤثرات معرفية علمية لهذا الشخص وتطبع في قلبه معتقداً راسخاً وهذه المفاهيم والمعتقدات قد تكون صحيحة أو منحرفة فيصطبغ بها الإنسان، فالفكر المنحرف الساقط ما هو إلا ما صورته النفس الأمارة بالسوء التي أغراها شيطانها وذاتها المتكبرة عندها تظهر لصناعة الأفكار المتطرفة الشيطانية.

وأخطر ما يواجه الشباب هي عملية غسل العقول بحيث يتم التحكم بالصور الذهنية المعرفية والسلوكية للإنسان والسيطرة عليها قد تكون بالإقناع أو التلقين المستمر القسري لهم.

فتتولد أفكار معلبة جاهزة رويداً رويداً تؤدي لتغير المفاهيم بعد برهة من الزمن، فيساقون كقطيع الغنم بدون أدنى فهم أو تفكير مثال: نسمع كثيراً عن جماعات تؤمن بالشعوذة ويسيطر عليهم رجل غامض يأتهمرون بأمره، إلى أن يأمرهم بالانتحار الجماعي كما حدث في مدينة جونز تاون الأمريكية كانت أدواته أنه

¹ - فاسيلي تاتارينوف: تشريح وفيزيولوجيا الإنسان، دار مير للطباعة، ص 373-374.

يحمل فكراً متطرفاً استطاع أن يوصله لعدد من الناس فساروا مع الخداع الجماعي فتأثروا به وأقنعهم بمعتقداته وتلاعب بهم كما يتلاعب الصبية بالكرة، إلى أن دعاهم لعملية الانتحار الجماعي فنفذوا الانتحار.

ومنهم من يأمر اتباعه بقتل الآخرين وقتل أقاربهم لأنهم خارجين عن الصراط المستقيم؟ بخطاب تحريضي متطرف يعتقدون بأنهم يملكون صكوك الغفران، وصكوك من هو من المسلمين ومن هو من الكافرين!.

هؤلاء هم المارقون عن الإسلام الذين ينشرون الرعب والخرافة والكذب على اتباعهم، ومن الناس من يؤمنون بفكرهم فيصدقون الخدعة ويسيرون مع تنظيمهم السري المخادع الماكر ولهم مآرب أخرى لا تمت للدين بشيء فكل آناء بالذي فيه ينضح.

هي أفكار متطرفة ليست لها جذور في أرض الإسلام، يعتقدون أنهم على صواب وغيرهم على باطل فيعملون أعمالاً مريبة زينتها نفوسهم المريضة الجاهلة.

○ قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾ فاطر/8.

والمصيبة أعظم، فمنهم من يملك هذه الصفات عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:

○ قال رسول الله ﷺ: ﴿لَا يَخْرُجُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ رُجَالٌ يَخْتَالُونَ الدُّنْيَا بِالدِّينِ، يُلْبَسُونَ لِلنَّاسِ جُلُودَ الضَّانِّ فِي اللَّيْلِ، أَلَسَنَتَهُمْ أَحْلَى مِنَ السُّكَّرِ، وَقُلُوبُهُمْ قُلُوبُ الدَّنَابِ، يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَبِي يَفْتَرُونَ أَمْ عَلِيٌّ يَجْتَرُّونَ؟ فَبِي حَلَفْتُ لَأَبْعَثَنَّ عَلَى أَوْلَيْكَ مِنْهُمْ فِتْنَةً، تَدْعِي الْحَلِيمَ مِنْهُمْ حَيْرَانَ﴾⁽¹⁾.

¹ - رواه الترمذي.

إن تأثير أصدقاء السوء على الفرد خطير للغاية وقد يصل به الأمر إلى تصديقهم ويتبعهم، وهذه سياسة التفكير التبعية القطيعة، أي أنهم يتبعون ما يقال لهم دون أي تعقل ورشاد فالخوف كل الخوف من الذئاب الضالة التي تفتك بشبابنا .

من هنا فإن محركات التفكير المنحرف ستفرز إرادة سلبية سيئة لأهل الجهل والحمق وما تحمله من أهواء وأفكار هابطة وبالتدرج تصبح معتقداً راسخاً في داخله ويدافع عنه بشراسة، بل وقد يهلك نفسه اعتقاداً منه بصواب رأيه وفكره وهذا ما حصل للوليد بن المغيرة الذي ألغى عقله وتاجر بذكائه لمصلحته فوقع في شر أعماله:

○ ﴿إِنَّهُ فَكَرَ وَقَدَّرَ﴾ 18 ﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ 19 ﴿ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾

المدثر/18-20.

فالذين ألغو عقولهم وتشربت قلوبهم أفكاراً منحرفة شيطانية جاهلون بشرع الله، فسولت أنفسهم الأمانة بالسوء أمراً وهاجت شهواتهم الشيطانية وأهواؤهم الدموية على عقولهم الواهية فتأثروا وأثروا بالآخرين، فازدادوا تعصباً ودموية وغايتهم سفك الدماء التي حرم الله قتلها، إلا بالحق.

○ قال تعالى: ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ

النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ المائدة/32.

وهذا انحراف للفطرة السليمة، فيا أيها الآباء والأمهات انتبهوا إلى أولادكم وبناتكم من هم أصدقاؤهم؟، تابعوهم، اهتموا بمشاكلهم، راقبوهم، مخافة العدوى من الأفكار المتطرفة التي تقضي عليهم لأن ظاهرة الغلو والتطرف والعنف ما هي إلا أمراض وبائية إذا انتشرت قد تصيب الإنسان السليم بها لقربه وتماسه مع حاملها ولقلة مناعته .

فاحذروا يا أهلنا وانتبهوا إلى أولادكم، هم أكبادكم فنحن بحاجة ماسة إلى تفعيل عملية التفكير المستقيم خوفاً من انزلاقهم في مزالق التفكير المنحرف التسلطي وحثهم على بناء الأفكار السليمة التي تضعهم في طليعة الناس لأنه بالأفكار السليمة تصنع الحضارة.

فتعالوا معاً ننشط مهارات التفكير لأولادنا وعمليات الفهم والتحليل وتدوير الزوايا لحل المشكلات لكي يصنعوا آلية أخذ القرار، هذا هو بداية التفكير الإبداعي المستقيم السليم بعيداً عن الأهواء المنحرفة.

كيف تبني الأفكار الجديدة:

كما عرفنا أن الأفكار تترسخ في داخلنا ونحاول العمل على تنفيذها بإرادة عقلية قوية قولاً وعملاً نتيجة الميل لها حباً ورغبة وعزيمة نفسية شديدة.

فإذا تم تنفيذها أصبحت كحالة ثم تتحول إلى عادة ثم إلى ملكة متأصلة فينا حتى تصبح طبعاً وسلوكاً، هذا يتطلب شجاعة تسحق الخوف من الفشل ولا بد من ظهور واقع جديد.

فهل من الممكن تغير العادات السيئة من داخلنا؟! كعادة التدخين - حالة الغضب السريع- حالة اللامبالاة والأناثية - حالة تسلط فكرة احتمالية وسواسية - الجواب نعم بإذن الله، افرض بيئتك التي تريدها ... لا أن تجعل بيئتك تفرض عليك.

○ قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ الرعد/11.

1- قرار وتصميم داخلي - عامل نفسي صارم - برغبة في تغير هذه العادة - بحاجة لصور ذهنية جديدة لتشكيل الفكرة للعمل على تطبيقها، لأن إرادتك من صنع أفكار.

2- كبح الرغبة القديمة - الميل النفسي - لتخفيف مزاوله العادة القديمة- عدم الإصرار على عمل السوء.

- 3- متابعة التصميم على هذا التغير وحث النفس على التغير - عامل سلوكي.
- 4- الصبر على هذا التغير بأدوات مساعدة - الأهل - البيئة - سيؤدي حتماً إلى عملية التغير، ﴿وَمَنْ تَصَبَّرْ يَصْبِرْهُ اللَّهُ﴾⁽¹⁾ وللأصدقاء دور هام حيث يدعمون الفكرة الجديدة.
- 5- إن تكرار المنع يؤدي إلى ظهور عادة معاكسة.
- إذا بالإصرار والتصميم على التغير والتعود بالتدريب والصبر تتحول العادة إلى سلوك جديد وبالتكرار الدائم تصبح ملكة.
- لذا قالوا: ((المزاومات تعطي الملكات، ومعنى هذا أن من زاول شيئاً، واعتاده وتمرن عليه، صار ملكة له، وسجية وطبيعة، وقالوا: والعوائد تنقل الطباع، فلا يزال العبد يتكلف التصبر حتى يصير الصبر له سجية، كما أنه لا يزال يتكلف الحلم والوقار والسكينة والثبات، حتى تصير له أخلاقاً، بمنزلة الطباع⁽²⁾).
- 6- يزداد شعور الإنسان بأنه بدأ يتغير وإرضاء للذات بحاجة للمتابعة والمجاهدة وعنه ﷺ قال: ﴿أَفْضَلُ الْجِهَادِ مُجَاهِدَةَ النَّفْسِ﴾⁽³⁾.
- التفكير المستقيم الإيجابي بحاجة لتفعيل هذه الأسس:

- 1- إعادة قراءة التاريخ وإزالة السموم الموضوعية فيه، لأن قراءة التاريخ تعطينا أمل ونظرة إلى النهوض بوعي الأمة.

¹ - رواه البخاري برقم/1469/ومسلم برقم/1053/جزء من الحديث.

² - ابن القيم: عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين، ص18.

³ - د. ماهر بايزيد: لنين منظومتنا الأخلاقية، ص196.

2- فهم فقه سنن التغيير، فالإسراف والانحلال الفكري واللامبالاة يساوي تماماً التطرف والغلو فلا بد من العودة إلى الاستقامة ﴿فَأَسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ هود/112، لأن العاقل يعلم بأن ما يجهله أكثر مما يعلمه لكنه طالما حدد البوصلة فلا بد من الوصول للطريق الصحيح .

3- الاعتصام بالله وكتابه وسنة رسوله: ﴿وَمَنْ يَعْصِمِ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ آل عمران/101، فالاعتصام بالله والتوبة النصوحة تظهر علاماتها على حاملها فينقلب رأساً على عقب ويزداد رهبة وخوفاً من خالقه لأن الخوف يتناسب طردأً مع الإدراك فقد أدرك وأوعى المؤمن بأن ربه سيحاسبه على كل شيء قال تعالى:

○ ﴿فَذَكَّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ ق/45، بهذا تظهر علامات النفس اللوامة ومحاسبتها لحاملها .

4- عندها تبدأ اليقظة من الغفلة والشعور بالمسؤولية ويستعيد العقل عافيته فتبدأ الأفكار المعتدلة بالظهور لتزيج جنوح الهوى الفكري المنحرف والشهوات الماجنة وهذا بحاجة لرجال وأئمة من أهل الاعتدال يحبون الله ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ﴾ المائدة/54 .

عندها تكون كفة الميزان لصالح الفكر المستقيم المعتدل الذي يعتمد على التربية الأسرية والمدرسية وعلى دعاة السلام .

هذه المراجعة النقدية يجب أن تكون مستمرة لكي تتقى وتصفى الصور الذهنية المعلقة بصور ذهنية يقظة لتكون أفكاراً سليمة تظهر سلوكاً مستقيماً .

فالعاقل يصطبغ بمعتقداته الدينية الوسطية والمتوازنة غير المشوشة فتكون أفكاره ذات تأثير طاقي إيجابي له ولغيره، ولفعل الخير وإصلاح ذات البين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهكذا أهل التقوى تتألف قلوبهم كخلية نحل .

○ وعنه عليه السلام قال: ﴿لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ﴾^(١).

○ وعنه عليه السلام: ﴿الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ﴾^(٢)

بهذا الحديث سندخل إلى أن العاقل عليه أن يميز عيوب نفسه لضبط جنوح الهوى وحب الشهوات التسلطية فبعد أن درسنا الصفات الأساسية للنشاط العقلي من الوعي والإدراك والتميز والفهم والتفكير لا بد من دراسة الصفات الفعلية للنشاط العقلي ألا وهي الضبط العقلي.

تعالوا معاً نتابع....

¹ - رواه البخاري برقم/13.

² - رواه البخاري برقم/10.

الفرع السابع

الصفات الضابطة للنشاط العقلي

الضبط صفة عقلية فعلية ((ضبط الشيء حفظه بالحزم))^(١).

الضبط العقلي: هو كالخفير يقوم بحراسة النفس وضبطها من فلتان هواها وشهواتها لأن النفس تحمل أطباعاً شتى، كالطبع الاستكباري والغضبي والانحرافي، والاستعلائي، الريائي، فيقوم العقل الضابط بفلترة الآراء والأفكار والتصرفات النفسية لكي ترتقي ليصل بها إلى أعلى العليين يقول الجنيد يرحمه الله ((الإنسان لا يعاب في طبعه، إنما يعاب إذا فعل بما في طبعه))^(٢).

النهي صفة عقلية:

- النهي وهي العقول لأنها تنهى عن القبيح^(٣).
- نهيه عن الشيء نهاء نهياً فانتهى عنه، والنهية: العقل.
- لأنها تنهى عن القبيح، والجمع نهى، قال الله تعالى:

¹ - مختار الصحاح للرازي، ص 336.

² - أبو الفرج عبد الرحمن بن علي ابن الجوزي: ذم الهوى، ص 436.

³ - محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي: مختار الصحاح، ص 585.

▪ قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى﴾ طه/54⁽¹⁾.

هي صفة عقلية ناهية زاجرة للنفس عن فعل أي مستقبح مخافة وعيد الله، وترجوا جنته:

○ قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ ﴿40﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ الانزاعات/40-41.

أي: خاف القيام عليه، ومجازاته بالعدل فأثر هذا الخوف في قلبه، فنهى نفسه عن هواها الذي يبعدها عن طاعة الله وصار هواها تبعاً لما جاء به الرسول ﷺ وجاهد الهوى والشهوة الصادين عن الخير⁽²⁾.

فأهل العقول الناهية يأمرهم بالمعروف وينهون عن المنكر وأدواتهم إما باليد تارة أو باللسان تارة أو في قلوبهم تارة أخرى.

وعن حذيفة بن اليمان أن النبي ﷺ قال:

○ ﴿وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَأْمُرَنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ أَوْ لَيُؤْشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْهُ، ثُمَّ تَدْعُوهُ فَلَا يَسْتَجَابُ لَكُمْ﴾⁽³⁾.

والإنهاء في الأصل: بلاغ النهي:

○ قال تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ الحشر/7.

¹ - المقرئ: معجم المصباح المنير، ص 393.

² - تيسير الكريم الرحمن للسعدي، ص 924.

³ - رواه أحمد والترمذي.

اجتناب المحظور صفة عقلية:

اجتناب المحظور الذي لا ينفع معه شيء من الليونة والمهادنة وهو الابتعاد عنه نهائياً لأن الاجتناب أبلغ من قول اتركوه وهو فعل عقلي.

○ قال تعالى: ﴿إِن تَجْتَبُوا كِبَائِرَ مَا تَنْهَوْنَ عَنْهُ نَكُفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾ النساء/31.

○ قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجَسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَبُوهُ لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ﴾ المائدة/90.

○ وعلة الاجتناب قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ المائدة/91.

○ وعنه ﷺ قال: ﴿اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُؤْبَقَاتِ، قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا هُنَّ؟ قَالَ الشَّرْكُ بِاللَّهِ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَالسَّحَرُ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَالتَّوَلَّى يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ﴾⁽¹⁾.

○ عن أبي عباس: قال: ((الكبائر كل ذنب ختمه الله بنار، أو غضب أو لعنة، أو عذاب، وسئل ابن عباس عن الكبائر فقال: كل شيء عصى الله به فهو كبيرة))⁽²⁾.

¹ - رواه بخاري ومسلم.

² - مختصر ابن كثير، ج1، ص382.

الحجر صفة عقلية:

الحجر ((معنى المنع لما يحصل فيه فليل للعقل حجر لكون الإنسان في منع منه مما تدعو إليه نفسه))⁽¹⁾.

○ قال تعالى: ﴿هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ﴾ الفجر/5.

إن أعظم ما أقسم الله به العقل، والحجر كل مادته تدور على الأحكام والقوة، فالحجر لقوته، والحجرة لإحكام ما فيها، والعقل سمي حجراً بكسر الحاء، لأنه يحجر صاحبه عما لا يليق، والمحجور عليه لمنعه من تصرفه وأحكام أمره⁽²⁾.

هذا ما يؤكد أن العقل يقوم بعملية الاكتناف والإمساك بإحكام والزجر لمنع شروود هوى النفس وطغيانها ولهذا يسمى العقل المانع للقبائح.

الحلم صفة عقلية:

الحلم: ضبط النفس والطبع عن هيجان الغضب وجمعه أحلام، قيل معناه عقولهم، وليس الحلم في الحقيقة هو العقل ولكن فسروه بذلك لكونه من مسببات العقل⁽³⁾، قال تعالى:

○ قال تعالى: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَآغُوتٌ﴾ الطور/32.

¹ - المفردات في غريب القرآن للأصفهاني، ص 116.

² - أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن للشنقيطي، ص 2114.

³ - مفردات في غريب القرآن للأصفهاني، ص 136.

أي: أهذا التكذيب لك «يا محمد» والأقوال التي قالوها، هل صدرت عن عقولهم وأحلامهم؟ فيبئس العقول والأحلام التي أثرت ما أثرت وصدر منها ما صدر؟⁽¹⁾.

وقيل لعمر بن العاص: ((ما بال قومك لم يؤمنوا وقد وصفهم الله بالعقل؟ فقال: تلك عقول كادها الله، أي لم يصحبها بالتوفيق)).

وقيل: ((أحلامهم أي - أذهانهم، لأن العقل لا يعطى للكافر ولو له عقل لأمن، إنما يعطى الكافر الذهن فصار عليه حجة، والذهن يقبل العلم جملة، والعقل يميز العلم ويقدر المقادير لحدود الأمر والنهي))⁽²⁾، قال رسول الله ﷺ: «ليني منكم أولو الأحلام والنهي ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»، وما ذلك إلا ليعقلوا عنه ما يقول صلوات الله عليه وسلامه.

﴿وَأَصْلَحَ بِأَلْهَمٍ﴾ محمد/2، أي أصلح الله شأنهم وحالهم وفكرهم، أي أصلح الله ذهنهم وعقولهم.

فالعقل يقوم بإجراء فعلي في زجر ووعظ وضبط واجتتاب ونهي وحجر النفس عن كل فعل مستقبح من الرذائل مقروناً بالتخويف من غضب الله وعقابه، ليتذكر العبد بترك المنكر وفعل الخير، فيما يرق له القلب هذا هو العقل الذي أوعى وأدرك وفهم التجارب والمعرفة وميز وفكر.

عندها تبدأ تتبلور إرادة المؤمن بالعزم لأخذ القرار كالقول الطيب والعمل الصالح فتعالوا معاً نسأل:

¹ - التيسير الكريم للسعدي، ص828.

² - جامع علوم القرآن للقرطبي، ج3، المجلد التاسع، ص48.

- ماذا تعني الإرادة الإنسانية؟
- ما الفرق بين إرادة ومشية الله وإرادة الإنسان؟
- ما الفرق بين إرادة الخير وإرادة الشر ولماذا هذا الصراع؟
- كيف للمؤمن العاقل أن يُعَبِّدَ إرادته ومشيته لرب العقول؟

تعالوا معاً نقرأ العقل وصراع الإرادات.....

العقل وصراع الإرادات

«إرادتك من صنع أفكارك»

خمس الله عز وجل الإنسان بالتحكم في إرادته والقدرة على توجيهها تخييراً إما باتجاه إرادة البناء والترقي لتصل بصاحبها إلى الطريق المستقيم وجنه عرضها السموات والأرض، وإما باتجاه إرادة الهدم والانحدار لتصل بصاحبها إلى الهاوية، وسعي الإنسان وعمله وكفاحه في هذه الحياة يقع على عاتقه ومسؤوليته لأنه إنسان مخير لا مسير.

فيا ابن آدم هي خريطة مرسومة، لك أن تختار الطريق والسبيل وتسعى إما شاكراً مؤمناً، وعندئذ تكون قد حققت الغاية والهدف من وجودك على هذه الأرض بالإيمان بالله والشكر على نعمه، وإما جاحداً كافراً قال تعالى:

○ ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ الإنسان/3.

فلو كان الإنسان مجبراً على طاعة الله لبطل الثواب ولا حاجة لآيات الثواب في القرآن ولو كان مجبراً على أعماله، فلا حاجة لآيات الأمر والنهي في القرآن ولو كان مجبراً على المعصية لبطل العقاب ولا حاجة لآيات العقاب في القرآن ولا للجنة ولا للنار.

فبكل وضوح الأوامر والنواهي والثواب والعقاب تؤكد أن الإنسان له حرية الاختيار وحكمة وجود يوم القيامة هو للحساب على الأعمال التي قام بها الإنسان لأنه يملك إرادة يتحكم بها، ومكلف بالتكاليف الشرعية. هو يعرف نفسه ويعرف ما يريد وكيف يريد، والقرار قراره.

○ قال تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدِمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ الانفطار/5.

○ ﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ 14 ﴿وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ﴾ القيامة/14-15.

وسعى الإنسان في هذه الحياة باتجاهات مختلفة حسب إرادته ومشيتته:

○ ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى﴾ الليل/4.

أعمالكم منكم واليكم من سعيكم واختياركم ومسؤوليتكم، وسوف تحاسبون عليها ولكم الجزاء.

ويروى عن الحسن البصري رحمة الله أنه قال:

((من حمل ذنبه على ربه فقد فجر، إن الله لا يطاع استكراهاً ولا يعصى بغلبة، فإن عمل الناس بالطاعة، لم يحل بينهم وبين ما عملوا، وإن عملوا بالمعصية فليس هو الذي أجبرهم على ذلك، ولو أجبر الله الخلق على الطاعة لأسقط عنهم الثواب ولو أجبرهم على المعصية لأسقط عنهم العقاب ولو أهملهم لكان ذلك عجزاً في القدرة، فإن عملوا بالطاعة فله المنة عليهم، وإن عملوا بالمعصية فله الحجة عليهم))⁽¹⁾.

¹ - د. راتب النابلسي: نظرات في الإسلام، ص 48.

لكن مشيئة الله هي العليا النافذة الحاكمة العادلة فهو أعلم بعباده يعلم من كان من أهل النار، فهو من أهل النار، وسيعمل هذا الإنسان بعمل أهل النار في الدنيا، فيكون من أهل الشقاوة ومن كان من أهل السعادة، فيعمل في هذه الدنيا بعمل أهل الجنة:

○ قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ﴿5﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴿6﴾ فَسَنِّيْسِرُهُ لِلْيُسْرَى ﴿7﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ﴿8﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ﴿9﴾ فَسَنِّيْسِرُهُ لِلْعُسْرَى﴾ السيل/5-10.

○ قال رسول الله ﷺ: ﴿اعْمَلُوا، فكلَّ ميسر، أمَّا أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة، وأمَّا أهل الشقاوة فييسرون لعمل أهل الشقاوة﴾⁽¹⁾. والآيات في هذا المعنى كثيرة الدالة على أن الله عز وجل يجازي من قصد الخير بالتوفيق له ومن قصد الشر بالخذلان وكل ذلك بقدر مقدر⁽²⁾.

○ قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ الإنسان/29. أي عليم بمن يستحق الهداية فييسرها له ويقيض لها أسبابها، ومن يستحق الغواية فيصرفه عن الهدى وله الحكمة البالغة، والحجة الدامغة⁽³⁾. وجميع الأمور والأفعال معلقة وموقوفة على المشيئة الإلهية لهذا أجمع، على تعليق الاستثناء بمشيئة الله عز وجل على جميع أفعالنا نحو:

¹ - رواه مسلم برقم/2647.

² - لنين منظومتنا الأخلاقية لـ د. ماهر بايزيد، ص 61 - 62.

³ - مختصر تفسير ابن كثير، ج3، ص582.

- ﴿قَالَ سَتَجِدُنِي إِِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ الكهف/69.
 - ﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ﴾ هود/33.
 - ﴿ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾ يوسف/99.
 - ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ الأعراف/188.
- والمشيئة من الله تعالى هي الإيجاد، ومن الناس هي الإصابة:
- ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ التكويد/29.
 - والله عز وجل وصف نفسه وقال: ﴿فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ البروج/16.
- أين إرادة الإنسان؟ ما هي الإرادة؟

- الإرادة هي السعي في طلب الشيء ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى﴾ الليل/4.
- والإرادة في الأصل قوة مركبة من شهوة وحاجة (ميل) ورغبة (أمل)، وجعل اسماً لنزوغ النفس إلى الشيء مع الحكم فيه بأنه ينبغي أن يفعل أو لا يفعل⁽¹⁾.
- ثلاث بواعث تحفز الإنسان إلى إرادة السعي في طلب الشيء:
- 1- باعث الشهوة أو اللذة (الشعور بالحب) يأتي من خاطرة أو حديث نفس.
 - 2- باعث الحاجة أو الدافع أو الميل وهنا تتشكل صورة ذهنية كفكرة تدفعه بين ميل لعمله أو ميل يصدده عن العمل.

¹ - أبو القاسم الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني: مفردات غريب القرآن، ص212.

3- باعث (الرغبة لأحد الميلين): وهي مرحلة يتدافع فيها أحد الميلين على الآخر، لنقل ميل إيجابي وميل سلبي إلى أن تسيطر الرغبة لأحد الميلين وهنا الدور للعقل في اختياره وتفضيله.

فيأتي العزم والتصميم وأخذ القرار على العمل به وهنا ملاحظة هامة يجب أن نميز بين الإرادة ومجرد الرغبة.

فالرغبة سيطرة ميل على الآخر مثلاً: تمنى الخير وليس عمله، والإرادة هي نتيجة حتمية لتبلور فكرة ما في عقل صاحبها يسعى لتنفيذها بعد اختيارها وتفضيلها، فالتفكير في الشيء يسبق العمل به حتماً.

وقد يكون باعث الرغبة الميل للأمر السيئة من مكر ومؤامرات وخذع، فيكون شرود العقل في أعلى مستوياته، فإن لم يضبط وهذا ما نلاحظه اليوم عموماً من تقديم الرغبة بدون ضابطها العقلي.

إذاً فأصل كل فعل أو حركة من الحب والإرادة فهما مبدأ لجميع الأفعال والحركات كما أن مبدأ كل ترك وكف، وخاصية العقل التمييز بين مراتب المحبوبات والمكروهات، بقوة العلم والتمييز⁽¹⁾.

هذه الإرادة لعمل ما، أو فعل أو قول لا تظهر قبل عملية استحكام القصد الذي هو نية القصد.

فإذا استحكم القصد «النية» صار «عزماً» جازماً و«العزم» هي عقد القلب العقلي على إمضاء الأمر، مع ملاحظة هامة العزم والعزيمة على فعل الشيء،

¹ - ابن القيم: إغاثة اللهفان من مكائد الشيطان، ص 419.

ليس بمنزلة فعله، قال تعالى: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا﴾ الكهف/69، فوطئ نفسه على الصبر ولم يفعل.

لذا يقال عزمت الأمر على فعله وإمضائه لكن نجاحه وقبوله يعتمد على التوكل على الله.

○ قال تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾

آل عمران/159.

إذا العزم هو أخذ القرار لإرادة الفعل والعمل وإمضاء الرأي وعدم التردد بعد تبين السداد وتأتي بمحل الهم أي ما هممت به في نفسك.

قال الحسن البصري يرحمه الله: ((رحم الله عبداً وقف عند همه، فإن كان لله مضي، وإن كان لغيره تأخر))، وهنا أمر هام أن نقدّم المشيئة في كل فعل وعمل بالمشيئة الإلهية، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لشيءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا﴾ 23 ﴿إِنَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ الكهف/23-24 .

يقول ابن منظور في معنى الإرادة: ((معنى يتعلق بالجانب العقلي، والمراد به التفضيل والاختيار))⁽¹⁾.

هذا التفضيل والاختيار غاية من الغايات المتصارعة فالإرادة هي العزم على العمل أو الفعل أو القول وهي المحرك للسلوك الإنساني القولي والفعل.

وبما أن الإرادة تصدر عن مرتبة سامية ورفيعة هي مرتبة العقل، «لأن الإرادة من صفات العقلاء»، فهي تتعارض مع الغريزة أو الشهوة وإن كان لهما أثر كبير في إقناع العقل باختيار ما تدعو إليه، وتزین ذلك له باعتباره مصلحة للإنسان،

¹ - قاموس المحيط مادة (أراد).

والحاصل أن الإرادة تكمن خلف جميع النشاطات الإنسانية، لكون جميع تلك النشاطات صادرة عن اختيار العقل لها وتلك هي الإرادة، والهمة هي مستوى عال من الإرادة التي تواجه العقبات الكبيرة بالثبات والصمود، وهذه الإرادة من شأنها أن تنهض بالإنسان إلى معالي الأمور، ويوصل بها إلى مراتب الصابرين المجاهدين.

○ قال تعالى: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾

البقرة/45.

معظم الفضائل ملاكها الصبر، والفضائل تنبعث عن مكارم الأخلاق والمكارم راجعة إلى قوة الإرادة، فمن كانت له إرادة قوية وهمة عالية سعى وراء عاليات الأمور واشتاق نفسه للحصول على الكمال^(١).

وكل الناس تسعى فمن كانت غايته ونهاية مطلبه هو الله وحده وعبادته ومعرفة وتطبيق شرعه كان عمله مقبولاً ويؤجر عليه.

لذا كانت النية هامة قال رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَّا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَهَجَرْتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا، أَوْ امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا فَهَجَرْتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهَا﴾^(٢).

الأعمال بالنيات:

أي كمال الأعمال وصحة الأعمال بما ينويه الإنسان فالله سبحانه وتعالى لا يجازي على العمل، فحسب، بل على قصد الإنسان ونيته، من خير أو شر، فمن

¹ - عبد العزيز بن سالم شامان الرويلي: الهمة في ضوء القرآن الكريم، ص 40 - 41.

² - رواه البخاري رقم 1.

قصد بهجرته نصر الدين أثابه الله ومن قصد النكاح أو تجارة الدنيا، حرم أجر المهاجرين^(١).

قال الإمام النووي: ((النية القصد، وهي عزيمة القلب، وقد يتسرب إلى النية بعض الشوائب، ومهمة الإخلاص هي تخليص النية مما تسرب إليها من الشوائب، والإخلاص يضاده الإشراف ولهذا من كان غرضه محض التقرب إلى الله تعالى فهو مخلص، والخالص هو الذي لا باعث عليه إلا طلب القرب من الله تعالى، فالعمل بغير نية عناء، والنية بغير الإخلاص رياء، وهو للنفاق كفاء، ومع العصيان سواء، والإخلاص من غير صدق وتحقيق هباء))^(٢).

ومصدقاً لقوله عز وجل:

○ ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنَّ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾ الفرقان/23.

○ قال رسول الله ﷺ: ﴿أَخْلَصَ نِيَّتِكَ، يَكْفِيكَ الْعَمَلُ الْقَلِيلُ﴾^(٣).

هنا لا بد من التفريق بين الإرادات!

هذا التفريق يعتمد اعتماداً كلياً على محتوى القلب وما وعى واختيار العقل، وبما أن العقل وهو مركز الإرادة الإنسانية فضلاحه صلاح إرادته وفساده فساد إرادته، فالإرادة هي المحرك الداخلي للإنسان فكلما دفعت بقوة العزيمة والإصرار على تنفيذ عمل ما تسمى (الإرادة المانحة) والعكس صحيح تسمى (الإرادة الكابحة) أو المانعة فهنا الذي يسيطر على هذه القوى، إما بواعث الخير أو الشر في قلب

¹ - من شرح رياض الصالحين لـ النووي، تعليق الصابوني.

² - أحياء علوم الدين للإمام الغزالي، ص 1725 وص 1744-1745، ج2، طبعة دار السلام.

³ - رواه الحاكم.

الإنسان فإن طغت بواعث الخير فيه انبثقت قوة عظيمة في داخله وعزيمة يمضيها العقل وإرادة على عمل الخير والبر هو صوت الخير لتحقيقه بإخلاص النية، والعكس صحيح، هناك قوة إرادية سلبية مانعة لعمل الخير، محبة لعمل الشر قوة صلبة صارمة، شيطانية نتيجة طغيان بواعث الشر في قلب هذا الإنسان فتحركها أهواؤه وشهواته فتكون عندئذ جميع صفات وخصائص العقل معطلة لضعف النور الإيماني لهذا الإنسان.

فتكون لمة الشر قد قويت لقوة بواعثها اللاهية وسيطرة الهوى، عندئذ يصدر هذا الإنسان إرادة مانعة لعمل الخير، شغوفة لعمل القبائح والمعاصي وهو صوت الشر، هؤلاء لا أخلاق لهم والخلق السوء يفسد العمل كما يفسد الخل العسل وهذا ما أكده رسول الله ﷺ:

○ ﴿ فِي الْقَلْبِ لِمَتَانِ لِمَةٌ مِنْ الْمَلِكِ يُعَادِ بِالْخَيْرِ وَتَصْدِيقٌ بِالْحَقِّ فَمَنْ وَجَدَ ذَلِكَ فَلْيَعْلَمْ أَنَّهُ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَلِيَحْمَدِ اللَّهَ وَلِمَّةَ الْعَدُوِّ وَيُعَادِ بِالشَّرِّ وَتَكْذِيبٌ بِالْحَقِّ وَالنَّهْيُ عَنِ الْخَيْرِ فَمَنْ وَجَدَ ذَلِكَ فَلْيَسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾⁽¹⁾.

○ ثم تلا قوله تعالى: ﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ البقرة/268.

○ وقال ﷺ: ﴿ أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ ﴾⁽²⁾، والقلب أمير البدن، وبصلاح

الأمير تصلح الرعية، وبفساده تفسد.

¹ - أخرجه الترمذي، وحسنه.

² - رواه مسلم برقم/1599.

يَنْبُعُ أصل فعل الخير للمؤمن من محبة الله ورسوله وإرادته المانحة للعطاء الإيجابي، والبغض والكرهية لله عز وجل مبدأ كل ترك لكل ما نهى الله عز وجل ورسوله عنه.

فيرتحل الشيطان وبواعثه ووسوسته ويضيق المكان عليه فالمؤمن عندها يصرف شهواته ويضعها بما يريد الله عز وجل شهوة النساء حولها إلى زواج صالح، فأعمال العقل أدى لدفع وزجر ونهى وحجر أهواء النفس فقيدها بذكر الله والتمسك بأوامر الله وهذه هي حالة مجاهدة النفس وهي أفضل الجهاد. هذه المعركة بين بواعث الخير والشر في القلب هي معركة صراع الإرادات.

فإرادة فعل الخير هي إرادة قوية تحمل همة وعزيمة عالية يقودها الإنسان المؤمن الذي يملك قلباً مملوءاً بالإيمان ويحرسه عقلٌ سليمٌ يشع نوراً ويبصر به لأن عقله ضبط النفس وهواها وضبط شهوات الجوارح فمنزلة التقوى شرف العقل وبه يصطبغ المرء بإرادة الخير فتقوى السلوكيات المحيية لله ورسوله ﷺ وتخدم السلوكيات السيئة.

إنها صراع الإرادات إنها صراع افعل أو لا تفعل تتصارع في هذا القلب فمن كان نور إيمانه قوياً كان نور عقله ناضجاً وحارساً للنفس البشرية كان عمله صالحاً هي علاقة السبب والنتيجة، فالأعمال الصالحة تسمى معروفاً لأن فطرة الإنسان عرفت ابتداءً والأعمال السيئة تسمى الأفعال المنكرة لأن الفطرة نكرته ابتداءً.

فتظهر إرادة أمره بالمعروف ناهية عن المنكر، هي سر النجاح والسعادة في الدنيا والآخرة كإرادة العطاء والصفح وجبر الخواطر والإنفاق.

إنهم عباد الله الذين أصروا على العمل الصالح لأنفسهم وللآخرين يصلحون ذات البين... يمشون بحاجة الآخرين إنهم في دار تكليف، فهم دائماً يتحرون الخير

والخير أصبح عادة عندهم، والإرادة العقلية لها ثلاث مراتب، قال رسول الله ﷺ في الحديث الصحيح: ﴿مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ﴾^(١).

○ وعنه ﷺ قال: ﴿إِنَّمَا الْعِلْمُ بِالْتَعَلُّمِ وَالْحِلْمُ بِالْتَحَلُّمِ، وَمَنْ يَتَحَرَّ الْخَيْرَ يُعْطِهِ وَمَنْ يَتَّقِ الشَّرَّ يُوقَهُ﴾^(٢).

هؤلاء الذين أحسنوا التصرف وتدبروا أحكام الله يملكون الرشد لذا سمي إحسان التصرف عقلاً، كما قال تعالى:

○ ﴿مَنْ عَمَلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ فصلت/46.

لقد أحسنوا لأنفسهم أولاً فضبطوا إرادتهم بالاستسلام لله عزّ وجلّ ولأوامره فكان اختيارهم للمنهج الإلهي والالتزام به أثراً عظيماً في حياتهم فصقلت نفوسهم بالقيم السليمة، وارتفعت فيهم قيمة الكرامة والعزة والنخوة لأنهم استجابوا لله عزّ وجلّ ولرسوله فكانوا مثال يحتذى بهم كخلفاء الله في الأرض.

○ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَعَلِّمُوا أَنْ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ الأنفال/24.

هنا تكمن كمال العبودية فأشدهم ذلاً وخضوعاً واستسلاماً وطاعة وانقياداً وحباً لأوامر الله عزّ وجلّ وأشدهم ورعاً وتعقلاً في حياتهم وتكون إرادة ومشية المؤمن تصب فيما أمره الله عزّ وجلّ ورسوله ﷺ في تنفيذ العبودية إلى نهاية حياته:

¹ - رواه مسلم.

² - رواه الدار قطني.

○ ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ الحجر/99.

وعليه تكون عبادة غير الله تعالى من أعظم المحرمات التي حرمها الله تعالى على عباده:

○ ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ الأنعام/51.

فانظر رعاك الله بين المسلم الذي أسلم إرادته ومشيتته طوعاً وحباً لله عز وجل وبين الجاهل الكافر الذي جعل لله نداً.

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: ﴿قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ... أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمَ عِنْدَ اللَّهِ؟ قَالَ: "أَنَّ تَجْعَلَ لِلَّهِ نداً وَهُوَ خَالِقُكَ"﴾^(١).

ولذلك جاء في الحديث السبعة الذين يظلمهم الله يوم لا ظل إلا ظله:

﴿وَرَجُلٌ دَعَا امْرَأَةً ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ، فَقَالَ إِنَّ أَخَافِ لِلَّهِ﴾^(٢).

فالخوف والوجل من الله عز وجل تزيد تعقل المؤمن فتقل بواعث الشر لديه، وتزيد بواعث فعل الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يوصل صاحبه للنجاح في الدارين بإذن الله، قال تعالى: ﴿وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ آل عمران/104.

فالمنكر تنكره العقول وتنكره الشرائع لأنه بعيد عن الحياء والحياء شعبة من الإيمان، قال العلماء: ((حقيقة الحياء خُلِقَ يَبْعَثُ عَلَى تَرْكِ الْقَبِيحِ، وَيَمْنَعُ مِنَ التَّقْصِيرِ فِي حَقِّ الْحَقِّ)).

¹ - رواه البخاري برقم/1626.

² - رواه البخاري.

وأعظم الوصايا لكي تكون إرادة القولية للمؤمن العاقل منسجمة تماماً مع أوامر الله ورسوله ﷺ .

إدمان الذكر لله هي من أشرف العبادات وبه تنقى القلوب ويزداد خشوعاً وأعظم الكلمات التي تخرج من الفم وأطهر ما يمر بالخاطر من صور ذهنية للمؤمن العاقل وخير الأعمال القولية للمؤمن هو ذكر الله .

والله عز وجل لا يغلب على أمره، ولا ينال ما عنده إلا بإرادته ومشيتته، لهذا فالعاقل عقل ما يجب أن يعقل من الإيمان والتوحيد .

وهو الذي يعقل أوامر الله، وعبد عقله لرب العقول وعبده إرادته ومشيتته لرب العقول ولا يشاء العبد إلا بمشيئة الله وإرادته لأنه المعبود، فكل المخلوقين عباد الله لا يخرجون قيد أنملة عن إرادته ولا عن مشيئته .

○ ﴿إِنَّ كُلَّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِيَ الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ مريم/93 .

○ كلهم تحت حكمه ومشيتته وكلهم عبيد، قال تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبِغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ آل عمران/83 .

فالمسلم أقر بالألوهية لله فأخضع إرادته ومشيتته واستسلم لله حباً وطمعاً وهم أهل طاعته، وعبيد ألوهيته .

○ قال ﷺ : ﴿أَوْتَقَّ عُرَى الْإِيمَانِ الْحُبُّ فِي اللَّهِ وَالْبَغْضُ فِي اللَّهِ﴾^(١) .

○ ﴿مَنْ أَحَبَّ لِلَّهِ وَأَبْغَضَ لِلَّهِ وَأَعْطَى لِلَّهِ وَمَنَعَ لِلَّهِ فَقَدْ اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ﴾^(٢) .

¹ - رواه أحمد في مسنده .

² - رواه أبي داود برقم /4681 .

فإن الإيمان علم وعمل، والعمل ثمرة العلم، وهو نوعان: عمل القلب حباً وبغضاً، ويترتب عليهما عمل الجوارح فعلاً وتركاً وهما العطاء والمنع فإذا كانت هذه الأصول الأربعة لله تعالى، كان صاحبها مستكمل للإيمان، وما نقص منها فكان لغير الله، نقصت من إيمانه بحسبه⁽¹⁾، وهذا أسمى معاني العبادة لله عز وجل، وأصل العبادة وكمالها هو المحبة لله، وخير الأعمال وأزكاها ذكر الله عز وجل.

ولهذا كان الفرق بين رضى الله تعالى وحجته على عبد من عباده، فرضى الله عن عبده يبعده عن الحرام، أما محبته فتبعده الحرام عنه.

فالخوف والرجاء ممزوجة بالمحبة لله ورسوله تتبع من حسن معرفة الله عز وجل.

عن أبي الدرداء قال رسول الله ﷺ:

○ ﴿أَلَا أُنبِئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكُمْ، وَأَرْفَعُهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ، وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ إِنْفَاقِ الذَّهَبِ وَالْوَرَقِ، وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ فَتُضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ وَيُضْرَبُوا أَعْنَاقَكُمْ؟ قَالَ: بَلَى، قَالَ: ذَكَرَ اللَّهُ﴾⁽²⁾.

وهنا علينا أن نتدبر الحديث ملياً فالمجاهد في سبيل الله هو ذاك الله دائماً.

○ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ الأنفال/45.

¹ - ابن القيم: إغاثة اللهفان من مكائد الشيطان، ص420.

² - رواه أحمد في مسنده.

وكذلك الذي ينفق في سبيل الله هو ذاكِر في لسانه وينفق في يده أي المؤمن العاقل إرادته القولية دائماً مسبوقه بذكر الله ومترافقة إرادته الفعلية بأعمال الخير والبر.

روى عن معاذ بن جبل عن رسول الله ﷺ أن رجلاً سأل فقال: ﴿أَيُّ الْمَجَاهِدِينَ أَعْظَمَ أَجْرًا؟ قَالَ أَكْثَرُهُمْ لِلَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ذِكْرًا، قَالَ فَأَيُّ الصَّالِحِينَ أَعْظَمَ أَجْرًا؟ قَالَ أَكْثَرُهُمْ لِلَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ذِكْرًا، ثُمَّ ذَكَرَ الصَّلَاةَ وَالزَّكَاةَ وَالْحَجَّ وَالصَّدَقَةَ كُلَّ ذَلِكَ وَرَسُولَهُ ﷺ يَقُولُ: أَكْثَرُهُمْ لِلَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ذِكْرًا، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ لَعَمْرُ: يَا أَبَا حَفْصٍ، ذَهَبَ الذَّاكِرِينَ بِكُلِّ خَيْرٍ! فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَجَلٌ﴾^(١).

قيل لرسول الله ﷺ: ﴿أَيُّ النَّاسِ أَفْضَلُ قَالَ كُلُّ مَحْمُومٍ الْقَلْبَ صَدُوقُ اللِّسَانِ قَالُوا صَدُوقَ اللِّسَانِ نَعْرِفُهُ فَمَا مَحْمُومُ الْقَلْبِ قَالَ هُوَ التَّقِيُّ النَّقِيُّ لَا إِثْمَ فِيهِ وَلَا بَغْيٍ وَلَا غُلٌّ وَلَا حَسَدٌ﴾^(٢).

هذا هو ديننا أمرنا أن نفكر ونعمل ضمن إطار محكم من توجيهات وأوامر الشريعة والسنة الشريفة إنها العبادة التعاملية للفوز برضاء الله عز وجل وجنة عرضها السموات والأرض.

هذه التوجيهات الإيمانية بحاجة إلى عقل ضابط وضمير يقظ حي يرفض الدنيا وقبائح الأمور، ويحجر على تصرفات السوء ويحرس الحدود والحقوق، والعقل للإيمان كالبصر في الأبدان، فالإيمان ما وقر في القلب وصدقته الجوارح بالعمل لكن المظلة التي تحكم هذه العلاقات بين الإيمان والعمل هو الإحسان وهذا ما

¹ - رواه أحمد في مسنده.

² - رواه ابن ماجه في سننه برقم/3416.

سأله رسولنا ﷺ لجبريل... قال: ﴿فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِحْسَانِ؟﴾ قال: الْإِحْسَانُ أَنْ تُعْبَدَ اللَّهَ كَمَا أَنْتَ تَرَاهُ وَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَهُوَ يَرَاكَ ﴿^(١)﴾.

الإحسان فريضة مكتوبة في كل عمل نقوم به فهو أساس العبادات التعاملية مع الأهل، الأقارب، في العمل، في تربية الأولاد ومع الحيوان، مع النبات في كل مناحي الحياة، قال رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ ^(٢). وإتقان العمل هو أعظم الإحسان، ولهذا قيل: الناس أبناء ما يحسنون من الأفعال:

○ ﴿إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُحِبُّ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلًا أَنْ يُتْقِنَهُ﴾ ^(٣).

فإرادة العمل الطيب والنافع مرهونة بك يا صاحب العقل لديناك ولآخرتك:

○ ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِنَفْسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ الإسراء/7.

وطرق الإحسان كثيرة ولا يجيدها إلا أهل الهمة والعزم والصبر والله عز وجل دائماً مع المحسنين فلا يجربون إحسانهم لأحد.

○ قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ النحل/128.

○ قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾

العنكبوت/69، فهنياً من تكون إرادته وهمته على الطريق المستقيم.

اللهم لا تحجب إحسانك عنا بتقصيرنا، ولا تمنع عنا فضلك بغفلتنا، واجعلنا شاكرين لنعمك، راضين بقضائك متلذذين بذكرك، طامعين برضائك.

¹ - رواه البخاري رقم/50، جزء من الحديث.

² - رواه البخاري، جزء من الحديث.

³ - رواه مسلم.

○ قال تعالى: ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾
الحج/24.

تعالوا معاً نتابع....

منزلة التقوى نور العقل وشرفه

قَالَ ﷺ: ﴿أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْعَقْلَ، فَقَالَ لَهُ: أَقْبَلْ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: أَدْبِرْ، ثُمَّ قَالَ لَهُ عَزَّ وَجَلَّ: وَعَزَّتِي وَجَلَالِي مَا خَلَقْتُ أَكْرَمَ عَلَيَّ مِنْكَ، بِكَ آخِذٌ وَبِكَ أُعْطِي، وَبِكَ أُثِيبُ وَبِكَ أَعَاقِبُ﴾⁽¹⁾.

من مقاصد الشريعة (حفظ العقل) صونه وحمايته من المفسد والأفكار وكل العقائد الفاسدة التي قد تضر به.

وأهلية العقل لتحمل التكاليف الشرعية تعتمد على معايير عدة:

- قدرته على الفهم والاستيعاب والتركيز والتحليل والنقد والاستبصار.
- قدرته على الإدراك والوعي.
- قدرته على التمييز بين الحلال والحرام، والقبيح والحسن، أي له القدرة على استحسان الفضيلة واستقباح الرذيلة، والتمييز بين البدائل وأخذ الأفضل.
- قدرته على التحليل والتمحيص وفلترة كل ما يعرض عليه من أفكار وآراء.

¹ - أخرجه الطبراني في الأوسط.

- قدرته على ضبط الأمور، كقدرته على ترتيب الأولويات وتدوير الدوائر لحل المعضلات.
- قدرته على فهم الأحكام والأوامر الإلهية وتنفيذها .
- قدرته على: حسن التصرف بحكمة وروية ورشد .
- قدرته على الموازنة والحد من انفلات الهوى والشهوات.
- قدرته على اتخاذ القرار، وكثيرة هي المعايير، والعقل يحرس العلم والمعرفة والمعتقدات من الانفلات.
- قدرته على التكيف أمام المواقف، وإخراج صاحبه من المواقف الصعبة.

بهذه الأهلية العقلية أقام الله عزّ وجل على البالغين الحجة، ومن لا عقل له لا تكليف له، ونعمة الإسلام لا تتحقق إلا بنعمة العقل، وعن رسول الله ﷺ قال:

○ ﴿رَفَعُ الْقَلَمَ عَنْ ثَلَاثَةٍ: عَنِ النَّائِمِ حَتَّى يَسْتَيْقِظَ، وَعَنِ الصَّغِيرِ حَتَّى يُكْبِرَ، وَعَنِ الْمَجْنُونِ حَتَّى يَعْقِلَ﴾⁽¹⁾.

لهذا فتتمية العقل وإثارة شعلته يعتمد على اكتساب العلوم والمعارف وزيادة الخبرة والتجارب وأهمها على الإطلاق كتاب الله عزّ وجل وسنة رسوله وتدبر آياته وحفظه ((وشرف العلم من شرف معلومه، ولا أشرف ولا أفضل من العلم بالله وأسمائه وصفاته الواردة في كتابه العزيز وسنة رسوله الكريم ﷺ وكلما كان العبد عارفاً بربه محباً له قائماً بعبوديته ممتثلاً أمره مبتعداً عن نواهيه تحقق له بهذه المعرفة والعبودية اللتين هما غاية الخلق والأمر وكمال الإنسان وسموه المنشود:

¹ - سنن أبي داود رقم/4401/.

○ قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ فاطر/28^(١).

وهنا يمتزج ألوان قوس قزح في تشكيل وتآلق نور العقل وهو رأس الفضائل أولها نور من الله عز وجل يقذفه في قلوب العباد .

وثانيمها المعرفة فكلما زادت ازداد العقل نوراً وِعطاءً وخاصة معرفة الله وشرعه، وثالثها اكتساب التجارب والخبرات وصقلهما في مدرسة الحياة تعطي صاحبها وقاراً ورشاداً عقلياً، وهذا ما أكده الإمام علي كرم الله وجهه حيث قال:

بَابُ الْعَقْلِ عَقْلِيهِ فَمَطْبُوعٌ وَمَسْمُوعٌ
وَلَا يَنْفَعُ مَسْمُوعٌ إِذَا لَمْ يَكُ مَطْبُوعٌ
كَمَا لَا تَنْفَعُ الشَّمْسُ وَذُوهُ الْعَيْهِ مَمْنُوعٌ

والأول: هو المراد بقوله ﷺ: ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ خَلْقًا أَكْرَمَ عَلَيْهِ مِنَ الْعَقْلِ﴾^(٢).

والأخير: هو المراد بقوله ﷺ: ﴿إِذَا تَقَرَّبَ النَّاسُ بِأَبْوَابِ الْبِرِّ وَالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ فَتَقَرَّبَ أَنْتَ بِعَقْلِكَ﴾^(٣) و^(٤).

ومن خلال بحثي عن العقل تبين أن المؤمن ارتضى أن يعبد خالق هذا الكون عبودية محبة وود، عبودية خضوع، فهو يدرك بعقله أن عملية الامتناع عن كل المحظورات والنواهي لأجل محبة المعبود وعشقه تنسي العابد الضغط النفسي المتراكم جراء الحجب والمنع لأهواء النفس.

¹ - فقه الأسماء الحسنی لـ عبد الرزاق بدر في فضل العلم بأسماء الله تعالى.

² - أخرجه الطبراني في الأوسط جزء في الحديث.

³ - أخرجه أبو نعيم في الحلية/1-18.

⁴ - المفردات في غريب القرآن للأصفهاني، ص345.

لأنه يدرك ويميز الطريق الصحيح طالما هو يتجه بكل اهتمامه وعمله وسلوكه إلى خالق الكون فيربط عقله بعمله وفق المنقول من الشريعة.

وفي هذا البحث وتشعباته تبين أن منزلة التقوى تتناسب طردياً مع نور العقل أليست التقوى جعل النفس في وقاية مما نخاف ونحذر.

قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٍ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرْفٍ هَارٍ فَأَنْهَارُ بِهِ فِي نَارٍ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ التوبة/109.

أليس العاقل هو الذي يعقل نفسه مما يضرها، فيحفظ النفس عما يؤثم وذلك بترك المحظور وبعض المباحات لما روى عنه ﷺ: ﴿إِنَّ الْحَلَالَ بَيْنَ، وَإِنَّ الْحَرَامَ بَيْنَ، وَبَيْنَهُمَا مُشْتَبِهَاتٌ لَا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَمَنْ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعَرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ، كَالرَّاعِي يَرَعَى حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يَرْتَعَ فِيهِ، أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمَى، أَلَا وَإِنَّ حِمَى اللَّهِ مَحَارِمُهُ، أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ﴾⁽¹⁾.

ولهذا كان الثواب والعقاب مترتبان على الأمر والنهي، والأمر والنهي طلب العبادة وإرادتها وحقيقة العبادة امتثالها⁽²⁾.

فكلما كان المؤمن يسلك طريق التقوى كلما كان يرتقى بعقله ويسمو معه فيزداد نوراً مما يؤدي إلى تصحيح برمجة القلب بالكلية وفق دواعي الشريعة.

¹ - رواه البخاري برقم/52/.

² - ابن القيم: التفسير القيم، ص101.

فعندما تكون أعمالنا بنية خالصة لوجه الله تعالى تكون منزلة التقوى نور العقل قال تعالى:

○ ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾
فصلت/46.

فكلما كان المؤمن مخلصاً في عمله يتحرى الحلال والحرام وبيتعد عن الشبهات هو في حالة إعمال عقله لكي يحصل على أعلى مراتب التقوى والورع.

وعنه ﷺ قال: ﴿لَا يَبْلُغُ الْعَبْدُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُتَّقِينَ، حَتَّى يَدَعَ مَا لَأَ بَأْسَ بِهِ، حَذَرًا مِمَّا بِهِ بَأْسٌ﴾⁽¹⁾.

○ قال تعالى: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾
الأعراف/171.

ومجاهدة النفس هي مقدمة للهداية حيث قال تعالى:

○ ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ العنكبوت/69.

والتقوى أن تعمل بطاعة الله رجاء رحمة الله، على نور من الله، وأن تترك معصية الله، على نور من الله، تخاف عقاب الله.

أصل التقوى مأخوذ من اتقاء المكروه، مما تجعله حاجزاً بينك وبينه، فالمتقي: هو الذي يقي نفسه مما يضرها، وهو الذي يتقي عذاب الله بطاعته.

وجماع التقوى: أن يمثل العبد الأوامر، ويجتنب النواهي، والبر هو جماع الخير وسنام التقوى.

¹ - رواه الترمذي برقم/2451/وابن ماجه.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: ((المتقون هم الذين يتقون الشرك ويعملون بطاعة الله))^(١).

○ قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ الحجرات/13.

وقول الفضيل بن عياض رحمه الله: ((اتق الله فيما بقي من عمرك يفض الله لك ما قد مضى وما بقي من عمرك)).

((إن الفضل والكرم إنما هو بتقوى الله لا بغيره))^(٢)، ((والتقوى دائماً هي الدافع على كل خير، الرادع عن كل شر))^(٣)، وهو العقل المتوازن.

هنا يرتب القرآن الكريم قضية عقلية منهجية لأهل الأرض، وهذا حجة على العلمانيين الذين يعتقدون أنه كلما اتجه الإنسان للإيمان ابتعد عن العقل والفكر السليم هذه الآيات والأحاديث السابقة واللاحقة تدحض كل هذه الادعاءات الواهية وسوف ترى كلما مضيت في قراءة هذا الكتاب أنه يقربك إلى ربك وأنه لا يدعك تسأل إلا ويعطيك الإجابة.

ففعالوا معاً نتعرف على عشرات الثمار لإعمال العقل في حياتنا فلنبداً....

¹ - صفوة التفاسير للصابوني، ص 24-25.

² - أضواء البيان للشنقيطي، ص 1778.

³ - المرجع السابق، ص 1879.

ثمرات أعمال العقل في تعبيد العقول لرب العقول

القَاءُ الدَّيْمُ هو الدستور الأصيل للمؤمن فيه تبيان لكل شيء، يعلم المسلم حقوقه وواجباته اتجاه خالقه تعالى وتعامله مع الآخر.

○ قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ الحديد/9.

وعرف د. النابلسي العبادة: ((غاية الخضوع، وغاية الحب، غاية الاستسلام، طاعة طوعية ممزوجة بمحبة قلبية، أساسها معرفة يقينية، تفضي إلى سعادة أبدية، فيها جانب معرفي وجانب سلوكي، والجانب السلوكي هو الأصل، ولا يمكن أن نقطف من الدين شيئاً إن لم نستقم على أمر الله فالدين «بكلمة واحدة» هو الاستقامة)).

العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه، وهي تشمل مناحي الحياة كلها من الأعمال الظاهرة والباطنة، وتتطوي تحت عبادة الاستقامة لدين الله.

فالإسلام دين ودنيا، ولا سبيل لصلاح الدين والدنيا إلا باستقامة النفس وطهرها وتزكيتها لكي تتعد عن فاحشة الخنا ورجس الهوى، فتغلق أبواب الهوى وشهوات النفس، فتستسلم النفس لبارئها وتخضع لضابطها العقلي على الطريق المستقيم، فتكون هواها الله وحده، قال تعالى:

○ ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿162﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ الأنعام/162-163، لأن أولى مهام العقل التمييز بين البدائل وأخذ الأفضل.

الاستسلام المطلق لله ولأوامره ونواهيه وقضائه وقدره تبعث الحياة في قلوب المؤمنين فتسمو نفوسهم وتعقل عقولهم لأحكام الله، بهذا ترتبط الأعمال بالمعتقد الإيماني ارتباطاً طردياً، إن البعد الإيماني تتوضح أبعاده في الإيمان بالله واليوم الآخر والإيمان بالغيب حقيقة الإيمان: هو التصديق التام بما أخبر به الرسل، المتضمن انقياد الجوارح، وليس الشأن في الإيمان بالأشياء المشاهدة بالحس، فإنه لا يتميز بها المسلم من الكافر، إنما الشأن في الإيمان بالغيب، الذي لم نره ولم نشاهده، وإنما نؤمن به لخبر الله وخبر رسوله ﷺ.

فهذا الإيمان يتميز به المسلم عن الكافر، لأنه تصديق مجرد لله ورسوله، فالمؤمن يؤمن بكل ما أخبر الله به، أو أخبر به رسوله، سواء شاهده أم لم يشاهده، وسواء فهمه وعقله أم لم يهتد إليه عقله وفهمه، بخلاف الزنادقة المكذبين للأمور الغيبية، لأن عقولهم القاصرة المقصرة لم تهتد إليها.

فكذبوا بما لم يحيطوا بعلمه، ففسدت عقولهم، ومرجت أحلامهم، وزكت عقول المؤمنين المصدقين المهتدين بهدى الله، ويدخل الإيمان بالغيب، الإيمان بجميع ما

أخبر الله به من الغيوب الماضية والمستقبلية، وأحوال الآخرة، وحقائق أوصاف الله وكيفيةها، فيؤمنون بصفات الله ووجودها ويتيقنوها وإن لم يفهموا كيفيةها⁽¹⁾.

وهذا الاختلاف عظيم بيننا وبين اليهود الذين يعاندون الحق ويرفضون الغيبات ﴿أَرْنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾ النساء/153، فتأمل يردك الله، أليس الاستسلام للحق هو عين التواضع والتذلل وركنه الأهم: التواضع للدين، وهو أن لا يعارض بمعقول منقولاً ولا يتهم للدين دليلاً، ولا يرى إلى الخلاف سبيلاً.

و"التواضع للدين" هو الانقياد لما جاء به الرسول ﷺ، والاستسلام له، والإذعان، وكما قيل:

وكم من عائب قولاً صحيحاً وآفته من الفهم السقيم
ولكنه تأخذ الأذهان منه على قدر القرائح والفهوم

فالآفة من الذهن العليل، لا من نفس الدليل⁽²⁾، والسعادة الأبدية أن يلتزم الإنسان عتبة العبودية.

بهذا نفهم معنى الانقياد والتسليم وتعبيد العقول لرب العقول قمة الوعي والإدراك والفهم العقلي فتعالوا ندبر قول الصديق أبو بكر ﷺ حين قال: ((لئن كان قاله لقد صدق))، وكيف لا فهو أول من أسلم، فيعرف صدق رسالته وصدقه فكان التسليم تسليماً عقلانياً متبصراً بحقائق الأمور بتلقي خبره بالقبول والتصديق، دون أدنى شك أو ريبة، لم يلتفت إلى المخبر الذي أوصله خبر الحديث «الإسراء والمعراج» إنما حدد لئن كان ما قاله النبي ﷺ لقد صدق لأن من صفاته الصدق في القول والعمل، فلن يتعارض مع الدلالات العقلية مطلقاً، بهذا الاستسلام وانقياد النفس لأوامر الله ونواهيه ولسنة رسوله ترتقي وتسمو وتركى بدون شك ولا ريبة

¹ - تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي، ص28.

² - ابن القيم: تهذيب مدارج السالكين، ص385 - 386.

وعليه إذا تأملت في خطابات الشرع وجدت تأكيدها المستمر أن المقصود الأعظم من وضع الشريعة إخراج العبد من داعية هواه ليكون عبداً لله، وهو ما لا يكون إلا عبر قنطرة التسليم.

فمقصود الشريعة ابتلاء العباد بتطبيق الأحكام الشرعية عن طواعية وتسليم، وهو المقصد الذي يفضله عنه الكثير⁽¹⁾.

فالبداية معرفة الله وهي علة وجود الإنسان على الأرض فإن تعرف إليه سعى إلى تطبيق شريعته تعظيماً وإجلالاً لخالقه، ولا يتم إلا بتعظيم أوامره ونواهيه حباً وإذعائاً وتسليماً وانقياداً.

فتتشرب القلوب محبة الله لأنها حقيقة العبودية، قال تعالى:

○ ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ

غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ آل عمران/31، الحذر الحذر الاعتماد على عقلك، لا.. لا اعتمد أولاً وأخيراً على مسبب الأسباب والتوكل عليه ثم ابحث عما تريد.

فتعالوا نردد من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: ﴿كَانَ مِنْ دُعَاءِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ حُبَّكَ وَحُبَّ مَنْ يُحِبُّكَ، وَالْعَمَلَ الَّذِي يَبْلُغُنِي حُبَّكَ، اللَّهُمَّ اجْعَلْ حُبَّكَ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي وَأَهْلِي﴾⁽²⁾.

وإله العقول لدعو إلى محبة فاطرها من قريب

أليست على ذلك مجبولة ومفطورة لا بلسب غريب⁽³⁾

¹ - العجيري: ينبوع الغواية الفكرية، ص 86.

² - رواه الترمذي.

³ - ابن القيم: تهذيب مدارج السالكين، ص 461.

وحديث أن النبي ﷺ قال للحارث بن مالك: ﴿مَا أَنْتَ يَا حَارِثُ بَنُ مَالِكٍ قَالَ: مُؤْمِنٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ ! قَالَ: مُؤْمِنٌ حَقًّا ؟ قَالَ: مُؤْمِنٌ حَقًّا ! قَالَ: فَإِنَّ لِكُلِّ حَقٍّ حَقِيقَةً، فَمَا حَقِيقَةُ ذَلِكَ ؟ قَالَ: عَزَفْتُ نَفْسِي عَنِ الدُّنْيَا، وَأَسْهَرْتُ لَيْلِي، وَأَظْمَأْتُ نَهَارِي، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى عَرْشِ رَبِّي حِينَ يُجَاءُ بِهِ، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِنْ أَهَلَ الْجَنَّةَ يَتَزَاوَرُونَ فِيهَا، وَكَأَنِّي أَسْمَعُ عَوَاءَ أَهْلِ النَّارِ ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ مُؤْمِنٌ نُورٌ قَلْبِهِ﴾⁽¹⁾.

بداية الطريق شاققة لكن بالتعود تلين القلوب وتسكن فتحضع النفوس للذل والانكسار بين يديه، لأن هذه النفوس تسمو للأعلى كلما فهمت معنى ذل العبودية لله عز وجل، أليست الصلاة عمل ينبغي فيه قهر كل عذر، وترك البيع، وأعمال الدنيا، قال تعالى:

○ ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ البقرة/45.

إن النفس تهوى ما يضرها ولا ينفعها وهي ميالة إلى الأنا والاستعلاء فإن جهاد النفس أساس تعبيد العقول لرب العقول، أليس العقل ينهي النفس ويزجرها عن جنوحها.

قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾7﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾8﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾9﴿ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ الشمس/7-10 .

فالعبد يخضع وينكسر لذل العبودية لربه وهذا يتناسب طردأً مع عصيان العبد لهواه وهو عين مجاهدة النفس فيمتزج الخوف مع الرجاء والمحبة مع الطاعة عندها تتأل محبة الله عز وجل.

¹ - أبو بكر عبد الرزاق بن همام اليماني: المصنف - الأحاديث المنتخبة، دار ابن كثير، ص42.

ثمرة إعمال العقل وسيلة إجرائية للإصابة والساداد للوصول للحق وعدم التقليد الأعمى، فالعقل وسيلة إجرائية للنظر السليم والصحيح لتمييز الحق عن الباطل.

أصل الحق المطابقة والموافقة، والحقيقة تستعمل تارة في الشيء الذي له ثبات ووجود معه^(١).

والساداد: الصواب في القول والفعل^(٢)، أي الاستقامة ولا يتم إلا بتحديد الهدف والإصابة هو تركيز القصد لفعل محمود، فالعاقل عندما يركز لإصابة الحق بالقول والفعل فيأتي التقدير بالاجتهاد، وهو ما يسمى صوت العقل. والتقليد الأعمى هو أخطر دعامات الضلال قال تعالى:

○ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ البقرة/170.

أخبر تعالى عن حال المشركين، إذا أمروا باتباع ما أنزل الله على رسوله، رغبوا عن ذلك، فاكتفوا بتقليد الآباء، فأباؤهم أجهل الناس وأشدهم ضلالة، وهذه شبهة لرد الحق واهية، فهذا دليل على إعراضهم عن الحق ورغبتهم عنه، وعدم إنصافهم، فلو هدوا لرشدهم، وحسن قصدهم، لكان الحق هو القصد ومن جعل الحق قصده، ووازن بينه وبين غيره، تبين له الحق قطعاً، واتبعه إن كان منصفاً^(٣).

هنا نفى عن آباؤهم العقل، لأنهم لا يسمعون الحق ولا يفهمونه إنهم عمي لا يبصرون، توبيخاً لهم على عبادتهم الأصنام، قال تعالى:

○ ﴿أَفْ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ الأنبياء/67.

¹ - المفردات غريب القرآن للأصفهاني، ص133.

² - أحمد بن محمد الفيومي المقرئ: المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، ص172.

³ - تيسير كريم الرحمن للسعدي، ص71.

(أفلا تعقلون) استفهام استنكاري لغياب عقولهم وتفكيرهم عن قدرة الله وحكمته.
هنا التوبيخ والتقريع كان إجراءً عقلياً قولياً لينهي طريق الضلال للعودة
إلى طريق الهداية وعدم التسوية بين الحق والباطل.

ما أضلكم وأخسر صفقتكم! وما أخسكم أنتم وما عبدتم من دون الله! إن كنتم
تعقلون عرفتم هذه الحال، فلما عدتم العقل، وارتكبتم الجهل والضلال على
بصيرة، صارت البهائم أحسن حالاً منكم⁽¹⁾.

○ قال تعالى: ﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ
عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ يونس/16.

أفلا يعقلون إني حيث لم أتقوله في مدة عمري، ولا صدر مني ما يدل على ذلك،
فكيف أتقوله بعد ذلك، وقد لبثت فيكم عمراً طويلاً، تعرفون حقيقة حالي، بأني
أمي لا اقرأ ولا أكتب ولا أدرس ولا أتعلم من أحد؟.

فأتيتكم بكتاب عظيم أعجز الفصحاء، وأعيا العلماء، فهل يمكن «مع هذا» أن
يكون من تلقاء نفسي، أم هذا دليل قاطع أنه تنزيل من حكيم حميد؟.

فلو أعلمتم أفكاركم وعقولكم، وتدبرتم حالي وحال هذا الكتاب لجزمتكم جزءاً لا
يقبل الريب بصدقه، وأنه الحق الذي ليس بعده إلا الضلال، ولكن إذا أبيتم إلا
التكذيب والعناد، فأنتم لا شك أنكم ظالمون⁽²⁾.

¹ - المرجع السابق، ص 71-72.

² - المرجع السابق، ص 356.

البند الأول:

ثمرة إعمال العقل وسيلة

لحسن التصرف والإحسان للآخر

الرشد هو إلهام من الله عزّ وجل للمؤمن بتفكر وتمعن والنظر في عواقب الأمور فيوزن تصرفاته وكلامه وحركاته وفق وجدانه ووازعه الأخلاقي الديني فيدفع السيئة بالخصلة الأحسن، مثل أن تدفع الغضب بالصبر، والجهل بالحلم، والإساءة بالعفو، قال ابن عباس: ((ادفع بحلمك جهل من يجهل عليك))⁽¹⁾.

والرشد يستعمل استعمال الهداية، وعقل الرشيد أي أن يحسن الإنسان التصرف بالقول والعمل، لذا سمي حسن التصرف عقلاً لأن الإنسان عقل تصرفه فيما ينفعه.

○ والغواية ضد الرشد: ﴿وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ الأعراف/146.

ضمير المؤمن ووجدانه الذي يصدق في قلبه ويناديه لفعل الخير والإحسان إلى الآخر، وخير الناس من علا مثله واشتد شعوره ووجدانه، إن عدم التصرف بشكل لائق يدل على نقص في العقل «أي العقل الرشيد».

والعرف هو جزء من العادات الحسنة، وما كان بين الناس عرفاً أصبح كالمكتوب عقداً.

¹ - صفوة التفاسير للصابوني، ص1106.

فإن الحكم إذا عُلِقَ بوصف ازداد قوة بقوة ذلك الوصف، ونقص بنقص ذلك الوصف لأن العقل نتیجته حسن التصرف^(١)، والعقل يقوم بإجراء ذهني وحركي وسلوكي، قال تعالى:

○ ﴿إِنَّ الَّذِينَ ينادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ الحجرات/4.

أي أكثر هؤلاء غير عقلاء إذ أن العقل يقتضي حسن الأدب، ومراعاة العظماء عند خطابهم سيما لمن كان بهذا المنصب الخطير^(٢).
لأن الرعونة وسوء التصرف مع الآخر يؤدي إلى تنافر القلوب وزيادة الشحناء والبغضاء فينبغي للإنسان العاقل الرشيد أن لا يخطو خطوة إلا عرف أين يضع قدميه، وأن لا يتكلم أو يفعل فعلاً إلا عرف مسبقاً نتيجة عمله وقوله، قال النبي ﷺ: ﴿وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ﴾^(٣)، لأن أدب العبد عنوان عقله.

فالعقل الرشيد هو الذي يحسن التصرف ويحترز من التصرفات الرعناء فيتدبر الأمر بروية وفطنة، ويتبين مَكْمَنَ المشكلة لإيجاد أحسن الحلول وأفضل التصرف إزاء أي موقف يتعرض له.

والذي لا يحسن التصرف هو السفه لأن حقيقة السفه جهل الإنسان بمصالحه، فلا يحسن التصرف، ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ﴾ النساء/5.

وهنا ندخل في موضوع الإحسان وقد فسر النبي ﷺ الإحسان في حديث جبريل عليه السلام بقوله:

¹ - الشيخ محمد العثيمين: تفسير سورة البقرة، مجلد 1، ص 353.

² - تفسير صفوة التفاسير للصابوني، ص 1202.

³ - رواه البخاري برقم/6018.

○ ﴿الإِحْسَانُ أَنْ تُعْبَدَ اللَّهُ كَأَنَّكَ تَرَاهُ وَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَهُوَ يَرَاكَ﴾ .

○ قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَأَيُّتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ النحل/90.

فإن العدل هو المساواة في المكافأة إن خيراً فخير وإن شراً فشر أي لا يوجد مساواة بين المختلفات، والإحسان أن يقابل الخير بأكثر منه والشر بأقل منه^(١).

كقول علي كرم الله وجهه: ((العدل الإنصاف، والإحسان التفضل)).

فالإحسان زائد على العدل فتحري العدل واجب وتحري الإحسان ندب وتطوع، لذلك عظم الله تعالى ثواب المحسنين، هؤلاء هم أهل العقول الرشيدة:

○ ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ المائدة/13^(٢).

فأمرنا الله بالقول الحسن للناس وخص الوالدين بالقول والفعل قال تعالى:

○ ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ البقرة/83.

○ ﴿وَيَاوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ البقرة/83.

○ ومن الآيات التي جمع فيها بين العدل (الإنصاف) والتفضل بالإحسان قوله تعالى عز وجل: ﴿وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ الشورى/40.

○ فيها عدل ثم دعا إلى الإحسان بقوله عز وجل: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ الشورى/40.

¹ - المفردات في غريب القرآن للأصفهاني، ص 329.

² - المرجع السابق، ص 126.

○ قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ فصلت/34.

أي من أساء إليك فادفعه عنك بالإحسان إليه، كما قال عمر رضي الله عنه: ((ما عاقبت من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه))^(١).

قال ابن عباس: ((أمره الله تعالى في هذه الآية بالصبر عند الغضب، والحلم عند الجهل، والعفو عند الإساءة، فإذا فعل الناس ذلك عصمهم الله من الشيطان))^(٢). وأثبت علمياً أن الذي يعفو ويصفح عن الناس لا يحمل غلاً لأحد ويكون في حالة نفسية مستقرة، ومطمئن البال حيث وجد أن مادة الدوبامين «هرمون السعادة» والسيروتونين «هرمون الاكتئاب» كلما ارتفع تركيزه في الجسم، يشعر الإنسان بالطمأنينة وعدم الاكتئاب فتتغلق منافذ الشيطان، سبحان الله، قال تعالى:

○ ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ 133 ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ آل عمران/133-134.

هؤلاء أهل الإحسان نفوسهم طيبة كالشجرة الطيبة تعطي الظل لمن جلس بقربها وتشعره بالأمان وراحة البال، إنهم الكاظمون الغيظ والعافون عن الناس.

تعالوا نتوسع قليلاً حول «والكاظمين الغيظ».....

((الغيظ أشدُّ غضبٍ وهو الحرارة التي يجدها الإنسان من فوران دم قلبه))^(٣).

¹ - مختصر ابن كثير للصابوني، ج 3 ص 263.

² - الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، سورة فصلت المجلد الثامن ص 237.

³ - مفردات غريب القرآن للأصفهاني، ص 371.

والغضب «اصطلاحاً» تغير داخلي انفعالي في نفس الإنسان نتيجة الغيظ وما الغضب إلا نحول العقل، فإذا ضعف هجم جند الشيطان، وجاء في الأثر: سئل! إبليس أرني كيف تغلب ابن آدم! فقال أخذه عند الغضب، وعند الهوى والغيظ أعلى درجات الغضب، وعنه عليه السلام قال: ﴿الغضب يفسد الإيمان، كما يفسد الصبر العسل﴾⁽¹⁾.

فمن كان من أهل الرشد، يدرك أن عليه أن يقوم بإجراء سلوكي سريع لتخلي بالسكون والوقار ويصبر عند اعتراضه أي موقف يستدعي كظم الغيظ.

"والكظم احتباس النفسي ويعبر عن السكوت"⁽²⁾ وهو إجراء سلوكي لعمل العقل الرشيد وذلك بضبط النفس عن الانفعال السلبي وهذا لا يكون إلا لأهل الإيمان والتقوى، فغضوا عن أساء لهم واحتسبوا الأجر عند الله عز وجل.

عن أبي هريرة رضي الله عنه في قوله (والكاظمين الغيظ) أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ﴿مَنْ كَظَمَ غِيظًا وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَىٰ إِنْفَازِهِ مَلَأَ اللَّهُ جَوْفَهُ أَمْنًا وَإِيمَانًا﴾⁽³⁾

ليس عن ضعف بل يقدر على إنفاذه لكنه كظم وعفا عن عز ورفعة، قال صلى الله عليه وسلم: ﴿وَمَا زَادَ اللَّهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا، وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ﴾⁽⁴⁾.

¹ - أخرجه الطبراني في الكبير.

² - مفردات غريب القرآن للأصفهاني، ص 434.

³ - مختصر تفسير ابن كثير للصابوني، ج 1، ص 318.

⁴ - رواه مسلم برقم/2588.

بهذه الأخلاق الإسلامية من الإحسان والصفح وحسن التصرف
مع الآخر تسمو النفوس وتصبح مطمئنة لأنهم أهل الرشده فتعالوا ندع بدعاء
الرسول ﷺ:

﴿اللَّهُمَّ اهْدِنِي لِحَسَنِ الْخَلْقِ، فَإِنَّهُ لَا يَهْدِي لِأَحْسَنِهَا إِلَّا أَنْتَ، وَأَصْرِفْ عَنِّي
سَيِّئَهَا لَا يَصْرِفُ عَنِّي سَيِّئَهَا إِلَّا أَنْتَ﴾

وحسن التصرف يتطلب... مهارات ذاتية خاصة تعالوا معاً لنتحدث قليلاً عن
الفتنة والذكاء للخروج من المواقف الحرجة.

البند الثاني:

ثمرة إعمال العقل وسيلة إرشادية

للخروج من المواقف الحرجة بالفطنة والذكاء

الفطنة سرعة البديهة وعدم التغافل عما يجري حوله، وفطنة الرجل إذا صارت الفطنة له سجيةً فهو فطن وقالوا: ((ليس العاقل الذي إذا وقع في الأمر احتال عليه، ولكن العاقل يحتال للأمر حتى لا يقع فيه)).

قال معاوية لعمر بن العاص رضي الله عنهما: ((ما بلغ من عقلك؟ قال: ما دخلت في شيء قط إلا خرجت منه؟ فقال معاوية: لكن ما دخلت في شيء قط أريد الخروج منه))⁽¹⁾.

والدهاء هو الفطنة تعالوا نأخذ....

ويروى عن الحجاج أنه صعد المنبر مرة ليخطب الجمعة وقبل أن يشرع في الخطبة... انتقض وضوءه، وخشى الحجاج أن يعير بها، إن أخبرهم بانتقاض وضوءه، فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: ((بلغني أنكم لا تحسنون الوضوء، وقد نويت أن أعلمكم وضوء النبي محمد ﷺ، يا غلام... أتنتي بالطشت والماء لأعلمهم كيف كان الرسول ﷺ يتوضأ))⁽²⁾.

وتزداد فطنة وذكاء الرجل بزيادة التجارب وحنكة الدهر، قالت الحكماء: ((كفى بالتجارب تأديباً وبتقلب الأيام عظة، وقالوا كفى بالدهر مؤديباً، وبالعقل مرشداً)). وهذه حنكة الجارية:

¹ - أبو عمر أحمد بن محمد ابن عبد ربه: العقد الفريد، ج2، ص28.

² - منصور عبد الحكيم: الحجاج بن يوسف الثقفي - طاغية بني أمية، ص389.

• قال اعرابي: أدبتي جارية كانت تحمل طبقاً مغطى، فسألتها: ما في الطبق، قالت: ولم غطيناه؟...

• العاقل الفطن هو من يسامح ويعفو ويقدم خدماته لكن دون أن يجلس إلى مائدة من ألقاه يوماً في الجُب، لأن الرحمة لا تلغي الحكمة وتدبر عاقبة الأمور.

وقال آخر: ((أحاولت إرشادي؟ فعقلي مرشدي أم أسئمت تأديبي؟ فدهري مؤدبي))، وقال آخر:

وما أبقت لك الأيام عذراً وبالأيام يتعظ! اللبيب

وقالوا: ((كفى بالدهر مخبراً بما مضى عما بقي))^(١).

وأهل الفطنة هم أهل الحنكة يعرفون متى يصمتون وبماذا يتكلمون، لأن الذكاء الحقيقي يكمن في ما وراء الحدث وما وراء الأفعال والأقوال وخروج الكلمة من الفم.

قالت الحكماء: ((إياك وما يعتذر منه من عرض نفسه للتهمة فلا يأمن من أساءه الظن))، وقال امرؤ القيس: ((وجرح اللسان كجرح اليد))، وقال الأخطل: ((والقول ينفذ ما لا تنفذ الإبر))^(٢).

عُبر عن سرعة الإدراك وحِدَةِ الفهم بالذكاء، فالذكي سريع النظر وتحليل الأمور التي أمامه ويستتبط الحلول، والعقل ليس هو الذكاء، لأن العقل نتيجه حسن التصرف «وإن لم يكن الإنسان ذكياً»، والذكاء قوة الفطنة «وإن لم يكن الإنسان

¹ - ابن عبد ربه: العقد الفريد، ج2، ص170-171.

² - المرجع السابق، ج2، ص172.

عاقلاً»، وبهذا نقول: ليس كل ذكي عاقلاً، ولا كل عاقل ذكياً، لكن قد يجتمعان، وقد يرتفعان⁽¹⁾، فالشخص الذكي من صفاته سرعة الفهم لديه عالية.

¹ - تفسير سورة البقرة للشيخ محمد عثيمين، المجلد الثالث، ص353.

البند الثالث:

ثمرة إعمال العقل وسيلة

لإنتاج سلوك العطاء والإصلاح

عقلية العطاء عقلية سلوكية، يقابلها عند أهل الجهل عقلية الشح والإمساك وشتان بين العقلين.

عقلية العطاء: تؤمن بأن دائرة العطاء في توسع دائم وتشمل المحتاج لنصيحة أو لأمر مادي وتفاعلها إيجابي في المجتمع، غير منغلقة، هي في حالة توازن، هذه العقلية تدفع الآخر لبث روح التعاون والخير بين أبناء المجتمع، وتحمل طاقة إيجابية خلاقية محفزه، وهي صفات نخبة العقول.

يقول نبي الرحمة ﷺ: ﴿السَّاعِي عَلَى الْأَرْمَلَةِ وَالْمِسْكِينِ، كَأَلْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَوْ الْقَائِمِ اللَّيْلِ الصَّائِمِ النَّهَارِ﴾⁽¹⁾، هؤلاء أهل الرفق والعطاء وعنه ﷺ قال: ﴿مَنْ يَحْرُمُ الرَّفْقَ يُحْرِمِ الْخَيْرَ﴾⁽²⁾.

هؤلاء الناس لا يهمهم اللون ولا الفئة والطائفة، إنهم أهل العطاء والرفق وعنه ﷺ قال: ﴿مَنْ دَلَّ عَلَى خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ فَاعِلِهِ﴾⁽³⁾.

فملكة إرادة العمل الصالح والعطاء والإيثار بنية خالصة لله هي التي امتاز بها الإنسان العاقل عن البهائم، لأن البهائم واقفة على طباعها، لا تفهم عواقب فعلها،

¹ - رواه البخاري برقم/6006.

² - رواه مسلم برقم/2592.

³ - رواه البخاري برقم/6953.

ويا للأسف كثير من بني البشر انحرفوا بتصرفاتهم كالبهائم فركبهم هواهم وطبعهم فمالوا عن الحق وعاثوا في الأرض فساداً.

لكن المؤمن العاقل امتنع عن ذلك بقهر عقله لطبعه إنهم أهل العفو والصفح عن كل من أساء إليهم، لأن قلوبهم سليمة لا تحمل أي ضغينة لأحد، يبذلون المعروف، قال تعالى عز وجل:

○ ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ الأعراف/199.

هذا هو المؤمن العاقل مفتاح للخير ومغلاق للشّر وأجره على الله والتعود على عمل الخير، يصبح الخير عادة، فملكة فيه لأنه عرف حق الله عليه وحق القرابة والناس وواجبه اتجاههم، هذه هي سعادة العطاء.

○ قال ﷺ: ﴿وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَأَ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ حَتَّى تُسَلِّمُوا، وَلَا تُسَلِّمُوا حَتَّى تَحَابُّوا، وَأَقْسُوا السَّلَامَ تَحَابُّوا، وَإِيَّاكُمْ وَالْبِعْضَةَ، فَإِنَّهَا هِيَ الْحَالِقَةُ، لَأَ أَقُولُ لَكُمْ: تَحْلِقُ الشَّعْرَ، وَلَكِنْ تَحْلِقُ الدِّينَ﴾⁽¹⁾.

○ قال تعالى عز وجل: والإصلاح هو غاية الحياة الإنسانية: ﴿وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ الأنفال/1.

والصلاح ضد الفساد، والصلح يختص بإزالة النفاق بين الناس الصلح خير⁽²⁾:

○ ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوِيكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ الحجرات/10.

○ وعنه ﷺ قال: ﴿مَنْ دَلَّ عَلَى خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ فَاعِلِهِ﴾⁽³⁾.

¹ - أخرجه مسلم برقم/54.

² - مفردات غريب القرآن للأصفهاني، ص/288.

³ - أخرجه مسلم برقم/1893.

فهذه مهمة العقلاء الذين يحملون العقول الرشيدة في إصلاح التصدعات وتخفيف المشاكل بين الناس وجبر الخواطر، ولا يريدون شكراً ولا ثناء من أحد، وسيربحون مع رب البشر حياة مطمئنة طيبة في الدنيا وجنة عرضها السموات والأرض:

○ قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ النحل/97.

○ وعنه ﷺ: ﴿صِنَاعُ الْمَعْرُوفِ تَقِي مَصَارِعَ السُّوءِ﴾⁽¹⁾.

هذه عقلية الإصلاح عقلية تحاول الجمع بين المتخالفين، بين الزوجين، بين الأقارب، وعكسها عقلية واهية تحب الإفساد وإشعال نار الفتن بين الناس والأصحاب.

إنها عقلية شحيحة تعتقد أن عمل الخير والعطاء ينقص من مميزات صاحبها لأنه أناني فيعتقد بأن الخير كله له «أنا أولاً أحد» وبالتالي يكره نجاح الآخر، وتميزه، فلا يعطي أحداً من خبراته، لا معلومة ولا مساعدة ولا يحب التعاون مع الآخر، دائماً منطوياً على ذاته، قناص للأخذ، شحيح للعطاء هؤلاء تتنازعهم أنفسهم لحب الأنا، إنه خسيس النفس، أناني الهوى، أفكاره مغلقة على الأخذ لا العطاء، وكلما اقتنص شيئاً شعر بسعادة لا توصف، قلبه مملوء بالبغض والكراهية، وداعي الشيطان فيه عظيم يحثه على الإمساك وعدم الإنفاق ليس بالمال بل حتى بالكلمة، لأنه يملك مشقة العطاء ومشقة عمل المعروف، فشتان بين العقلين فأبي العقلين أصح؟.

¹ - رواه الطبراني.

إن الإجراء العقلي إجراء سلوكي اجتماعي لمصلحة المجتمع فتعالوا ندرس هذه الحالة.

○ قال تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ البقرة/44.

سمى العقل عقلاً لأنه يعقل به ما ينفعه من الخير، وينعقل به عما يضره، وذلك أن العقل يحث صاحبه أن يكون أول فاعل لما يأمر به، وأول تارك لما ينهى عنه، فمن أمر غيره بالخير ولم يفعله، أو نهاه عن الشر فلم يتركه دل على عدم عقله وجهله، خصوصاً إذا كان عالماً بذلك، قد قامت عليه الحجة، وهذه الآية وإن كانت نزلت في بني إسرائيل فهي عامة لكل أحد، لقوله تعالى:

○ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ 2 ﴿كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ الصف/3.

وليس في الآية أن الإنسان إذا لم يقم بما أمر به أن يترك الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، لأنها دلت على التوبيخ بالنسبة إلى الواجبين، وإلا فمن المعلوم أن على الإنسان واجبين: أمر غيره ونهيه وأمر نفسه ونهيها، فترك أحدهما لا يكون رخصة في ترك الآخر، فإن الكمال أن يقوم الإنسان بالواجبين، والنقص الكامل أن يتركهما، وأما قيامه بأحدهما دون الآخر، فليس في رتبة الأول، وهو دون الأخير، وأيضاً فإن النفوس مجبولة على عدم الانقياد لمن يخالف قوله فعلة فاقتداؤهم بالأفعال أبلغ من اقتدائهم بالأقوال المجردة⁽¹⁾.

فتعالوا معاً ندعُ بدعاء النبي ﷺ: ﴿اللَّهُمَّ أَصْلِحْ لِي دِينِي الَّذِي هُوَ عِصْمَةُ امْرِئِي وَأَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ﴾.

¹ - تيسير كريم الرحمن للسعدي، ص38.

تعالوا معاً ندرس ثمرة أخرى من ثمار إعمال العقل كوسيلة لإنتاج مهارات التواصل الإيجابي مع الآخر.

البند الرابع:

ثمرة إعمال العقل وسيلة

لإنتاج مهارات التواصل الإيجابي مع الآخر

إن المرتكزات الأساسية للتواصل مع الآخر بحاجة إلى حنكة وفطنة والعقل صانع الأفكار ووعاؤه.

ولكل عقل خصوصيته في طرح وتقبل الأفكار، وللعقل بوابته الخاصة للتواصل مع الآخر فمن استكشف البوابة، بها يُدخَل أفكاره ورسائله إلى عقل الآخر بتوخي الحيطة في إيصالها، فيتقبلها المتلقي بكل حب وبلغة يفهمها دون اقتحام قسري لبوابة عقله، ولا بطريقة غسل أفكاره مكرهاً، وعلى الطارق الاستئذان وطرق باب العقل بغاية اللطف والمودة وحنكة وحكمة وفطنة متحلياً بأدب الحوار، وحاملاً طاقة إيجابية مؤثرة على الآخر، شرط أن الطارق يتحلى بوعي وإدراك معرّف وموسوم بالتعقل وتدوير الزوايا لكي يستطيع إقناعه بأفكاره وأهدافه، دون تصادم وتقاطع بين الأفكار المترسخة للمتلقي وأفكار الطارق، فإذا كانت النية صادقة خالصة لله تعالى، فالله عزّ وجلّ يسهل عملية التواصل: وتظهر نتائجها الخيرة بإصلاح المفاسد، فتعالوا نفهم معنى التواصل والاتصال بين الناس وأساس الاتصال إيصال الكلمة إلى المخاطب وأساسها الكلمة الطيبة، لأن العلاقات ليست بالمدة وإنما بالمودة.

الاتصال اتحاد الأشياء بعضها ببعض كاتحاد طرفي الدائرة، ويضاد الانفصال.

وقوله عزّ وجلّ:

○ «وَلَقَدْ وَصَلْنَا لَهُمْ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ» القصص/51، موصولاً بعضه ببعض^(١).

والتواصل: تعني عدم التصارم، أي التقاطع، وما مفهوم صلة الرحم إلا اتحاد الأقارب وعدم التقاطع والتصارم بينهم.

وصلة الرحم أهم دائرة في بناء العلاقات الإنسانية، وجوهرها، تتوسع لتكبر الدائرة لتصل إلى أهل الحي، بل المجتمع بكامله.

لهذا الاتصال جانب سلوكي عقلي تعاملي حثنا القرآن الكريم ورسوله على اتباعه ألا وهو التواصل بين المؤمنين بالحق والإيلاف لكي يتحابوا، فالتواصل من الوصية التقدم إلى الغير بما يعمل به مقترناً بوعظ من قولهم وتواصل القوم إذا أوصى بعضهم إلى بعض، قال تعالى:

○ «وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ» العنكبوت/3^(٢). وتواصلوا: أي تحابوا^(٣). والمحبة لا تأتي إلا بالتآلف ومنه الإلف اجتماع مع التثام يقال الفت بينهم ومنه الألفة ويقال للمألوف إلف وألف:

○ قال تعالى: «فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ» آل عمران/103.

○ وقال تعالى: «وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ» الأنفال/63.

¹ - مفردات غريب القرآن للأصفهاني، ص 540.

² - المرجع السابق، ص 540.

³ - الجامع الأحكام القرآن للقرطبي، ج3، المجلد العاشر.

والمؤلف ما جمع من أجزاء مختلفة ورتب ترتيباً قدم فيه ما حقه أن يقدم وأخر فيه ما حقه أن يؤخر⁽¹⁾.

فمن يجمع قلوب العباد إلا الله بزيادة الرحمة والمحبة بينهم فعلياً نحن أن نتواصى ونتواصل بالمحبة والألفة ولكن! للأسف!!!.

نحن نعيش في زمن التقاطع والتصارم بين الأقارب، لا بل بين الإخوة والأخوات، والتقاطع والتصارم وصل لداخل العائلة الواحدة، الأب في واد والأم في واد آخر، والأولاد متصارمون يحملون الغل والحقد على بعضهم، تتافر في الآراء والأفكار... تتافر في القلوب والعقول!!!.

✓ كيف السبيل لإعادة الألفة والتواصل بين الناس؟!

✓ كيف السبيل لمد جسور المحبة مع الآخر؟.

✓ كيف السبيل لإقناع الآخر.

✓ كيف نمنع التصادم الفكري؟ تعالوا معاً لنبدأ.

فن الإقناع ومميزات المحاور:

إن فن الإقناع هو فن التعامل مع الآخر والتأثير به وإقناعه بوجهة نظر المحاور برضى تام شرط استخدام الإشارات والألفاظ والكلمات المؤثرة للتأثير على المتلقي لتغير بعض مفاهيمه وأفكاره مما يؤدي لتغير سلوكه وميله وقناعته بأدلة وبراهين واضحة يكون الطرف المقتنع راضياً عن هذا التغير.

إن فن الإقناع بحاجة لمحاور له مميزات تتوفر فيه النية الخالصة لله تعالى منها:

■ محاورٌ نبيه متميز بمهارات نفسية وعقلية وحركية ومعرفية.

¹ - مفردات غريب القرآن للأصفهاني، ص30.

- محاورٌ ماهرٌ ذو شخصية قيادية.
- محاورٌ يستطيع أن يؤثر على الآخر من البوابات المعرفية بالعين والسمع والنطق.
- محاورٌ متميز بالخبرات والتجارب سابقة والمعرفة الشاملة.
- محاورٌ يتصف بالهدوء والرؤية، ويحمل فراسة وحكمة عقلية لربط الأسباب والنتائج، ولربط العلة بالمعلول، ولإقتناص المتغيرات، ومسك خيوط التأثير لإقناع الآخر، عندها يبدأ الانسجام والاطمئنان يتغلغل في قلب وعقل المتأثر، بهذه العوامل يكون المحاور جاهزاً لإقناع الآخر للتواصل معه، فكيف يتم التواصل مع الآخرين؟.

يبدأ التواصل بشعور إيجابي وطاقاة إيجابية تفعل فعلها بين الطرفين إيداناً بالموافقة على قبول الآخر بطرق باب عقله والاستجابة له بفتح باب عقله ليقبل رسائله باهتمام فينصت إليه مستمعاً قال ﷺ: ﴿الْأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ﴾، لأن الانطباع الأول هو الأساس، وللأرواح لغة تتواصل فيما بينها بلا حواجز.

فالرسالة الأولى:

من المحاور للمتلقى إظهار ميزات الطيبة، وأنه يسمع من الناس يتكلمون عنه أنه ذو أخلاق عالية وطيبة، وأنه يحب الخير للآخر، وأنه من أهل الفكر الصائب، ورجاحة العقل، ويحمل شخصية متواضعة هذه الرسائل المختصرة ستؤثر على المتلقى تأثيراً إيجابياً فيشعر بالطمأنينة والارتياح النفسي، لأن طبيعة النفس الإنسانية تميل إلى الغرور الذاتي وحب الإطراء، وترفض جملة وتفصيلاً من يريد أن يعيبها وترفض النصيحة، بل قد تكون ردة فعل عكسية فتتنافر القلوب عندها تغلق بوابة العقل فيقاوم «يتصلب بأفكاره» بل يدافع عنها إعجاباً وزهواً بنفسه وأفكاره والنتيجة تكون تصادم لا تصالح، تقاطع لا اتصال بين المتصل والمتلقى.

لكن الفطنة والتعقل له دور هام:

○ وعنه ﷺ أنه قال: ﴿لَا طَيْرَ وَخَيْرَهَا أَلْفَالُ قَالُوا: وَمَا أَلْفَالُ؟ قَالَ: أَلِكَلِمَةِ الطَّيِّبَةِ يَسْمَعُهَا أَحَدُكُمْ﴾^(١).

○ قال رسول الله ﷺ: ﴿أَمَرْتُ أَنْ أَكَلَّمَ النَّاسَ عَلَى قَدْرِ عُقُولِهِمْ﴾^(٢).

فالتواصل مع الناس هي مهارة وفن وتعقل، لأن عقول الناس متفاوتة، والتعامل معها بحاجة إلى ذكاء وفطنة.

وروى عن ابن عباس رضيه الله عن النبي ﷺ أنه قال: ﴿لَا تُحَدِّثُوا أُمَّتِي مِنْ أَحَادِيثِي إِلَّا مَا تَحْمَلُهُ عُقُولُهُمْ، فَتَكُونَ فِتْنَةً عَلَيْهِمْ﴾^(٣)، فعلى قدر عقول الناس يكون التواصل والحوار معهم واليكم الأمثلة على ذلك.

رَوَى أَنَّ فَتَى شَابِئاً أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: ﴿يَا رَسُولَ اللَّهِ: انْذَنْ لِي بِالزَّيِّ، فَأَقْبَلَ الْقَوْمُ عَلَيْهِ فَزَجَرُوهُ، وَقَالُوا: مَهْ، فَقَالَ ﷺ: أَدْنُ، فَدَنَا مِنْهُ قَرِيباً فَجَلَسَ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَنْجِبْهُ لَأُمِّكَ؟ قَالَ: لَا وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ! جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاكَ، قَالَ: وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لَأُمَّهَاتِهِمْ، قَالَ: أَفْتَحِبُّهُ لَابْنَتِكَ؟ قَالَ: لَا وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاكَ، قَالَ: وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِبَنَاتِهِمْ، قَالَ: أَفْتَحِبُّهُ لِأَخْتِكَ، قَالَ: لَا وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاكَ، قَالَ: وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأَخْوَاتِهِمْ، قَالَ: أَفْتَحِبُّهُ لِعَمَّتِكَ؟ قَالَ: لَا وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاكَ، قَالَ: وَلَا النَّاسُ

¹ - رواه البخاري برقم/5753.

² - شهردار الديلمي: مسند الفردوس.

³ - رواه مسلم في الجامع الصحيح.

يُحِبُّونَهُ لِعِمَاتِهِمْ، قَالَ: أَفْتَحِبُّهُ لِحَالَتِكَ، قَالَ: لَأَ وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاكَ، قَالَ: وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِحَالَتِهِمْ ثُمَّ فَوَضَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدَهُ الشَّرِيفَةَ عَلَيْهِ، وَقَالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ ذَنْبَهُ، وَطَهِّرْ قَلْبَهُ، وَحَصِّنْ فَرْجَهُ فَلَمْ يَكُنِ الْفَتَى بَعْدَ ذَلِكَ يَلْتَفِتُ إِلَى شَيْءٍ مِنَ الْمَعَاصِي ﴿١﴾.

لننظر للحادثة بعقلانية شاب يسعى للمعصية لكن بالحجة والحوار العقلاني عرف أن هذا الطريق سيصل للفاحشة، هذا هو الأسلوب الراقي الجميل في إقناع الآخر وإيصال الفكرة الصائبة له وإزالة الفكرة المقتحمة السيئة لهذا الفتى، هكذا علينا أن نتعلم، أدب التواصل والإقناع من رسول البشرية محمد ﷺ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالكلمة الطيبة لا بالعصا ولا بحد السيف! والحديث يعلمنا كيف اقتنع الشاب وانجذب لمفاهيم رسول الله ﷺ برسائل الصور الذهنية التي عرضها بالموعظة الحسنة.

مثال عن التروي والحلم قصة الغامدية الحبلى من الزنى... اعترفت بذنبها... ردها رسول الله ﷺ حتى ولدت ثم جاءته بالصبي، فردها حتى ترضعه وتقطمه قبل تنفيذ حكم الله فيها.

مثال آخر على تمرير معلومة أو رسالة بطريقة استفهامية... سؤال وجوابه.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه: ﴿أَتَدْرُونَ مِنَ الْمُفْلِسِ؟ قَالُوا: مَنْ لَأَ دُرْهُمٌ لَهُ وَلَا مَتَاعٌ، قَالَ: الْمُفْلِسُ مَنْ يَأْتِي بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا وَقَذَفَ هَذَا وَأَكَلَ مَالَ هَذَا وَسَفَكَ دَمَ هَذَا وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطِي هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يَقْضِيَ مَا عَلَيْهِ أَخَذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطَرَحَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ طَرَحَ فِي النَّارِ﴾ (٢).

¹ - رواه الإمام أحمد في مسنده.

² - رواه مسلم برقم/2581.

بهذا الأسلوب الخطابى الاستفهامى الذى انتهجه رسول الأمة مع أصحابه آثار فىهم وحرص أبواب عقولهم لكى تعى وتدرى ما يقوله، إنه فن التواصل والإقناع بمهارة وحنكة وحكمة لإيصال المعلومة لهم.

مثال الرد على المستهزئين:

قال يهودى لعل بن أبى طالب كرم الله وجهه: ((ما لكم لم تلبثوا بعد نبيكم إلا خمس عشرة سنة حتى تقالتتم؟! قال على كرم الله وجهه: ولم أنتم لم تجف أقدامكم من البلبل حتى قلتتم: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ (الأعراف/138))⁽¹⁾.

فن التواصل الناجح مع الآخر هو إخلاص النية الصادقة بالأمر بالمعروف وفعل الخير دون تطليل وتزوير وكثرة كلام لإرضاء ذاته ومواهبه الشخصية، وأنه صاحب تأثير على الآخر ويملك شخصية قيادية، بل الارتقاء بمفهوم التواصل لكى ينتج حوار المصالحة، وتخفيف الضغوط وتقليل حدة العداوة والبغضاء، قال تعالى:

○ ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ
بَيْنَ النَّاسِ﴾ النساء/114.

فالتتمية البشرية ليست لتتمية الأنا وطغيانها بل يجب أن تكون التتمية حب الخير والعطاء بالقول والفعل وما أكثر المعاهد والقنوات التى تتحدث عن التتمية البشرية وشحن الإنسان بتضخيم الأنا وأن قيمته فى قيمة الأنا الداخلية، بل التتمية البشرية يجب أن تتجه إلى تتمية السلوك الأخلاقى للإنسان وبكل الاتجاهات.

¹ - الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل للزمخشري، ج2، ص141.

حذرنا رسول الله ﷺ من كثرة الكلام والثرثرة، والقيل والقال وكثرة العتاب ونصح الناس، والصمت إلا للخير: ﴿وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكَلِّمْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ﴾^(١).

نصيحة رسول الله ﷺ لأبي ذر رضي الله عنه قال:

﴿عَلَيْكَ بِالصَّمْتِ إِلَّا مِنْ خَيْرٍ، فَإِنَّهُ مُطْرِدَةٌ الشَّيْطَانِ عَنْكَ وَعَوْنٌ لَكَ عَلَى أَمْرِ دِينِكَ﴾^(٢).

حتى مع الآخر الذي يملك فكراً مغايراً لنا، أمرنا الله عز وجل بالمهادنة واللطف معه قال تعالى:

○ ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِنَّا بِالَّذِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ العنكبوت/46.

مثال عن التهاور وإقناع الآخر بالبينة والحجة والبرهان بالعقل المقارن كما فعل أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام في تحاوره مع من يعبدون غير الله، بالمنطق والتأثير العقلي:

○ ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ 76 ﴿فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لئن لم يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ 77 ﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ 78 ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ الأنعام/76-79.

¹ - رواه البخاري برقم/6018، جزء من الحديث.

² - رواه البخاري برقم/2240 و 5672.

فيا أيها العاقل حظك من الدعاء ليس في الإجابة لكن بالاتصال مع خالق السموات والأرض فلتجعل لك دعاء وورداً دائماً لكي يكون اتصالك دائم مع الله:

○ ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ البقرة/152، وتذق حلاوة مناجاته تكن مريداً وعارفاً بالله.

يقول ابن عطاء الله: ((يا من عاش وما عاش، تخرج من الدنيا وما ذقت أذ شيء منها، وهي مناجاة الحق سبحانه))⁽¹⁾.

والآن بعد أن تعرفنا على ثمرة إعمال العقل في فن التواصل مع الآخر نتابع ثمرة جديدة من ثمار إعمال العقل في قضية التحايل بأمور الدين.

تعالوا معاً نتابع....

¹ - ابن عطاء الله السكندري: تاج العروس الحاوي لتهذيب النفوس، ص492.

البند الخامس:

ثمرة إعمال العقل وسيلة للوقوف

على حدود الله وضبط التحايل في أمور الدين

تحليل الحلال وتحريم الحرام من حق الله وحده، وأي تلاعب بتحليل الحرام وتحريم الحلال هو اقتران بالشرك، وفي الحديث القدسي: ﴿إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ، وَأَنْهَمُ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ، فَاجْتَالَتْهُمُ عَنْ دِينِهِمْ، وَحُرِّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحَلَّلْتُ لَهُمْ وَأَمَرْتُهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أَنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾^(١).

لقد بين الله عز وجل الحلال، وأما الحرام ففصله تفصيلاً:

○ ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ الأنعام/119.

لأن الأصل في الأشياء الإباحة، وكل ما ورد من تحريم في كتاب الله فهو محرم:

○ ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ الأعراف/157.

○ وعنه ﷺ قال: ﴿إِنَّ الْحَلَالَ بَيْنَ، وَإِنَّ الْحَرَامَ بَيْنَ، وَبَيْنَهُمَا مُشْتَبَهَاتٌ لَا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَمَنْ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعَرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ، كَالرَّاعِي يَرَعَى حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يَرْتَعَ فِيهِ، أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمَى، أَلَا وَإِنَّ حِمَى اللَّهِ مَحَارِمُهُ، أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ﴾^(٢).

في الحديث النبوي يؤكد من أراد من المسلمين أن يتبرأ لدينه وعرضه عليه بالمتابرة على التقوى وتحصين النفس والحيطه والحذر فيترك شيئاً من الحلال خوفاً من

¹ - رواه مسلم.

² - رواه البخاري برقم/52.

ملامسة الحرام وعنه عليه السلام قال: ﴿لَا يَبْلُغُ الْعَبْدُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُتَّقِينَ حَتَّى يَدَعَ مَا لَا بَأْسَ بِهِ، حَذْرًا لِمَا بِهِ بَأْسٌ﴾^(١).

وقال الشافعي: ((جميع ما حكم به النبي صلى الله عليه وسلم فهو مما فهمه من القرآن ويؤيد هذا قوله صلى الله عليه وسلم عن عائشة أنه قال: ﴿إِنِّي لَأَ حَلَلٍ إِلَّا مَا أَحَلَّ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ وَلَا أُحْرَمُ إِلَّا مَا حَرَّمَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ﴾^(٢).

○ قال الله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ الحشر/7.

○ وعن أبي قلابة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿الْبِرُّ نَأْيٌ وَإِنَّمِ لَأَ يَنْسَى، وَالِدَيَّانُ لَأَ يَنَامُ، فَكُنْ كَمَا شِئْتَ، كَمَا تَدِينُ تَدَانُ﴾^(٣).

فالمؤمن العاقل يجمع اللذات الشهوانية ويقهر الهوى الذي يدخل عليه في لحظات الغفلة الطارئة لأنه يدرك عواقب هذه اللذات والشهوات فيردع النفس عن مقارفتها والوقوع فيها قال صلى الله عليه وسلم: ﴿لَيْسَ الشَّدِيدُ مَنْ غَلَبَ النَّاسَ وَلَكِنَّ الشَّدِيدَ مَنْ غَلَبَ نَفْسَهُ﴾^(٤).

وقال معاذ بن جبل رضي الله عنه: ((العاقل إذا زلَّ تدارك ذلك بالتوبة؛ بالعقل الذي قسم له، والجاهل إنما هو بمنزلة الذي يبني ويهدم، فيأتيه من جهله، ما يفسد صالح عمله))،

¹ - رواه الترمذي.

² - الطبراني في الأوسط.

³ - حديث مرسل: أبو قلابة عبد الله بن زيد الجرمي البصري، تابعي، التعريب 333.

⁴ - رواه البخاري برقم/6114/ومسلم برقم/2609/.

إذاً العاقل دائماً مترقب من أن تنزلق قدمه باتجاه الحرام، فيكون مرهف الشعور والإحساس بأن الله عز وجل يراه في كل لحظة:

○ ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ الحديد/4.

وعلى المؤمن العاقل أن يتذكر قول رسول الله ﷺ:

○ ﴿دَعَّ مَا يُرِيْبِكِ إِلَّا مَا لَأُ يُرِيْبِكِ﴾⁽¹⁾.

والريبة قد تكون ريبة الفؤاد وهو قلق ينتاب كامل النفس أو اضطراب في حركة الإنسان مع شعور بضيق الصدر، وسرعة ضربات القلب.

فلا اقتراب من الحرام بل الاجتناب الكامل هذا دور العقل الإجرائي والسلوكي الاجتبابي.

فرب شهوة ساعة أورثت حزناً طويلاً، فالحذر مقرون بالنجاة، والتعرض للفتن والشهوات مقرون بالعطب، هذه الريبة والحذر العقلي يؤدي بإجراء سلوكي داخلي وظاهري زاجر وناهي عن كل المحرمات.

ليصل بالنفس لحالة السكينة والطمأنينة، فتستكين للطيبات وتستحسنها لأنها حلال، عن أبي ثعلبة رضي الله عنه قال يا رسول الله أخبرني ما يحل وما يحرم علي؟ قال رسول الله ﷺ:

○ ﴿الْبَرُّ مَا سَكَتَ إِلَيْهِ النَّفْسُ وَاطْمَأَنَّ إِلَيْهِ الْقَلْبُ، وَإِنْ أَفْتَاكَ الْمَفْتُونُ﴾⁽²⁾.

فمن أعمل عقله في ردع داعي الهوى وزجره عن التلاعب بما أحل وحرّم الله تعالى كان قلبه مطمئناً سليماً نقياً، وما العقل إلا ضابط للنفس البشرية، أما الأحق

¹- أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي: سنن النسائي.

²- رواه أحمد في مسنده.

الجاهل الذي تتلاعب به الأهواء والملذات والشهوات فإن قلبه أسود لكثرة بواعث الشيطان فيه، فتظهر إرادة الشر على أفعاله، حتى تصبح عادة فملكة فيطبع بها،

عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ:

○ ﴿إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَذْنَبَ ذَنْبًا نُكِتَ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءٌ، فَإِذَا تَابَ وَنَزَعَ وَاسْتَعْفَرَ صُقِلَ قَلْبُهُ وَإِذَا زَادَ زَادَتْ حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبَهُ فَذَلِكَ الرَّأْيُ الَّذِي ذَكَرَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ المطففين/14﴾^(١).

وما أكثر القلوب الصدئة المتعفة لكثرة الخطايا والذنوب المتكررة، قال رسول الله ﷺ:

○ ﴿إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى فَرَضَ فَرَائِضَ فَلَا تُضَيِّعُوهَا، وَحَدَّ حُدُودًا فَلَا تَعْتَدُوهَا، وَحَرَّمَ أَشْيَاءَ فَلَا تَنْتَهِكُوهَا، وَسَكَتَ عَنِّ أَشْيَاءَ رَحْمَةً «لَا عَنِّ نَسِيَانٍ» فَلَا تَبْحَثُوا عَنْهَا﴾^(٢).

فالهجر الهجر والابتعاد والاجتناب والزجر عما حرم الله بإجراء عقلي سلوكي فعلي.

عن جابر، قال:

○ ﴿يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ الْهَجْرَةِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: أَنْ تَهْجُرَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْكَ﴾^(٣).

○ وعن أبي هريرة، قال رسول الله ﷺ: ﴿اتَّقِ الْمَحَارِمَ تَكُنْ أَعْبَدَ النَّاسِ﴾^(٤).

○ قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا الزُّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ الإسراء/32.

¹ - رواه الترمذي برقم/3334.

² - رواه الطبراني.

³ - رواه أبو داود/1449/جزء من الحديث.

⁴ - رواه أحمد في مسنده/8534/والترمذي برقم/2305.

أي لا تدنُّ من الزنا، واللفظ أبلغ من (لا تزنا) لأنه يفيد النهي عن مقدمات الزنا كاللمس والقبلة والنظرة والغمزة وغير ذلك مما يجر إلى الزنا، فالنهي عن القرب أبلغ من النهي عن الفعل^(١).

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: ﴿لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَشْرَبُ الخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَسْرِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَنْتَهَبُ نُهْبَةً يَرْفَعُ النَّاسُ إِلَيْهِ فِيهَا أَبْصَارَهُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾^(٢).

قال ابن عباس: ((ينزع منه الإيمان في الزنا))، وقد روي مرفوعاً أخرجه أبو جعفر الطبري من طريق مجاهد عن ابن عباس سمعت النبي ﷺ يقول: ﴿مَنْ زَنَى نَزَعَ اللَّهُ نُورَ الْإِيمَانِ مِنْ قَلْبِهِ فَإِنْ شَاءَ أَنْ يَرُدَّهُ إِلَيْهِ رَدَّهُ﴾^(٣).

وهذا ما يؤكد أن بعض المورثات السلوكية السيئة والضامرة قد ظهرت لضعف الوازع الإيماني مما يقوي هوى الشهوة الجنسية لتتركب العقل فتقوده ويقع ما لا يحمد عقباه.

الخوف كل الخوف من ظاهرة المساكنة التي بدأت تظهر علناً وهي نمط من العهر الحديث حيث يعيش الزاني مع زانيته علناً تحت سقف واحد، وعلّة السبب يقولان بسبب الأوضاع الاقتصادية وغلاء المهور، فألغينا فكرة الزواج! واخترنا المساكنة؟ إضافة للزواج العريفي دون موافقة ولي الأمر! وكله تحت سقف الزنا، لكن بمسميات زائفة تليق بالعصر.

¹ - صفوة التفاسير للصابوني، ص 643.

² - رواه البخاري برقم/6772.

³ - فتح الباري في صحيح البخاري، ج 3 ص 531.

والأخطر من هذا اللواطه فالفاعل والمفعول به لا يملكون أدنى مقومات العقل بل ميل وشهوة شيطانية مرضية، لا يقبلها عقل ولا دين ولا عرف، انحلال أخلاقي عقلي كامل إنه شذوذ وانحراف عن الفطرة وليس اضطراب هرموني أو وراثي.

عن أبي عباس قال رسول الله ﷺ: ﴿مَلْعُونٌ، مَلْعُونٌ مَّنْ عَمِلَ بِعَمَلِ قَوْمِ لُوطٍ﴾^(١).
والمصيبة أكبر وأعظم أنهم يتسلحون في دول الغرب بالقوانين التي تسمح وتعلن الزواج المثلي بينهما وتحت سقف واحد؟ وأنها من حقوق الإنسان؟! وعنه ﷺ قال:
﴿سِحَاقُ النِّسَاءِ زِنًا بَيْنَهُنَّ﴾^(٢).

إنهم يشعرون بلذة حيوانية سافلة، فلا زاجر ولا ناهي عقلي، فيدمنون على فعلها كما يدمن شارب الخمر والمخدرات على الإدمان، فيتطبعوا على فعل الفاحشة وعنه ﷺ قال: ﴿أَخَوْفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ شَهَوَاتِ الْغِيِّ فِي بُطُونِكُمْ وَفُرُوجِكُمْ وَمُضَلَّاتِ الْهَوَى﴾^(٣).

هذه الشهوات الماجنة المنحرفة، والأهواء المزينة من الشيطان ونفس أمارة تظهر أفعال قبيحة التي أوجبت انكساراً وذللاً ومرضاً وحرزناً طويلاً، لأنهم استسلموا لشياطين الإنس والجن:

○ ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ فاطر/8.

¹ - رواه أحمد في مسنده برقم/1878/و/2909.

² - رواه الطبراني في الكبير.

³ - رواه أحمد في المسند.

وقيل فيهم:

وكل امرئ يدرى موافقه شده
ولكنه أعمى أسير هواه
يسير عليه الناصحون بجهدهم
فيأني قبول النصيح وهو يراه

وعنه عليه السلام قال: ﴿حُبُّكَ الشَّيْءَ يُعْمِي وَيُصِمُّ﴾⁽¹⁾، أي يعمي صاحبه عن سلوك طريق الرشد ويصمه عن سماع صوت الحق ويعميه عن قصد رشده وفي الأثر: ((ما تحت أديم السماء إله يعبد أعظم عند الله من هوى متبع)).

لأن موافقة النفس الأمارة بالسوء على ما تريد وتشتهي دون لجمها وقمعها بالموعظة والرهبه والخوف من عقاب الله سيؤدي إلى استكانة النفس لهواها، لكن المآل واليوم الموعود آت.

○ وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحَضَّرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ آل عمران/30، فرب ساعة شهوة أورثت ندماً عظيماً، إنك لن تجني من الشوك العنب.

المؤمن العاقل يبتعد عن التحايل في أي أمر يتعلق بشرع الله عز وجل، وما الحيلة إلا لإباحة الحرام وإسقاط الواجبات.

قال النبي عليه السلام: ﴿لَا تَرْتَكِبُوا مَا ارْتَكَبَتُ الْيَهُودُ، فَاسْتَحْلُوا مَحَارِمَ اللَّهِ تَعَالَى بِأَدْنَى الْحَيْلِ﴾، صارت في عرف الفقهاء، إذا أطلقت: يقصد بها الحيل التي تستحل بها محارم كحيل اليهود، وكل حيلة تتضمن إسقاط حق الله تعالى أو الآدمي فهي مما

¹ - رواه أبو داود برقم/5130/وأحمد في مسنده.

يستحل بها المحارم^(١)، وقال ﷺ: قَاتَلَ اللَّهُ الْيَهُودَ، حُرِّمَتْ عَلَيْهِمُ الشُّحُومُ فَجَمَلُوهَا فَبَاعُوهَا^(٢)، أي أذابوا الشحوم لكي يزول عنها اسم الشحم فباعوها .

وكذلك البدع هي نوع من التحايل والتلاعب بالمنهج الرباني، وعنه ﷺ قال: كُلُّ مُحَدَّثَةٍ بَدْعَةٌ وَكُلُّ بَدْعَةٍ ضَلَالَةٌ وَكُلُّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ .

○ قال تعالى: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ البقرة/275 .

○ ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَقْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يَفْلِحُونَ﴾ النحل/116 .

قال ابن الجوزي رحمه الله: ((إن كان يصلح للموت والقبر فاستمر عليه، وإن كان لا يصلح لهذين، فُتِبَ إلى الله تعالى منها، وارجع إلى ما يصلح)).

المؤمن العاقل من يجعل مخافة الله بين عينيه، عندها توهب له سعادة الدارين.

فتعالوا نردد اللهم ألقنا بجلالك عن حرامك....

¹ - ابن القيم: إغاثة اللهفان من مكائد الشيطان، ص323 .

² - رواه البخاري برقم/2223 .

ثمرة إعمال العقل كوسيلة

وعظية لإثارة الخوف والرهبه باليوم الموعود

تبين لنا أن العقل المطبوع بصفاته وخواصه الرشيدة ووظائفه يقوم بإجراء غائي نتيجة لحدث ما يستدعي منه الضبط والاكتفاف والسيطرة على هوى النفس وشهواتها بآليات متعددة:

هي إما ذهنية أو قولية أو فعلية - حركية لكي يعالج به حدث ما :

الآليات العقلية التي تحدث عنها رسول الله ﷺ قال: ﴿مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أضعفُ الإِيمَانِ، وَكَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ﴾^(١).

الإجراء الأول فعلي وتتمثل بحركة الجوارح (فليغيره بيده)، الإجراء الثاني قولي يحركه اللسان (فبلسانه)، الإجراء الثالث قلبي ذهني ويتمثل في القلب -الواعظ العقلي.

في حديث النواس بن سمعان عن رسول الله ﷺ أنه قال: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا، وَعَلَى جَنْبِي الصِّرَاطِ سُورَانِ فِيهِمَا أَبْوَابٌ مُفْتَحَةٌ، وَعَلَى الْأَبْوَابِ سُتُورٌ مُرْحَاةٌ، وَعَلَى بَابِ الصِّرَاطِ دَاعٍ يَقُولُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ ادْخُلُوا الصِّرَاطَ جَمِيعًا وَلَا تَعْوَجُوا، وَدَاعٍ يَدْعُو مِنْ فَوْقِ الصِّرَاطِ، فَإِذَا أَرَادَ الْإِنْسَانُ أَنْ يَفْتَحَ شَيْئًا مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ قَالَ: وَيْحَكَ لَا تَفْتَحْهُ، فَإِنَّكَ إِنْ تَفْتَحْهُ تَلْجَهُ، فَالصِّرَاطُ الْإِسْلَامُ، وَالِدَّاعِي مِنْ فَوْقِ الصِّرَاطِ وَاعِظُ اللَّهِ فِي قَلْبِ كُلِّ مُسْلِمٍ﴾^(٢).

¹ - رواه مسلم.

² - رواه أحمد في مسنده.

واعظ الله المكنون في قلب كل مسلم هو العقل الواعظ الزاجر الناهي عن فعل القبائح وهو لمة الملك في قلب كل مسلم يضعف تأثيره بضعف الإيمان فتضعف الرهبة والخشية، وتزداد بواعث الشيطانية وبواعث الهوى فيستحوذ على قيادة النفس لتسول لها ما تشاء، لكن بقوة الإيمان تقوى بواعث الخير والخشية والرهبة من الله فتقوى لمة الملك.

○ قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنَ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾
الحجرات/4.

ومثال عن الإجراء السلوكي القولي والفعلي للعقل:

ذمهم الله بعدم العقل، حيث لم يعقلوا عن الله الأدب مع رسوله واحترامه، كما أن من العقل وعلامته استعمال الأدب، فأدب العبد عنوان عقله^(١).

وفي الحديث الشريف: ﴿وَرَجُلٌ دَعَتِهِ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ، فَقَالَ إِنَّ أَخَافِ اللَّهَ﴾^(٢)، قال إني أخاف الله إجراء عقلي قولي وفعلي.

○ قال تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ البقرة/44.

¹ - تيسير كريم الرحمن للسعدي، ص 811.

² - رواه البخاري برقم/6806/جزء من الحديث.

إجراء قولي وفعلي بالأمر بالخير ولا يفعله علماء اليهود: ((أفلا تنظرون بعقولكم التي رزقكم الله إياها حيث لم تنتفعوا بما لديكم من العلم))^(١).

(أفلا تعقلون): الاستفهام هنا للتوبيخ، يعني أفلا يكون لكم عقول تدركون بها خطأكم، وضلالكم؟.

والعقل هنا عقل الرشد، وليس عقل الإدراك الذي يناط به التكليف، لأن العقل نوعان: عقل هو مناط التكليف «وهو إدراك الأشياء، وفهمها» وهو الذي يتكلم عليه الفقهاء في العبادات والمعاملات، وغيرها، وعقل الرشد: وهو أن يحسن الإنسان التصرف وسمي إحسان التصرف عقلاً، لأن الإنسان عقل تصرفه فيما ينفعه^(٢)، العاقل من يجعل مخافة الله بين عينيه.

○ قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ الأنفال/2.

أي خافت ورهبت فأوجبت لهم خشية الله تعالى الانكفاف عن المحارم، لأن الخوف من الله تعالى أكبر علاماته أن يحجر صاحبه عن الذنوب^(٣).

وما الوجل إلا استشعار الخوف من الله عز وجل بهذا الخوف يكبر واعظ الله في قلب المؤمن ويقوى عقله الزاجر مخافة الله فيحجر صاحبه عن الأفعال السيئة والأقوال السيئة فهذا إجراء عقلي حركي فمن ذكر الله مخافةً ترك ذنبه.

عن ابن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ﴿كَانَ الْكُفْلُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَأَ يَتَوَرَّعَ عَنْ ذَنْبِ عَمَلِهِ، فَآتَتْهُ امْرَأَةٌ فَأَعْطَاهَا سِتِّينَ دِينَاراً عَلَى أَنْ يَطَّأَهَا، فَلَمَّا

¹ - الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي، ص 78، ج 1.

² - تفسير القرآن لابن عثيمين سورة البقرة، ج 1 ص 158 وص 193، ج 3.

³ - تيسير كريم الرحمن للسعدي، ص 308.

أَرَدَهَا عَلَى نَفْسِهَا ارْتَعَدَتْ وَبَكَتْ: فَقَالَ: مَا يُبْكِيكَ ؟ قَالَتْ: لَأَنَّ هَذَا عَمَلٌ مَأْ
عَمَلْتَهُ، وَمَا حَمَلَنِي عَلَيْهِ إِلَّا الْحَاجَةُ. فَقَالَ: تَفْعَلِينَ أَنْتَ هَذَا مِنْ مَخَافَةِ اللَّهِ ! فَأَنَا
أَحْرَى إِذْهَبِي فَالْكُ مَا أَعْطَيْتُكَ وَوَاللَّهِ مَا عَصَيْتَهُ بَعْدَهَا أَبَدًا، فَمَاتَ فِي لَيْلَتِهِ،
فَأَصْبَحَ مَكْتُوبًا عَلَى بَابِهِ، إِنَّ اللَّهَ قَدْ عَفَرَ لِكُفْلِ فَعَجِبَ النَّاسُ مِنْ ذَلِكَ ﴿^(١)

لحظة وعظ واحدة في قلب العاقل ممزوجة بمخافة الله وتوبة صادقة
مطهرة لطباع النفس، يقول الجنيد يرحمه الله: ((الإنسان لا يعاب بما في طبعه،
إنما يعاب إذا فعل بما في طبعه))^(٢).

○ قال تعالى: ﴿يَعْظُمُ لِعَلَّكُمْ تَذَكُّرُونَ﴾ النحل/90.

إن ضابط الواعظ هو الكلام الذي تلين به القلوب، وأعظم ما يلين به قلوب
العقلاء أوامر ربهم ونواهيهم، فإنهم إذا سمعوا الأمر خافوا من سخط الله في عدم
امتثاله، وإذا سمعوا النهي خافوا من سخط الله في عدم امتثاله، وطمعوا فيما
عنده من الثواب في اجتنابه^(٣).

○ قال تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ﴾ الرحمن/46.

عن مجاهد: ((هو الذي إذا هم بمعصية ذكر مقام الله عليه فيها فانتهى، وقال
أيضاً هو الرجل يذكر الله عند المعاصي فيحجر عنها))^(٤).

¹ - رواه الترمذي برقم/2496.

² - ذم الهوى لابن الجوزي، ص436.

³ - أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن للشنقيطي، ص544.

⁴ - ذم الهوى لأبي الفرج بن الجوزي، ص183.

بهذا الخوف والوجل والواعظ في قلب المؤمن يستقيم أمره، لكن حذر رسول الله ﷺ من محقرات الذنوب كالإصرار على صفائر الذنوب فقال: ﴿إِيَّاكُمْ ومحقرات الذنوب، فَإِنَّهُنَّ يَجْتَمِعْنَ عَلَى الرَّجُلِ حَتَّى يَهْلِكَهُ﴾^(١).

هنا لم يكن مقام الخوف والوجل من الله كافياً فكان وهناً في الواعظ العقلي، فالإصرار على الذنوب تهلك صاحبها أما حال المؤمن الخائف الوجل يرى ذنبه هكذا كما قال ﷺ قال: ﴿إِنَّ الْمُؤْمِنَ يَرَى ذَنْبَهُ كَأَنَّهُ قَاعِدٌ تَحْتَ جَبَلٍ يَخَافُ أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِ، وَإِنَّ الْفَاجِرَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَذُبَابٍ مَرَّ عَلَى أَنْفِهِ فَقَالَ بِهِ هَكَذَا، بِيَدِهِ فَوْقَ أَنْفِهِ﴾^(٢).

وأختم بقول ابن مسعود: ((إنكم في ممر الليل والنهار، في آجال منقوصة وأعمال محفوظة، والموت يأتي بغتة، فمن زرع خيراً فيوشك أن يحصد رغبة، ومن زرع شراً فيوشك أن يحصد ندامة، ولكل زارع ما زرع))^(٣).

¹ - رواه الإمام أحمد في مسنده.

² - رواه البخاري برقم/5833.

³ - ذم الهوى لابن الجوزي، ص436.

البند السابع:

ثمرة إعمال العقل وسيلة إرشادية

لإظهار العدل وتحقيق موازينه

كل نظر عقلي سليم يستحيل أن يخالف كتاب الله وسنة رسوله الكريم ﷺ،
فالعدل من أسماء الله تعالى والله يأمر بالعدل:

○ ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ
وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ النحل/90.

الإسلام قائم على العدل، والعدل نقيض الظلم، وحرّم الله الظلم على نفسه وعلى عباده، والعدل هو مساواة في المكافآت، إن كان خيراً فخير وإن كان شراً فشر، بينما المساواة هي التسوية بين الأشياء المتماثلة والمختلفة، فلا تصح المساواة بين أهل الإيمان وأهل الكفر:

○ ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾
الحشر/20.

○ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا﴾ يونس/44.

وبعث رسولنا العظيم ﷺ بالشرعية السمحة لإقامة العدل.

وجبلت الإنسان تميل بطبيعتها إلى حب الهوى، وبذلك يميل الإنسان عن الحق والعدل وتكون نتائجه، وخيمة هنا مكمّن الموضوع، العاقل كل تصرفاته وأعماله وأقواله موزونة بميزان إيمانه فالقرآن أعظم ميزان نتبين به أعمالنا وأقوالنا وتصرفاتنا، وحظ العبد من العدل أن يكون وسطاً بين طرقي الإفراط والتفريط أي

لا ظالم ومظلوم ﴿وَإِذَا حَكَّمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ النساء/58 .

وعقل المؤمن ميزان للحالة التي أمامه فلا تعارض مطلقاً بين العقل والمنقول.
فلو تُرِكَ للمرء حب الطغيان والكبر والاستعلاء على الآخر وتضخيم الأنا لوقع في مصائب شتى، ولكن حكمة الله تعالى في كبح طباع النفس الميالة للهوى أن يلجمها بلجام العقل لضبطها وزجرها عن عمل المستقبح من الأعمال فتكون له الجنة:

○ ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ ﴿40﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ
الْمَأْوَىٰ﴾ النازعات/40.

لو كانت الأخلاق لا تقبل التغير لبطلت الوصايا والمواعظ، ولما قال رسول الله ﷺ:
﴿حَسَنُوا أَخْلَاقَكُمْ﴾⁽¹⁾.

والخسارة كل الخسارة أن يفقد الإنسان توازنه فيميل إلى الطغيان، وحب الدنيا والغفلة والعصيان، فيختلس الهوى قيادة النفس لتتحول إلى النفس الخبيثة.

○ ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى﴾ ﴿37﴾ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ ﴿38﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ
الْمَأْوَىٰ﴾ النازعات/37-40.

لأن أرجح الناس عقلاً من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى، وأعقل الناس من عاش ليوم الحساب.

لذا العاقل يسعى للتوازن وعدم الميل والانحراف، لأن العدل هو المساواة بين المتماثلات والتفريق بين المختلفات، والإسلام دين عدل، ولهذا أوجد الله الموازين في الأرض وفي السماء، فميزان العقل يميز بين الحسن والسيء، وميزان الشرع يميز بين الحلال والحرام، والميزان الأعظم هو يوم القيامة.

¹ - إحياء علوم الدين للإمام الغزالي، ص974.

فلا غلو ولا تشدد وبالمقابل فلا فلتان ولا تميمع ولا كثرة اللامبالاة، وأعظم نتائج التوازن اطمئنان النفس والرضا بما قسمه الله.

فلا يأس ولا قنوط بل:

○ ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ الزمر/53.

○ ﴿أَلَا تَتَفَوَّأُ فِي الْمِيزَانِ﴾ ﴿8﴾ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ الرحمن/8-9.

فالإنصاف هي المعاملة العادلة وذلك ألا يأخذ من صاحبه المنافع إلا مثل ما يعطيه، ولا يُنِيلُه من المضار إلا مثل ما يناله⁽¹⁾.

حتى في العلاقات الاجتماعية بحاجة إلى توازن وإنصاف، والمجانسة تكون بالمجانسة، وكما قيل الصاحب صاحب، لذا فالذي يكون مع أهل الهوى لن يناله إلا الهوى، والذي مع أهل الذكر يصبح منهم، وحتى في حالة إظهار الحق، وهو من الموازين المهمة في هذه الدنيا، قال تعالى: ﴿وَيَمَكُرُونَ وَيَمَكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ الأنفال/30، واحدة واحدة، البشر يمكرون لإخفاء الحق، بينما مكر الله ليظهر الحق وتعاد الحقوق لأصحابها، قال المتنبّي:

مَا مِهِ يَدٍ إِلَّا يَدُ اللَّهِ فَوْقَهَا وَمَا مِهِ ظَالِمٍ إِلَّا سَبِيلِي بِأُظْلَمِ

فمهما مكر الظالم سيأتيه المكر الأعظم من حيث لا يدري، والظلم إلى زوال مهما استحكمت، والحق والعدل أبلج والعبرة في الخواتيم، وكله بحكمة من الله عز وجل.

وكل الشريعة الإسلامية قائمة على التوازن ففي العبادات:

¹ - المفردات في غريب القرآن للأصفهاني، ص 497.

الصلاة: فحقيقتها الابتعاد عن الرذائل والمنكرات وتزكية النفس فالصلاة تدفع المسلم إلى توازنه الروحي فيشحن بطاقة نورانية خلاقة تطهر نفسه.

قال رسول الله ﷺ: ﴿مَنْ حَافِظَ عَلَيْهَا كَانَتْ لَهُ نُورًا وَبِرَهَانًا وَنَجَاةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾⁽¹⁾.

الصيام: هو منهج الجسد والروح، هو تسليم زمام الإرادة الإنسانية إلى بارئها فتستكين بواعث ورغبات النفس وأهوائها فتدلل النفس بالصيام مع الجسد.

الزكاة: المجتمع خليط من البشر منهم الفقير ومنهم الغني، منهم البخيل ومنهم المسرف وما الزكاة إلا مطهرة للنفوس لتعيد للمجتمع توازنه.

فلا بغضاء وحقد وحسد من طرف الفقير، بل رحمة ومحبة ورضى وسعادة من الغني للفقير: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ التوبة/103.

الحج: يعيد التوازن الروحي لكل من يحج فالمخطئ والمذنب والمسرف على نفسه بالحج تغسل الذنوب منه والحج العبادة الوحيدة التي تجمع بين المال والجسم.

وأخيراً عودٌ على بدء، بالتقوى تحفظ الجوارح والنفس توازنها فيرتبط الإنسان بخالقه ويبتعد عن الدنيا وما الدنيا إلا قطرات عسل فليرتشف المؤمن رشفة قليلة من عسلها ينجو ومن غرق في عسلها هلك.

اللهم آت نفسي تقواها وزكّها أنت خير من زكّاها.

¹ - رواه أحمد في مسنده، جزء من الحديث.

تعالوا معاً لنعرف كيف يستطيع العاقل أن يكون في حالة توازن دائماً علينا أن ندرس الحكمة
العقلية... لتناج...

البند الثامن:

ثمرة إعمال العقل وسيلة لنقد

النفس وفلترة الأفكار الصادرة والواردة

«المحاكمة العقلية»

المؤمن العاقل دائماً في حالة متجددة من السمو لذا فهو يحمل بعقله خاصية النقد والمحاسبة الذاتية الوجدانية وتدبر عاقبة الأمور:

○ ﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ﴾ القيامة/14-15.

التي لا تتم إلا بفلترة التصورات الذهنية التي ستتحول إلى أفكار ثم إلى مفاهيم، ولاحقاً معتقدات قد تكون ظنية وهمية أو حقيقية، فالبداية البداية من الخاطرة هل حامله للخير أم الشر؟ هل هذه الخاطرة وحديث النفس تحمل طاقة سلبية لأي حدث أو مشكلة، مثال ذلك أحدهم ناجح لكن، أفكاره تتجه للاستعلاء والكبر. الآخر موظف بسيط جميع التصورات الذهنية تحفزه على السرقة، والآخر يحمل تصورات ذهنية يحب فعل الفاحشة دعونا نسميها ملفات ذهنية أولية مشوشة في أذهانهم.

قد تتحول إلى أفكار تدفع النفس إلى فعلها هنا الدور يقع على العقل إما أن (يفلتر) هذه الأفكار التسلطية الإقتحامية، قبل أن تتملكه فيهوى فيها، وإما أن يكبح هذه الخواطر السلبية فيلوم ذاته لهذه الأفكار الواهية المستقبحة، فيمسك زمام عقله وإرادته بإلغائها نهائياً والتوجه إلى خالقه والدعاء له لكي يرتاح من تسلط هذه الأفكار الإقتحامية عليه.

- استبدال هذه الأفكار «التصورات الذهنية» بأفكار متجددة بعيدة عن الأفكار المتعفنة التي راودته والتي قد تسول نفسه وشيطانه عملها .
- المتابعة والاستمرار على خلق عادة جديدة والصمود والثبات على إنهاء وفترة الأفكار الاقترامية بمساعدة الأصدقاء المخلصين من أهل السلوك الحسن لإزالة العوائق ودفعه لترك هذه الأفكار .

فتهذيب وتزكية النفس بمحاسبتها وهو عين المجاهدة تبدأ من فترة ما يدخل من البوابات الإدراكية وما تستقبله:

○ قال تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ انور/30.

أليس من الجوارح الأرجل:

○ قال تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طَوْلًا﴾ الإسراء/37.

أليس السمع والبصر من البوابات الإدراكية:

○ قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ الإسراء/37.

أليس باللسان يستبين الكفر والإيمان:

○ قال ﷺ: ﴿لَا يَسْتَقِيمُ إِيْمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ، وَلَا يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ، حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ﴾⁽¹⁾.

¹ - وراه أحمد .

○ قال ﷺ: ﴿لَيْسَ الْمُؤْمِنُ بِالطَّعَّانِ، وَلَا اللَّعَّانِ، وَلَا الْفَاحِشِ، وَلَا الْبَذِيّ﴾^(١).

المؤمن العاقل قوله ذكر ونظره عبرة وصمته فكرة:

○ قال تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ ق/18.

محاسبة الإنسان لذاته ولو في خلوة مسائية مع نفسه يسألها ويلومها أين مكمن التقصير؟ ما هذه الأفكار التي رصدت اليوم؟ لماذا قلت كذا، لماذا ضاع اليوم بدون أي جديد تعمله لأخرتك؟ يقول النبي ﷺ: ﴿لَا تَزُولُ قَدَمُ ابْنِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ خَمْسٍ، عَنْ عُمُرِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ، وَعَنْ شَبَابِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ، وَمَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَا أَنْفَقَهُ، وَمَاذَا عَمَلَ فِيمَا عَلِمَ﴾^(٢).

فتعالوا كلنا نبادر بمحاكمة عقلية لوامة لكي نطهر أنفسنا من الأفكار والأعمال والأقوال السيئة قبل أن ينتهي العمر وتكون الندامة.

كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى بعض عماله: ((حاسب نفسك في الرخاء قبل حساب الشدة، فإن من حاسب نفسه في الرخاء قبل حساب الشدة عاد أمره إلى الرضى والغبطة، ومن ألهته حياته وشغلته أهواؤه عاد إلى الندامة والخسارة)).

فالنفس عدو منازع يجب مجاهدتها لترويضها ودفع هواها عن ركوبها.

○ قال ﷺ: ﴿الْمُؤْمِنُ بَيْنَ خَمْسٍ شَدَائِدٍ: مُؤْمِنٌ يَحْسِدُهُ، وَمُنَافِقٌ يَبْغِضُهُ،

وَكَافِرٌ يُقَاتِلُهُ، وَشَيْطَانٌ يُضِلُّهُ، وَنَفْسٌ تَنَازَعُهُ﴾^(٣).

¹ - أخرجه الترمذي.

² - أخرجه الترمذي.

³ - أبو بكر عبد الله بن محمد المعروف بـ ابن أبي الدنيا: كتاب مكارم الأخلاق من حديث أنس بسند ضعيف، إحياء علوم الدين: الغزالي، ص 986.

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ((كان يضرب قدميه بالدرّة إذا جنى الليل ويقول لنفسه ماذا عملت اليوم؟)).

تدبر عاقبة الأفعال والأعمال والأقوال، ففي الخبر:

أن عليه الصلاة والسلام جاءه رجل فقال: ﴿يَا رَسُولَ اللَّهِ أَوْصِنِي فَقَالَ: أَمْسُتُوصِي أَنْتَ ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، قَالَ: إِذَا هَمَمْتَ بِأَمْرٍ فَتَدَبَّرْ عَاقِبَتَهُ فَإِنْ كَانَ رَشْدًا فَأَمْضِهِ وَإِنْ كَانَ غِيًّا فَأَنْتَهُ عَنْهُ﴾.

فعندما يتدبر الإنسان عاقبة إقدامه لقول أو فعل ويعرف أنه به هلكته، ينتهي عنه لأنه عقل نتائج العاقبة، عنه رضي الله عنه قال: ﴿الْكَيْسُ مِنْ دَانَ نَفْسُهُ وَعَمَلٍ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ وَالْعَاجِزُ مِنْ أَتْبَعُ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ الْأَمَانِي﴾^(١).

فتعالوا نستفيد من الصحة قبل المرض ومن الغنى قبل الفقر، ومن الشباب قبل الهرم، ومن قيمة الوقت قبل ضياعه، يقول المصطفى عليه الصلاة والسلام: ﴿كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو، فَبَائِعٌ نَفْسَهُ فَمَعْتِقُهَا أَوْ مَوْبِقُهَا﴾^(٢).

وما الوقت إلا أنفاس معدودة تخرج من صدورنا وسينتهي زمنها بفراق الدنيا.

أيام تمر على بعض المرضى كأعوام، وبعض الناس يمضي عمرهم بالقييل والقال، والغفلة عن الآخرة، ولم يعمل لأخرته شيئاً، فالיום دار عمل وتوبه، وغداً دار حساب وجزاء فالذي يحاسب نفسه اليوم يهون عليه حساب الآخرة.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿أَتَدْرُونَ مِنَ الْمُفْلِسِ؟ قَالُوا: مَنْ لَّا دُرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ، قَالَ: الْمُفْلِسُ مَنْ يَأْتِي بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا وَقَذَفَ

¹ - أخرجه الترمذي برقم/2459/وأحمد في مسنده.

² - صحيح مسلم برقم/223/.

هَذَا وَآكُلُ مَالِ هَذَا وَسَفَكُ دَمِ هَذَا وَضَرْبُ هَذَا، فَيُعْطِي هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يَقْضِيَ مَا عَلَيْهِ أَخَذُ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطَرَحَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ طَرَحَ فِي النَّارِ ﴿١﴾.

والصمت ينجي وقيل من تصدر قبل أن يتعلم كان كمن تذبذب قبل أن يتحصن، فالسكوت منجاة للإنسان وحفظ ماء الوجه.

فتعالوا ننتقد أنفسنا من النار وندعو الله اللهم آت نفسي تقواها وزكها أنت خير من زكاها.

¹ - أخرجه مسلم.

البند التاسع:

ثمرة إعمال العقل وسيلة

لحسن الظن بالله وثبات اليقين

الظن: اسم لما يحصل عن أمانة ومتى قويت أدت إلى العلم، ومتى ضعفت جداً لم يتجاوز حد التوهم⁽¹⁾.

فالظن ظنان ظن الحسن وهو المحمود وهو ظن العلم والاعتقاد، وهي حاله تعرف وتقوى بوجه من وجوه الأدلة فيجوز الحكم بها.

○ وظن السوء والشك وهو مذموم: أن يقع في النفس شيء من غير دلالة كقوله تعالى: ﴿الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوِّءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوِّءِ﴾ الفتح/6.

○ قال رسول الله ﷺ: لَأَيُّمُوتَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمْ إِنَّا وَهُوَ بِحُسْنِ الظَّنِّ فَإِنِ قَوْمًا قَدْ أَرَادَهُمْ سُوءُ ظَنِّهِمْ بِاللَّهِ، قال تعالى: ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَادَكُمْ فَاصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ فصلت/23⁽²⁾، ولو أحسنوا الظن بالله لأحسنوا العمل.

○ وقد يعمل الظن بمعنى اليقين قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ البقرة/46، هؤلاء أحسنوا الظن بالله فلن يخيب الله ظنهم.

¹ - المفردات في غريب القرآن للأصفهاني، ص 320.

² - رواه الإمام أحمد من مسنده.

الذين يظنون أي يتيقنون، والظن يستعمل في اللغة العربية بمعنى اليقين^(١)،
واليقين سكون الفهم مع ثبات الحكم^(٢).

قيل لعمر بن العاص: ((ما العقل؟ قال: الإصابة بالظن ومعرفة ما يكون
بما قد كان)).

وقال عمر بن الخطاب: ((من لم ينفعه ظنه لم ينفعه يقينه)). إنما ركب الله العقل
في الإنسان دون سائر الحيوان يستدل بالظاهر على الباطن، ويفهم الكثير
بالقليل^(٣).

أحد السلف الصالح يقول رأس مالك قلبك ووقتك، وقد شغلت قلبك بهواجس
الظنون، وضيّعت أوقاتك بارتكاب ما لا يعينك، فمن يربح من خسر رأس ماله^(٤).

فالظن السيئ وغلبة التوهم ينتج الاعتقاد الخاطئ، وهي نتائج لمنبع واحد، هو
ضعف التعليل أي عدم القدرة على فهم السبب المسبب بمعنى عدم ربط العلة
بالمعلول، فحامل الظن السيئ والوهم ينظر للحوادث التي تظهر أمامه بجهالة
وسفاهة عقلية لا واعية لعدم التدقيق فيها وسطحية المعنى من الفهم، لذا تكثر
الخرافة والأوهام وأحاديث السحر والشعوذة عند فئة من الواهية عقولهم،
فيؤمنون بالخرافة والخزعبلات والعرافة والأوهام نتيجة تشكيل صور ذهنية لهذه
المسميات، ويتشكل لاحقاً التفكير الأعوج المنحرف لضعف الوازع الديني لأنهم
رضوا بالشياطين الإنس والجن أن تعبت بهم.

¹ - تفسير سورة البقرة للشيخ محمد بن عثيمين، مجلد الأول، ص 166.

² - رواه الإمام أحمد من مسنده.

³ - ابن عبد ربه: العقد الفريد، ج 2، ص 117.

⁴ - ذم الهوى للإمام أبي الفرج بن الجوزي، ص 437.

إن عملية اجتناب الظن والشك والوهم يقوم بها المؤمن العاقل الذي يدفع الشبهات والريبة بعملية عقلية فكرية لسانية قلبية.

○ قال تعالى: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا﴾
النور/12.

لأن المؤمن العاقل يملك قوة التعليل وربط العلة بالمعلول فتراه يتفحص ويفلتر في عقله كل الأحداث قبل أن يصدر الحكم فيها ويبتعد عن ظن السوء.

وعنه ﷺ قال: ﴿إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ﴾⁽¹⁾.

فعلينا أن ندع الخلق للخالق، وقيل قديماً ما أبحر إنسان في نوايا الناس، إلا غرق. فعلينا بالظاهر، والله يتولى السرائر.

○ قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ الحجرات/12.

لاحظوا عمل العقل كضابط للنفس البشرية والاجتناب أبلغ من قول يورد المهالك. علينا أن ننصح أولادنا الابتعاد عن بعض الناس الذين يؤثرون عليهم ليس بقوة حجتهم، بل لخبتهم ومكرهم، فيؤثرون على الشبيبة التي في ريعان الشباب فيقومون بغسل عقولهم لمأرب أخرى قد تكون بعيدة عن الحقيقة فيجنحوا إما للتطرف والغلو الديني أو باتجاه إدمان المخدرات والسرقة.

هنا دور الأهل في متابعة أبنائهم والحرص على الحوار معهم للسير بهم إلى بر الأمان، فقلة اليقين تنتج الريبة والظنون.

وأما علم اليقين فهو سكون الفهم مع ثبات الحكم⁽¹⁾.

¹ - رواه البخاري.

ولا يظهر إلا عندما يصل اليقين إلى القلب فيمتلئ نوراً، فلا ريب ولا ظن ولا وهم فيه.

المؤمن العاقل عقل أوامر الله ونواهيه وعرف توحيد الله وكمال قدرته وأنه المستحق للعبادة وعقل عن الله حججه وآياته فكان من أهل اليقين.

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: ﴿لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ يَكُونَ هُوَ تَبِعًا لِمَا جِئْتُ لَهُ﴾^(٢).

وقال الحسن البصري: ((ليس الإيمان بالتمني ولكن ما وفر في القلب، وصدقه العمل، إن قوماً أهتهم الأماني، حتى خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم وقالوا: نحسن الظن بالله وكذبوا لو أحسنوا الظن به لأحسنوا العمل))^(٣).

فحسن الظن بالله مرتبط بقوة الإيمان واليقين الثابت.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ النساء/125.

¹ - المفردات في غريب القرآن الأصفهاني، ص553.

² - رواه أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد الفراء البغوي في كتابه شرح السنة.

³ - صفوه التفاسير الصابوني، رقم 259.

البند العاشر:

ثمرة إعمال العقل وسيلة

لإظهار الحجة والبرهان والبيينة

هناك من العلوم لا تأتي إلا بفتح من الله عز وجل لبعض الناس من ذوات العقول العاملة المتبصرة ومنهم أهل الحجة، والحجة هي الدلالة الميينة للحجة أي القصد المستقيم والذي يقتضي صحة أحد النقيضين⁽¹⁾.

ذكر في القرآن الكريم مناظرة إبراهيم الخليل عليه السلام لقومه وغلبهم بالحجة الواضحة:

○ قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ﴾ الأنعام/83.

أما أهل الكفر فحجتهم داحضة:

○ قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتَجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ

دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ الشورى/17

والبرهان ببيان للحجة، والقرآن يأمر العقل الإنساني بالدليل، وهو الذي يقتضي الصدق أبداً:

○ قال تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ البقرة/111.

○ وقال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ النساء/174.

¹ - مفردات غريب القرآن للأصفهاني، ص115.

هذه كلها دلالات عقلية واضحة بينة، والبينة هي الدلالة الواضحة عقلية كانت أو محسوسة⁽¹⁾.

والبيان الكشف عن الشيء، وسمي الكلام بياناً لكشفه عن المعنى المقصود لإظهاره نحو هذا بيان للناس:

○ قال تعالى: ﴿إِنَّا مُنَزِّلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾⁽³⁴⁾ ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ العنكبوت/34-35.
تركنا من ديار قوم لوط أثاراً بينة لقوم يعقلون العبر⁽²⁾.

والآن في عصرنا هذا كثير من الذين يسمون أنفسهم بالتفكيريين - أهل الحداثة الفكرية - ما هم إلا أناس لديهم مرض في فكرهم العقائدي، يحاولون دس سمومهم بقلب جذور الكلمات القرآنية لتغيير معانيها مما يؤدي لتغيير النص القرآني ومعانيه وإعطاء دلالات لغوية مغالطة، بل ينكرون السنة النبوية جملة وتفصيلاً وينادون بتحرير العقل من سلطة الفقهاء، بل وينادون بسلطة العقل على النقل!، هؤلاء يملكون جراءة الوليد بن المغيرة ومسيلمة الكذاب، يريدون قلب أحكام النقل رأساً على عقب! وشرعنة الانحلال الأخلاقي ويقولون إنما هي قراءة معاصرة وحداثة في فهم النصوص القرآنية، والحقيقة يريدون تفرغ الإسلام من مضمونه الإلهي واستبداله بقيم ومفاهيم تافهة وذلك لإعادة هندسة الوعي بالمقلوب لإظهار إسلام جديد على مقاسهم.

¹ - المرجع السابق.

² - تفسير تيسير كريم الرحمن للسعدي، ص 637.

قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُنمَّ

نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ التوبة/32.

لكن الله عز وجل لهم بالمرصاد، أخرج ألسنتهم وكشفهم.

البند الحادي عشر:

ثمرة إعمال العقل

وسيلة إعزاز وعلو همة النفس

العزة: حالة مانعة للإنسان من أن يغلب، فقد يمدح بالعزة تارة:

○ قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ المتفقون/8.

هي العزة الدائمة الباقية:

○ ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ الصافات/180.

ويذم بها تارة:

○ قال تعالى: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ ص/2.

والعزة هنا هي التعزز وهو في الحقيقة ذل:

○ قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً﴾ فاطر/10.

○ كما قال عليه الصلاة والسلام: ﴿كُلُّ عِزٍّ لَيْسَ بِاللَّهِ فَهُوَ ذُلٌّ﴾⁽¹⁾.

○ قال ﷺ: ﴿مَا زَادَ اللَّهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا، وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ، إِلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ﴾⁽²⁾.

أي: يامن يريد العزة، أطلبها ممن هي بيده، فإن العزة بيد الله ولا تتال إلا بطاعته⁽³⁾.

¹ - مفردات غريب القرآن للأصفهاني، ص336.

² - رواه مسلم.

³ - تفسير كريم الرحمن للسعدي، ص694.

أي من كان يريد العزة التي لا ذلة فيها، من الله وصدق في طلبها بافتقار
وذلل، وسكون وخضوع، وجدها عنده إن شاء الله غير ممنوعة ولا محجوبة عنه:

○ قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَبِيتُّونَ
عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً﴾ النساء/139.

○ قال ﷺ: ﴿مَنْ تَوَاضَعَ لِلَّهِ رَفَعَهُ اللَّهُ، وَمَنْ طَلَبَهَا مِنْ غَيْرِهِ وَكَلَّهُ إِلَى مَنْ
طَلَبَهَا عِنْدَهُ، وَقَدْ ذَكَرَ قَوْمًا طَلَبُوا الْعِزَّةَ عِنْدَ مَنْ سِوَاهُ﴾.

فأنبأك صريحاً لا إشكال فيه أن العزة له يعز بها من يشاء ويذل من يشاء، وعنه
ﷺ مفسراً لآية: ﴿مَنْ أَرَادَ عِزَّ الدَّارَيْنِ فَلْيُطِيعِ الْعَزِيزُ وَمَنْ اعْتَزَّ بِالْعَبْدِ أَذَلَّهُ اللَّهُ،
وَمَنْ اعْتَزَّ بِاللَّهِ أَعَزَّهُ اللَّهُ﴾⁽¹⁾، ويعجبني قول المصلح الكبير عبد الحميد بن
باديس: ((نبذة باستخدام الذكاء الاصطناعي

مقولة الإمام عبد الحميد بن باديس الشهيرة هي:

((الجاهل يمكن أن تعلّمه، والجاهل يمكن أن تهذّب به، ولكن الدليل الذي نشأ على
الذلّ، يَعرُسُ أو يتعذّر أن تغرس في نفسه الدليّة المهينة عزّة وإبَاءً وشهامَةً تلحقه
بالرجال)) .

عندما تكون حالة القلب سليمة صافية للمؤمن العاقل فإنه يتطلع دائماً لأن تكون
كرامته عالية وثقته بنفسه قوية ويرفض الذل والمهانة والوضاعة، فلا يستطيع
الإنسان أن يصل لهذا إلا بقلب مملوء بالتقوى وعقل متدبر بإرادة صالحة، هو يعلم
أن العزة لله ولكن تطلب بطاعة الله ورسوله، وهذه بعض وصايا أمير المؤمنين علي

¹ - الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، ج3، مجلد 7 ص450.

كرم الله وجهه يوصي من أحب إياك والإعجاب بنفسك والثقة بما يعجبك منها
وعلم أن الإعجاب ضد الصواب وآفة الألباب⁽¹⁾.

والوضاعة ليست من سمات المؤمن العاقل.

○ قال تعالى: ﴿إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾ الشورى/39.

إن العزة والتمكين لا تأتي إلا من أحب الله ورسوله ﷺ.

○ قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ
بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ
فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَنَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ المائدة/54.

¹ - عبقرية الإمام عليّ كرم الله وجهه لـ عباس محمود العقاد، ص30.

البند الثاني عشر:

ثمرة إعمال العقل وسيلة

دراسة التاريخ والاعتبار من قصص القرآن

○ ﴿قَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ يوسف/11.

القصص القرآنية واقعية صادقة، تقوم بتأصيل التاريخ الصحيح، وهي أداة للتربية، وأداة للتذكير والاعتبار والاتعاظ، استرجعها الوحي للتعليم والاعتبار، والقصة القرآنية كأن أحداثها شريط حي أمامنا، نشاهد العراك بين الحق والباطل، بين أهل الإصلاح والإفساد.

وتعلمنا أن الذين أسرفوا واستكبروا بغير حق أصموا أذانهم عن سماعه، فكان مصيرهم!؟

○ قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ 83 ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدَّةً وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ 84 ﴿فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾
غافر/83-85.

اندثرت هذه الأمم وبقيت أثارها لتعلمنا، ونعتبر مما حل بهم من كوارث وابتلاءات ربانية، إنها سنن الله في أرضه نتيجة حتمية للكبر والجحود والعتو والبطر على الحق، وأهل العقول تلهمهم هذه القصص ليتعضوا من تجارب الآخرين والاطلاع على حضارتهم والاستفادة من تجاربهم، إنها دروس التاريخ الماضي:

○ قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾
الحج/46.

أثارهم باقية وسيرتهم محفوظة في القرآن وصاحب النظر العقلي يعي ويفهم
ويعقل معاني القصص:

○ ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ العنكبوت/35.

فقصة لوط عليه السلام مع قومه ونهايتهم:

○ ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِّن سَجِيلٍ
مِّنْضُودٍ﴾ 82﴿ مَسُومَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بَبَعِيدٍ﴾ هود/82-83.

كثرة المعاصي تهلك الأمم لأنها استقرت في النفوس لضعف الوازع الديني، فأكثرهم
لاهية قلوبهم وعقولهم واهية، فيقود الهوى النفوس إلى الهلاك، بل تعودوا على
ذلك وأصبح تقليداً متبعاً فيهم فيكون النهي عن المعاصي مستغنياً بل وجريماً!
فيمسي الطُّهر منكرًا:

○ ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ
يَتَطَهَّرُونَ﴾ الأعراف/82.

وهكذا كانت الأمم الماضية أكثرها سادت ثم بادت...

إنه تاريخ الأمم المسطور في كتاب الله، تظهر فيه سنن الله:

○ ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ الفتح/23.

عبرة وتذكرة أليست قصة يوسف تعلمنا أن الحسد والحقد يمتلك قلوب
ضعاف الإيمان.

وتعلمنا أن من صبر ظفر:

○ ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ يوسف/22.

تعلمنا قصة يوسف أن النفس أمانة بالسوء إلا من رحمه ربه:

○ ﴿وَلَقَدْ رَاودَتْهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾ يوسف/32.

تعلمنا قصة يوسف أن أهل الإيمان والعزيمة لا يحبون الوضاعة ولا الشماتة قال لهم يوسف:

○ ﴿قَالَ لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمْ أَيُّومَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ يوسف/92.

تعلمنا قصة يوسف أن أهل التقوى هم أهل الثبات والنجاح: من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين.

في نهاية قصة يوسف تحث الآيات أصحاب العقول على الاستفادة والاتعاظ والاعتبار من قراءة وفهم ودراسة التاريخ لأخذ العبرة وأن العاقبة للمتقين.

قال الإمام علي كرم الله وجهه: ((ما أكثر العبر وما أقل الاعتبار)).

البند الثالث عشر:

ثمرة إعمال العقل وسيلة إجرائية

لفهم الأمثال القرآنية لمعرفة دلالاتها العقلية

إن الأمثال وعاء وخزان تجارب الأمم، وتمثل جزء من العرف فيها، وأهم وسائل حفظ الموروث الشعبي تتناقلها عبر الأجيال، وبالأمثال تعرف كثيراً من أخلاق وعادات الأمم.

المثل: عبارة عن قول في شيء يشبه قولاً في شيء آخر بينهما مشابهة ليبين أحدهما الآخر ويصوره.

ضرب الله الأمثال لتحريك ذهن العاقل لفهم الحدث وتعليقه والتفكير به ودراسته، قال تعالى:

○ ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ لَضَرِبِهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ الحشر/21.

فوظيفة المثل هي الإقناع والبيان بظهور حجة واضحة بينة لمن يعقله، فيعين صاحبه لفهم المثل والتفكير به⁽¹⁾.

ضرب الله عز وجل الأمثال في القرآن لأن الأمثال أمور محسوسة يستدل بها على أمور غير المحسوسة، والأمثال يفهمها أهل العقول المستتيرة لغناها بالوعظ والاتعاظ.

○ ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ لَضَرِبِهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ العنكبوت/43.

وهذا مدح للأمثال التي يضربها، وحث على تدبرها وتعقلها ومدح لمن يعقلها، وأنه من أهل العلم، فعلم أن من لم يعقلها ليس من العالمين⁽²⁾.

¹ - المفردات في غريب القرآن للأصفهاني، ص 464.

² - تيسير كريم الرحمن للسعدي، ص 638.

هذا هو وظيفة المثل القرآني للبيان والإقناع، فدرجة فهمه وتعقله يقرب العبد العاقل من ربه ويعرفه على قدرته، بهذا الإجراء الذهني للعقل يساعد المثل التعرف على خالق الوجود وعظمته.

والأمثال تتضمن تشبيه الشيء بنظيره.

فضرب الأمثال في القرآن الكريم يقوي عملية التفكير العقلي وتحليل المعطيات:

○ قال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ

خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ الحشر/1.

يقول تعالى معظماً الأمر القرآن ومبيناً علو قدره وأنه ينبغي أن تخشع له القلوب، وتتصدع عند سماعه لما فيه الوعد الحق والوعيد الأكيد، فإذا كان الجبل في غلظته وقساوته، لو فهم هذا القرآن فتدبر ما فيه لخشع وتتصدع من خوف الله عز وجل، فكيف يليق بكم يا أيها البشر ألا تلين قلوبكم وتخشع وتتصدع من خشية الله، وقد فهمتم عن الله أمره وتدبرتم كتابه⁽¹⁾.

¹ - مختصر تفسير ابن كثير للصابوني، ج3، ص474 - 475.

البند الرابع عشر:

ثمرة إعمال العقل التسليم المطلق

بالقضاء والقدر ورفض الصدفه

القدر هو العلم الإلهي الذي قدره الله سبحانه من أمور خلقه في علمه الأزلي الغيبي المسطور في كتاب اللوح المحفوظ:

○ ﴿لَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ الحج/70.

القدر صورة محفوظة تطابق الأصل بلا زيادة ولا نقصان، فلا يقع أمر، ولا يحصل شيء إلا بعلم الله، ومسطور في اللوح المحفوظ:

○ قال تعالى: ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ سبأ/3.

القضاء : هو ما حكم به الله سبحانه من أمور خلقه وأوجده في الواقع.

من لزوم الإيمان بالله عز وجل الإيمان بقضائه وقدره خيره وشره والرضا والتسليم المطلق به، يا عاقل اعمل بإحسان وحسن تصرف وتوكل على الله وفوض أمرك لمسبب الأسباب بعد تدوير الزوايا ولا تعجز، والنتيجة من الله عز وجل وقل قدر الله وما شاء فعل.

وعنه ﷺ: ﴿أَحْرَصُ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَأَسْتَعِينُ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجِزْ، فَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَقُلْ قَدَرَ اللَّهُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ﴾⁽¹⁾.

¹ - أخرجه مسلم.

فقد دلَّ هذا الحديث أن القدر سابق للأحداث، وأن كل ما يحصل في الكون من الله تعالى وتقديره، والحذر لا ينجي من القدر:

○ كما قال المصطفى ﷺ: «كُلُّ شَيْءٍ بِقَدَرٍ حَتَّى الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ»^(١)، رواه الترمذي.

فالعاقل يفهم أن كل ما يجري في الكون من أحداث مهما صغرت أو كبرت، يعلمها الله قبل حدوثها، ولا تأتي عبثاً وصدفة، بل حكمة من الله تعالى ويعلم منه، وقد ندرك الحكمة وقد لا ندرك معناها، والمؤمن العاقل عليه التسليم الكامل، والثقة المطلقة بالله وأنه لا يظلم وهو الحق والعليم الحكيم في قضائه وقدره. ((والحكيم الدال على ثبوت كمال الحكم لله وكمال الحكمة:

○ «أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ» التين/8.

فثبوت الحكمة له سبحانه في خلقه وفي أمره وشرعه، حيث يضع الأشياء مواضعها وينزلها منازلها))^(٢)، والعاقل عليه الاستسلام والرضا بحكم الله لأن الله لطيف لما يشاء:

○ قال تعالى: «إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ» يوسف/100.

والحق نقيض الباطل والعبث والصدفة، يقال: ((الحق الموجد الشيء، بسبب ما تقتضيه الحكمة ولهذا قيل، في الله تعالى: ((ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال))، لهذا يقال في فعل الله تعالى كله حق^(٣):

○ «مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ» يونس/5.

¹ - الشيخ محمد علي الصابوني آمنت بالله، الناشر- المكتبة العصرية، ص273.

² - فقه الأسماء الحسنی لـ د. عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر، ص209-210 بتصرف.

³ - المفردات في غريب القرآن للأصفهاني، ص132.

أي لم يخلقه عبثاً بل له حكمة عظيمة في ذلك وحجة بالغة وليس عبثاً:

○ ﴿فَحَسْبُتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ المؤمنون/115⁽¹⁾.

والله عز وجل الذي يدبر الأمر: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ يونس/3، قال مجاهد: ((يقضيه ويقدره وحده: وقيل: يأمر به ويمضيه... وحقيقة تنزيل الأمور في مراتبها على أحكام عواقبها))⁽²⁾.

لذا سأتطرق هنا إلى ثمرة إعمال العقل لفهم الأسباب والمسببات:

العاقل يفهم ارتباط الأسباب والمسببات والقضاء والقدر والعلة والمعلول.

أليس للبشر دور فيما يحصل لهم من الإهلاك؟، بالتأكيد لأن الإنسان مخير وإرادته ومشيتته بقرار منه.

فلا يقع الإهلاك من الله إلا بعد حدوث الظلم من البشر والجزاء من جنس العمل افتراء على الله - الظلم - الفساد - الغفلة - الكفر - الغبن في الأرض - الإسراف - الطغيان الاستكبار - الجحود - وانحراف عن الفطرة السليمة، كلها أسباب لكن العاقبة:

○ ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ يونس/39.

○ ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ﴾ يونس/73.

إذا كان الله سبحانه وتعالى قد سخر ما في الأرض جميعاً للإنسان، فالإنسان لمن؟ الجواب: أن الإنسان لله، من واجبه عليه أن يقوم بحق هذا الإله، فيعبده ويشكره

¹ - مختصر تفسير ابن كثير للصابوني، ج2، ص182.

² - الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ج2، المجلد الرابع ص458.

على نعمه، فإذا انحرف الإنسان عن هذا الهدف فقد ضل سواء السبيل، والعقل إذا ترك وشأنه فإنه يعترف بقانون السببية، أي لا يوجد ثمة فعل بغير فاعل، ولا صنعة من غير صانع، وقد وضع ذلك في قول هذا الأعرابي، وقد سئل: ((أتعلم خالقاً لهذا الكون؟ قال: يا سبحان الله، البعرة تدل على البعير، والقدم على المسير، أفأرض ذات فجاج، وسماء ذات أبراج، وبحار ذات أمواج، ألا تدل على اللطيف الخبير))⁽¹⁾.

وسأل هارون الرشيد الإمام مالك عن دليل بأن لهذا الكون صانعاً، فاستدل باختلاف الأصوات وترديد النغمات، وتباين اللغات، وصدق الله حين قال:

○ ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخَتَمَ عَلَيْكُمْ وَطَنَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾ الروم/22.

منهم من آمن بالله، ومنهم من استحب العمى والضلالة بإرادتهم وقرارهم ومشيتهم:

○ قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمُ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهَوْنِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ فصت/17.

السبب أنهم رفضوا الإيمان فكان طريقهم الضلال بإرادتهم:

○ ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ يونس/52.

○ ﴿كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ يونس/33.

¹ - د. محمد الصادق عفيفي: الفكر الإسلامي مبادئه، مناهجه، قيمه، أخلاقياته، مكتبة الخانجي، ص43..

فمن فهم الأحداث وصيرورتها التاريخية، وفهم العلة والمعلول فهم معنى القضاء والقدر، وأن الجزء من جنس العمل، فالإسراف والبطر تكون نتيجته هكذا:

○ قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ النحل/112. والعلة هنا أنهم كفروا بأنعم الله.

والنتيجة ﴿فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ أي فقدوا الأمن ومسببات الحياة من المأكل والمشرب لكفرهم بأنعم الله، أليس هذا من صنع إرادتهم!، لكنهم لو أعزوا النعم لأدامها الله لهم .

○ قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ الكهف/59.

إنه دين العلم دين يعرفك بالعلة والمعلول، عندها نفهم معنى القدر، فقدر الله هو علمه الأزلي الغيبي المسطور في كتاب اللوح المحفوظ، وأنواع القدر كثيرة منها لا قدرة لأي مخلوق على رده أو دفعه، ويقع ضمن حركة الكون وقوانينه المسيرة بأمر الله كالسوف والخسوف والانفجارات الكونية، وحركة الأجرام:

○ ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ يس/38.

وجزاء منه يقع على أهل الأرض كالموت والبلاء والرزق:

○ قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ آل عمران/185.

○ ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ الرعد/26.

هذا النوع من القدر المسطور لا يمكن بأي حال لأهل الأرض رده أو دفعه لكن الإنسان له المشيئة وإرادة اختيارية، ولهذا أقام الله عليه الحجة بالتكاليف الشرعية فالإنسان تقع عليه المسؤولية الاختيارية المتصلة بالأعمال الاختيارية، وهنا الجزاء من جنس العمل بها يتعلق الثواب والعقاب وبها يفوز بالفوز المبين وجنة عرضها السموات والأرض لأنه نجح في الامتحان والاختبار، ومنهم من ضل فخسر الخسران المبين، ونار الجحيم مصيره فالذي يعتقد بأن الله عز وجل يجبر أحداً على طريق الضلال ليدخله النار هو جاهل متهافت عقلياً، فالله تعالى أعظم وأجل وأعدل، لكن الإنسان هو المسؤول بإرادته الاختيارية السير على طريق الهداية أو الضلال، فلا احتجاج على القدر يا أيها الإنسان:

○ ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ الكهف/29.

فأهل الشقاء هم أرادوا ذلك:

○ ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ يونس/52.

○ ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ التوبة/70

أعمالكم وتصرفاتكم الحمقاء وجحودكم لله تعالى واستكباركم أوصلكم إلى دار الشقاء الأبدي فلا تعتذروا اليوم إنما هو جزاؤكم:

○ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ التحريم/7.

والقضاء والقدر من أركان الإيمان، فالذي يؤمن بالقضاء خيره وشره ستظهر عليه علامات:

■ الاستسلام لحكمة الله والتوكل عليه يقيناً: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ

اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَالْتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ التوبة/51.

■ الإيمان بالقضاء والقدر يجعل المؤمن العاقل المتبصر يرفض الجذع والخوف عند ملاقاته العدو.

يقول أبو بكر رضي الله عنه لخالد بن الوليد رضي الله عنه: ((احرص على الموت توهب لك الحياة)).

■ الإيمان بالقضاء والقدر تعطي الثقة والعزة للمؤمن، لأنه عزيز بإيمانه بالله فلا يذل لأحد إلا لله سبحانه.

لأنه علم أن النافع والضار والمعز والمذل هو الله ولا يحدث شيء إلا بأمر الله، فالخلق خلقه والأمر أمره فهل بقي لأحد شيء بعد ذلك! فلا يؤخر أمراً إلا لخير ولا يحرملك أمراً إلا لخير، فالخيرة فيما اختاره الله لنا:

○ ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ يونس/49.

○ ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ التغابن/11.

لا ملجأ إلا إليه ولا غوث إلا به والتسليم بقضائه وقدره في كل الابتلاءات والمصائب والمحن التي يمر بها المؤمن العاقل عليه أن يتضرع إلى خالقه لكي يفرج همه وغمه والرضا ثم الرضا بقضائه وقدره والتسليم لأمره عندها يرفع الابتلاء:

○ قال تعالى: ﴿وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ يونس/107.

إذاً لا يرفع الابتلاء إلا بالتسليم المطلق بقضاء الله خيره وشره وهنا نفهم حكمة الابتلاء، والمحن عين المنن، وما يأتي من الله كله خير.

○ ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ﴾ البقرة/216.

فلا تلوذ بقوتك ولا عقلك ولا مالك، بل قلّ ألوذ بك يا الله، وقل الحمد لله
عل اقدار الله كلها .

وسمي التكليف بلاء من أوجه:

أولها: أن التكليف كلها مشاق على الأبدان فصارت من هذا الوجه بلاء.

وثانها أنها اختبارات:

○ قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ
أَخْبَارَكُمْ﴾ محمد/31 .

وقد تكون شدة البلاء عظيمة مترافقة مع حزن أليم، كقول زينب رضي الله عنها
لحظة وداعها لأخيها الحسين عليه السلام: ((لقد قطعت نياط قلبي يا أخي)).

وثالثها: أن اختبار الله تعالى للعبادة تارة بالمسار ليشكروا وتارة بالمضار ليصبروا،
فصارت المحنة والمنحة جميعاً بلاء.

والقيام بحقوق الصبر أيسر من القيام بحقوق الشكر، فصارت المنحة أعظم
البلاءين، وبهذا النظر قال عمر: ((بلينا بالضراء فصبرنا وبلينا بالسراء فلم نصبر،
وقال: من وسع عليه دنياه فلم يعلم أنه قد مكر به فهو مخدوع في عقله))⁽¹⁾.

والابتلاء بكل أنواعه بحاجة ماسة إلى الصبر، لكي ينجح الإنسان في الاختبار،
وذلك بضبط داعي هواه وشهوات نفسه ليكون عبداً مستسماً لله ولا يتم إلا
بالخضوع والصبر لحكمته النافذة وبكامل المحبة، لا مكان للسخط مطلقاً، وانتظار
الفرج عبادة لأن الابتلاء لا يدوم.

ففاعلوا معاً لتتعرف على ثمرة إعمال العقل وسيلة للثبات والصبر على البلاء.

¹ - المفردات في غريب القرآن للأصفهاني، ص71.

البند الخامس عشر:

ثمرة إعمال العقل وسيلة

للثبات والصبر على الابتلاء

الصبر: الإمساك في ضيق، والصبر حبس النفس على ما يقتضيه العقل والشرع أو كما يقتضيان حبسها عنه، فالصبر لفظ عام وربما خولف بين أسمائه بحسب اختلاف مواقعه، فإن كان حبس النفس لمصيبة سميت صبراً لا غير ويُضدّه الجزع، وإن كان في محاربة فسمي شجاعة ضدها الجبن، وإن كان في نائبه مضجرة سمي رحب الصدر وتضاده الضجر، وقد سمى الله تعالى كل ذلك صبراً ونبه عليه بقوله:

○ ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ البقرة/177.

○ وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ آل عمران/200.

أي احبسوا أنفسكم على العبادة وجاهدوا أهواءكم، وقوله: واصطبر لعبادته أي تحمل الصبر بجهادك، والصبور القادر على الصبر والصابر، يقال إذا كان فيه ضرب من التكلف والمجاهدة، بقوله إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور⁽¹⁾.

فحكمة الله في خلقه للبشر أن ركب لهم العقل والشهوة، فمن عبّد نفسه وطوعها على أن تعقل ما أمر الله، ونهى النفس عن ما حرم الله، عندها يصل إلى كامل

¹ - مفردات غريب القرآن للأصفهاني، ص 277.

التسليم لخالفه، وقد قيل: ((واعلم وفقك الله، أن الصبر مما يأمر به العقل، وإنما الهوى ينهى عنه))⁽¹⁾.

فكلما صبر العبد على المكاره كلما صعدت وارتقت نفسه وسمت للأعلى، وهنا تظهر حكمته سبحانه وتعالى في التفاوت بين العباد وتحمل مشاق الطاعات والصبر عليها بالخضوع والتذلل لمسبب الأسباب، ودوام شكر العبد لما حل له، والشكر يقتضي التواضع والاعتراف بفضل الله، وبالشكر تدوم النعم، والخوف كل الخوف من أن نألف النعم ونتعود عليها نعمة الأمن - نعمة الصحة، فألفها دون شكر منعمها الله عز وجل تكون غفلة ونسيانها جحوداً:

✓ ﴿تَن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ ابراهيم/7.

وما الصبر إلا فعل اختياري عقلي ضابط للإرادة الإنسانية التي يتحكم بها المؤمن العاقل التقى ويحتسب الأجر على الله بنيته الصادقة لوقف وحجر داعي الهوى، والانفعال، والتهور المذموم، فيدفعه دفعاً للابتعاد عنه:

✓ الصبر عن شهوة الجنس سمي عفة.

✓ والصبر عن إجابة داعي الغضب سمي حلاًماً.

✓ والصبر عن إجابة داعي الانتقام والتشفي سمي صنفحاً.

✓ والصبر عن إجابة داعي الحقد والضعينة سمي تسامحاً.

✓ بالصبر يخمد داعي الشيطان ويجعله خامداً فتتحول النعمة إلى نعمة.

¹ - ذم الهوى للإمام أبي الفرج بن الجوزي، ص 63.

قال رسول الله ﷺ: ﴿الصَّبْرُ ضِيَاءٌ﴾⁽¹⁾ لأنه نور من الله، يرسله للمؤمن، ليعصمه من الانهيار نتيجة الابتلاء، فيكون الصبر ضياءً وسكينة له لأنه قضاء الله، فيتماسك وينتظر الفرج:

○ قال تعالى: ﴿وَأَنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ آل عمران/186. المؤمن العاقل يؤمن بأن الخير كله من الله عز وجل، وأن عليه الصبر والشكر في السراء والضراء:

○ قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنِ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ التغابن/11.

○ قال رسول الله ﷺ: ﴿الْإِيمَانُ نِصْفَانِ: نِصْفُ صَبْرٍ، وَنِصْفُ شُكْرٍ﴾⁽²⁾. بهذا الصبر يُثَبَّتُ باعث الخير في قلب المؤمن ممزوجاً بالسكينة وبه تقمع الشهوات وقهرها (باعث الهوى)، وأوليس من المهام الأساسية للعقل الضبط ونهي النفس عن الهوى.

وأصل كلمة الصبر: هو المنع والحبس، فالصبر حبس النفس عن الجزع، واللسان عن التشكي، والجوارح عن لطم الخدود وشق الثياب ونحوهما⁽³⁾. والصبر هو حبس النفس على ما تكره ابتغاء مرضاة الله:

○ قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ الرعد/22.

¹ - أخرجه مسلم برقم/223/ جزء من الحديث.

² - أخرجه أبو منصور الديلمي.

³ - ابن القيم: عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين، ص14.

العاقل يفهم بأن عليه حبس النفس عن الجزع والهلع فيضبطها بقوة الإيمان، ويرضى بقضاء الله خيره وشره ويدعو الله ليكشف الضر والسوء، ويشكر الله في السراء والضراء، قال رسول الله ﷺ: ﴿عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَهُ سُوءٌ شُكِرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ، صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ﴾⁽¹⁾.

لأنه يعلم بأن الله تعالى يملك الضر والنفع:

○ ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ يونس/49.

فالعاقل أوعى بأن عليه الاستعانة بطوق النجاة، بالصبر والصلاة:

○ قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ

الصَّابِرِينَ﴾ البقرة/153، بالصبر تناولوا كل فضيلة، وبالصلاة تنتهون في كل رذيلة⁽²⁾.

فتعالوا ندعُ الله عزَّ وجل اللهم اهدني الصبر وحسن التصرف، اللهم اجعلني صبوراً، واجعلني شكوراً.

بعد أن تحدثنا عن بعض ثمرات إعمال العقل سنتجه إلى من تهاقت عقولهم.

تعالوا نتابع معاً...

¹ - رواه مسلم.

² - صفوة التفاسير للصابوني، ص90.

تهافت عقول الأشقياء

إن المعركة بين الحق والباطل ليست جولة واحدة، إنها صراع طويل:

○ يقول تعالى: ﴿لِيُهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ﴾ الأنفال/42.

الإسلام دين القيم الحكيمة لكن بالطرف الآخر يوجد من يحمل مفاهيم شريرة يعتقد أنها قيم بل الغرابة كل الغرابة أن أكثر الناس يعبدون أهواءهم، بدلاً من عبادة الله فاطر السموات والأرض الذي أحسن إليهم وأكرمهم، ما هذا التناقض العجيب؟! يعتقدون أنها مفاهيم وقيم خاصة بهم؟! منهم من يعبد البشر، ومنهم من يعبد البقر، والشمس، والقمر، نعم اجتالتهم شياطينهم ونفوسهم الأمانة بالسوء عن الطريق المستقيم.

هذا الانزلاق في متاهة الهوى، هو انفلات النفس من قيود الأوامر الإلهية، فالإنسان بما حمل من أفكار وبياراته التي بناها لنفسه سيكون المسؤول عنها، فمن أحب العزة والعلو الإيماني ارتفع بعقله السليم ورفع معه نفسه فارتقت وسمت نفسه، وأما الجاهل بربه فشرد هواه وضل ضلالاً بعيداً.

قال عبد الله بن مسعود: لأصحابه في ذلك الحين: ((أنتم في زمان يقود الحق الهوى، وسيأتي زمان يقود الهوى الحق فنعوذ بالله من ذلك الزمان)).

عندها تكون الغلبة والقوة لداعي الهوى فيسقط منازعة الدين بالكلية فيستسلم البائس للشيطان وجنده، فيقودونه حيث شاءوا وله معهم حالتان:

إحداها: أن يكون من جندهم واتباعهم، وهذا حال العاجز الضعيف.

والثانية: أن يصير الشيطان من جنده وهذه حالة الفاجر القوي المتسلط كما قال قائل: ((وكنت إمرأً من جند إبليس فارتقى بي الحال حتى صار إبليس من جندي))⁽¹⁾.

إن التصورات والخواطر السلبية والأفكار الواهية تنشئ ظنوناً واهية نتيجة استنتاجات ذهنية جاهلة تميل بصاحبها إلى الهاوية.

○ قال تعالى: ﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ﴾ النساء/157.

لأن العقل المتهاوي لم يستطع التحكم وضبط هذه الأهواء والشهوات والآراء والمعتقدات الفاسدة، فكان مصيرهم الضلال:

○ ﴿وَإِنْ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ الأنعام/119.

عندها تتشكل قناعات واهية ثم يتعشقها القلب وتتحول إلى صفة يحملها الإنسان ويسمى باسمها فتسول له نفسه الأمانة بالسوء عمل القبائح والفواحش:

○ ﴿بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ

فِيهَا خَالِدُونَ﴾ البقرة/81.

¹ - ابن القيم: عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين، ص48.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ﴿لَا يَدْخُلُ النَّارَ إِلَّا شَقِيٌّ قِيلَ: وَمَنِ الشَّقِيُّ؟ قَالَ الَّذِي لَا يَعْمَلُ بِطَاعَةٍ، وَلَا يَتْرِكُ لِلَّهِ مَعْصِيَةً﴾⁽¹⁾.

هؤلاء يملكون قلوب لاهية غافلة مشحونة بحب الهوى والشهوات المنكرة فتتهافت عقولهم بتلذذهم وتطبعهم بخدمة أهوائهم فلا يتركون لله معصية.

وأهم أسباب تهافت عقول الأشقياء (الشطط العقلي): الانحراف الفكري للنفس البشرية عن الفطرة التي فطرها الله عليها إلى عشق العقائد الفاسدة، فالإيمان لا يصح مع عقل أسن متعفن.

الذين يحملون لواء الإلحاد فتتكر قلوبهم بالإيمان بالله تعالى، لأن الملحد يريد إله على هواه حتى يؤمن به، هؤلاء المهزومين يمجدون أوهامهم وأفكارهم الميتة.

○ ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ الجاثية/24.

يحملون أفكاراً واهية يدافعون عنها ويستमितون إليها، وما لهم بها من علم إلا استكباراً عن الحق واتباع الظن، هم الذين وضعوا الأغلال والقيود في عقولهم المتهافئة.

○ قال تعالى: ﴿صُمُّ بَكْمٌ عُمِّيٌّ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ البقرة/171، وهكذا سلب الله عز وجل عقولهم:

¹ - أخرجه الإمام أحمد.

صفات الحمقى المتهاففة عقولهم:

حب الهوى: هو ميل النفس إلى ما تستلذه من الشهوات، من غير داعية الشرع وتؤدي إلى الشطط العقلي وتهافته، فالهوى: ميل الطبع إلى ما يلائمه⁽¹⁾.

وهذا الميل قد خلق في الإنسان لضرورة بقائه، فإنه لولا ميله إلى المطعم ما أكل، وإلى المشرب ما شرب، وإلى المنكح ما نكح، وكذلك كل ما يشتهي، فالهوى مستجلب له ما يفيد، كما أن الغضب دافع عنه ما يؤذي فلا يصلح ذم الهوى على الإطلاق، وإنما يذم المفراط من ذلك، وهو ما يزيد على جلب المصالح ودفع المضار⁽²⁾.

فالنفس تهوى ابتداءً وتشتهي ما يضرها ولا ينفعها فتسول لصاحبها القيام بذلك، وكلما كان طبع الإنسان ميالاً لهوى النفس كلما ابتعد عن التكاليف الشرعية وكلما ابتعد عن الإيمان وعن وعي العقل، وعلى عكس المؤمن العاقل الذي ضبط هواه وشهواته بقيود التكاليف الشرعية.

فالإفراط في الهوى مذموم عقلاً، لأنه يهوى بصاحبه إلى النار، وينساق لهواه حتى يصبح معبوده فيضله عن الصراط المستقيم، وهذه العقول التي لم تعقل مهمتها، فتصبح شاردة تائهة غافلة، لأن هوى النفس وشهواتها تمادت حتى ركبت العقل فقادته إلى الهاوية، وركبت النفس الخبيثة والأمارة بالسوء:

○ ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ الجاثية/23.

وها هو إبراهيم (عليه السلام) يقول لقومه:

¹ - علي بن محمد الجرجاني: في التعريفات، ص320.

² - ابن الجوزي: ذم الهوى والشهوات، ص27-28.

○ ﴿أَفِ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ الأنبياء/67.

○ ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ص/26.

وعن قتادة قال: ((كلما هوى شيئاً ركبه، وكلما اشتهى شيئاً أتاه لا يحجزه عن ذلك ورع، ولا تقوى))⁽¹⁾.

فالمعاصي سببها هوى النفس، والانقياد إليها توصله إلى الهاوية والزيغ:

○ ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ الصف/5.

فالحذر الحذر من مهادنة النفس والسير معها دون ضابط عقلي، قال بشر: ((اعلم أن البلاء كله في هواك، والشفاء كله في مخالفتك إياه))⁽²⁾.

فالجاهل هو من يتبع هواه في لذة محرمة وشهوة تورث ندماً، أما العاقل بإرادته العاقلة الواعية يعرف عاقبة هذه اللذات، فيقمع طبعه، ويكبح هواه، ويدفعه دفعاً بعزيمة الإرادة.

فتستقر وتثبت القيم التكليفية له:

○ ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ 40 ﴿فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ النازعات/40.

إنه يعلم أن عواقب اتباع الهوى والشهوات وخيمة في الدنيا والآخرة، أما الجاهل الأحمق فلا يعرف أن الهوى إن زاد يصدأ القلب برين الهوى، فيغلبه ويطبع على قلبه كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون وأشد من المعصية أن ينزع الله قبحها من القلب.

¹ - أضواء البيان للشنقيطي، ص1414.

² - د. ماهر بايزيد: لنين منظومتنا الأخلاقية ص110.

فلا يرى إلا هواه فيصبح أسيراً، فيشط عقله، ويصبح ذليلاً مقهوراً لأن هواه غلبه فيصبح كالكلب يلهث.

○ قال تعالى: ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحَمَلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَتْرَكُهُ يَلْهَثُ﴾ الأعراف/176.

لهذا حذر الله عز وجل من اتباع الهوى:

○ قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ الأنعام/159.

○ وعن عائشة، قالت: قال رسول الله ﷺ: ﴿أَيَا عَائِشَةَ: إِنَّ الَّذِينَ فَرَقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعاً مِنْهُمْ؟ قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمَ قَالَ: هُمْ أَصْحَابُ النَّهْوَاءِ، وَأَصْحَابُ الْبِدْعِ، وَأَصْحَابُ الضَّلَالَةِ، مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ، يَا عَائِشَةُ: إِنَّ لِكُلِّ ذَنْبٍ تَوْبَةَ، مَا خَلَا أَصْحَابَ الْأَهْوَاءِ وَالْبِدْعِ لَيْسَ لَهُمْ تَوْبَةٌ، أَنَا مِنْهُمْ بَرَاءٌ، وَهُمْ مِنِّي بَرَاءٌ﴾⁽¹⁾.

حب الشهوات:

أصل الشهوة نزوع النفس إلى ما تريده وقد تكون شهوة صادقة وشهوة كاذبة.

فالشهوة الصادقة: ما يختل البدن من دونه كشهوة الطعام عن الجوع.

والشهوة الكاذبة: ما لا يختل من دونه، وقد يسمى المشتهي شهوة وقد يقال للقوة التي تشتهي الشيء شهوة:

○ ﴿زَيْنٌ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ﴾ آل عمران/14⁽²⁾.

¹ - ابراهيم بن موسى الشاطبي: الموافقات في أصول الأحكام، الكتاب الثاني، ج4، ص81.

² - مفردات غريب القرآن للأصفهاني، ص271.

هؤلاء الذين شحنوا عقولهم بحب الشهوات الماجنة والخواطر الشريرة والقناعات الفارغة لكثرة الدواعي الشيطانية في قلوبهم فتظهر المورثات السلوكية السيئة للعيان، تطغى على قلوبهم فتتحول سلوكياتهم إلى سلوكيات دنيئة تنطبع على القلوب الغافلة والعقول التافهة:

○ كما قال تعالى فيهم: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾
الأعراف/179 .

○ وعنه ﷺ قال: ﴿وَأِنَّهُ سَيَخْرُجُ مَن أُمَّتِي أَقْوَامَ تَتَجَارَى بِهِمُ الْآهْوَاءُ كَمَا يَتَجَارَى الْكَلْبُ لِصَاحِبِهِ لَّا يَبْقَى مِنْهُ عُرْفٌ وَلَا مُفْصَلٌ إِلَّا دَخَلَهُ﴾^(١).

هؤلاء فقدوا حتى إنسانيتهم فكانوا كالذئاب المسعورة يبيطشون ويفعلون الرذيلة قلوبهم منكرة لأي وازع ديني.

○ قال رسول الله ﷺ: ﴿أَخَوْفُ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ: شَهَوَاتُ الْغِيِّ فِي بُطُونِكُمْ وَفُرُوجِكُمْ وَمَضَلَاتِ الْهَوَى﴾^(٢).

أوحى الله عز وجل إلى داود عليه السلام: ((يا داود حذر وأنذر أصحابك من أكل الشهوات، فإن القلوب المعلقة بشهوات الدنيا عقولها عني محجوبة وإن أهون ما أصنع بالعبد من عبيدي إذا أثر شهوة من شهواته أنه أحرمه طاعاتي))^(٣).

○ ﴿وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾ النساء/27 .

¹ - سنن أبي داود برقم/4597 .

² - رواه أحمد في مسنده .

³ - مختصر ابن كثير للصايني، ج2، ص455 .

المؤمن العاقل يجعل من عقله رقيباً ضابطاً على جميع شهواته وأهوائه، فيا أيها المؤمن العاقل تذكر قول رسول الله ﷺ: ﴿الْكَيْسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ الْأَمَانِيَّ﴾⁽¹⁾، والعاجز هو القاصر عن فعل الشيء، الكيس أي العاقل.

فالإسلام لم يمنع الشهوات - الأكل - الجنس - المال لكن شريطة عدم المغالاة:

○ ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ الأعراف/31.

ولم يحرم شهوة الجنس بل يجب تصريفها بالزواج الحلال:

○ ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ الروم/21.

وشهوة المال والسلطان:

○ قال تعالى: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ص/26.

إنما الذي حرمه الإسلام الإفراط والغلو بالشهوات.

وصى بعض الحكماء رجلاً، فقال: ((أمرك بمجاهدة هواك، فإن الهوى مفتاح السيئات وخصيم الحسنات وكل أهوائك بك عدو، وأهواها هوى يمثل لك الإثم في صورة التقوى))⁽²⁾.

¹ - رواه الترمذي/2459/وأحمد في مسنده.

² - أبو حامد الغزالي: مكاشفة القلوب المقرب إلى حضرة علام الغيوب، ص90.

النفس الأمارة بالسوء:

النفس الأمارة بالسوء تجعل الشيطان قرينها وصاحبها فهو يعدها ويمنيها، ويقذف فيها الباطل، ويأمرها بالسوء، ويربها الباطل في صورة تقبلها وتستحسنها، ويمدها بأنواع الإمداد الباطل من الأمانى الكاذبة والشهوات المهلكة⁽¹⁾.

فتظهر السلوكيات السيئة في هذا القلب وتطغى عليه لكثرة دواعي الشر وإغواء الشيطان ووسوسته فيه تقوى لمة الشيطان فيميل إلى الشر لضعف الأضداد فيه فالوسوسة في مقابلة الإلهام، والشيطان في مقابلة لمة الملك.

هنا عند هؤلاء الحمقى المتهافتة عقولهم قويت لمة الشيطان في قلوبهم، وظهرت المورثات السلوكية الإغوائية لعمل الشر والمعصية وخنست المورثات السلوكية الحسنة فيهم، لأنهم عبدوا أهواءهم فسلط الله عليهم شياطين الإنس والجن فكانت نفوسهم أمارة بالسوء:

○ قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ الجاثية/23.

فتعالوا معاً ندرس صفات الحمقى وتهافت عقولهم الذين ارتضوا أن يكونوا من جند إبليس، وأصر على إضلالهم قال تعالى:

○ ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ 16 ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ الأعراف/17.

¹ - كتاب الروح لابن قيم الجوزية، ص 289.

الغفلة وطول الأمل:

الغفلة سهو يعتري الإنسان من قلة التحفظ واليقظ، قال تعالى:

○ ﴿أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا﴾ الكهف/28.

عن ذكرنا أي تركناه غير مكتوب فيه الإيمان وقيل معناه من جعلناه غافلاً عن الحقائق⁽¹⁾.

هؤلاء يحملون عقولاً غافلة نتيجة انغماسهم بحب الدنيا وطول الأمل:

○ قال تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ الروم/7.

والله عز وجل كان لهم بالمرصاد:

○ ﴿سَاءَ صَرِفُ عَن آيَاتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغِيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ الأعراف/146.

○ وعنه ﷺ: ﴿أَوَّلُ صَلَاحِ هَذِهِ الْأُمَّةِ بِالْيَقِينِ وَالزُّهْدِ، وَأَوَّلُ فَسَادِهَا بِالْبُخْلِ وَالْأَمَلِ﴾⁽²⁾.

اتباع الظن:

وقد يكون الظن في كثير من الأمور مذموم قال تعالى:

¹ - المفردات في غريب القرآن للأصفهاني، ص 364.

² - رواه البيهقي في شعب الإيمان.

○ ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى النَّفْسُ﴾ النجم/23.

فالذين يتبعون الأوهام والظنون ينحرفون رويداً عن جادة الحق وتتحرف بوصلة عقولهم إلى الهاوية، وأصحاب الظنون السيئة لا يظنون بالناس إلا الشر، هذا هو خبث الباطن.

الوسوسة: الخطرة الرديئة، وأصله من الوسواس وهو الهمس الخفي:

○ ﴿فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ﴾ طه/120.

بهذه الوسوسة يحاول الشيطان أن يبرمج قلب الإنسان على بث الخواطر الشريرة، وبواعث الشر في قلبه لكي تنمو وتظهر حب السلوكيات السيئة في مورثاته القلبية فيتغلب عليه، فيأتيه من باب المعاصي، فإن امتنع يأتيه من باب البدع، فإن أبى يدخل عليه باقتحامه لوسوسته، فيشككه بصلاته ووضوئه، أو بيث وسوسته في قلبه، بأن أعماله الخيرة يحكى بها بين الناس، فيحيل قلبه إلى الزهو والإعجاب بنفسه وبه يهلكه، وبذلك يسعى الشيطان الرجيم إلى تغيير برمجة قلب الإنسان بزيادة بواعث الأنا والحق، فينقلب القلب قال تعالى:

○ ﴿وَنَقَلْنَا أَبْصَارَهُمَ﴾ الأنعام/110.

○ وعنه ﷺ قال: ﴿الْقَلْبُ فِي تَقْلِبِهِ كَالْقَدْرِ إِذَا اسْتَجْمَعَتْ غَلِيَانًا﴾⁽¹⁾.

الجحود العقلي:

نفي ما في القلب إثباته وإثبات ما في القلب نفيه⁽²⁾.

○ قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ النمل/14.

¹ - أخرجه أحمد والحاكم.

² - مفردات غريب القرآن للأصفهاني، ص95.

أي ليس جردهم مستنداً إلى الشك والريب، وإنما جردهم مع علمهم ويقينهم بصحتها ظلماً منهم لحق ربهم ولأنفسهم⁽¹⁾.

أي من داخلهم يعرفون الحق لكن عتوهم وجحودهم رفضوا الإيمان.

الضلال العقلي:

○ قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدَّوْا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا﴾

النساء/167.

الضلال: هو العدول عن الطريق المستقيم وضده الهداية ﴿فَمَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ يونس/108، ويقال الضلال لكل عدول عن المنهج عمداً كان أو سهواً، يسيراً كان أم كثيراً فإن الاستقامة والصواب يجري مجرى المقرطس من المرمى وما عداها من الجوانب كلها ضلال⁽²⁾.

ومن أصعب معاني الضلال، الضلال عن معرفة الله: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ النساء/136، وأصل الضلالة الحيرة والجور عن القصد وفقد الاهتداء.

فكل طريق لا يؤدي إلى المقصود كالذي يدور في حلقة مفرغة هو ضلال.

الكذب على الله ورسوله ﷺ:

○ قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا يَقْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾

المائدة/103.

¹ - تيسير الكريم الرحمن للسعدي، ص 607.

² - مفردات غريب القرآن للأصفهاني، ص 301.

اللهو العقلي:

ما يشتغل الإنسان عما يعنيه ويهمه، أي اشتغلت عنه بهلو⁽¹⁾.

لاهية قلوبهم وعقولهم فتركوا أهوائهم بدون تعقل ولا تدبر فأصبحت ساهية مشتغلة بما لا يعينها .

○ قال تعالى: ﴿ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمْلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ الحجر/3.

فمن أراد الانغماس واللهو في الدنيا أضاع آخرته، لأنه أثر الحياة الدنيا :

○ قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ 103 ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ

فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ الكهف/104 .

○ قال رسول الله ﷺ: ﴿مَنْ أَحَبَّ دُنْيَاهُ، أَضُرَّ بِآخِرَتِهِ وَمَنْ أَحَبَّ آخِرَتَهُ أَضُرَّ

بِدُنْيَاهُ، فَأَثَرُوا مَا بَقِيَ عَلَيَّ مَا فَتِي﴾⁽²⁾.

تزيين الشيطان لأعمالهم:

○ قال تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَّا لَهُمُ الشَّيْطَانَ أَعْمَالَهُمْ﴾ الأنفال/48.

هنا التزيين والزخرفة يختبئ داخله الشر والضلال فتعمى عقول بعض الواهمين لكي يصل الإنسان إلى الذلة وأهل الخسة والإفساد في الأرض لأنهم ارتضوا لأنفسهم وعقولهم أن تعبت بهم شياطين الإنس والجن، بتزيين الحرام حلال.

¹ - مفردات غريب القرآن للأصفهاني، ص 458.

² - رواه أحمد في مسنده.

جاء في الحديث القدسي: ﴿إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنْفَاءً، وَأَنْهَمُ أَنْتَهُمُ الشَّيَاطِينُ، فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَمْتُ عَلَيْهِمْ مَا أَحَلَلْتُ لَهُمْ وَأَمَرْتُهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أَنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾^(١).

رفاق السوء:

إن شياطين الإنس أخطر من شياطين الجن، لأنهم من بيئة واحدة، اجتمعوا على عشق الهوى وحب الشهوات.

وبها تقترب قلوبهم الخربة وعقولهم اللاهية والواهية فيتعلمون من بعضهم فنون العري، والسفاهة وشرب الخمر، والمخدرات، هؤلاء الصحبة السيئة التي تؤدي إلى الخذلان يوم القيامة:

○ قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعِضُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾⁽²⁷⁾ يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿28﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا﴾ الفرقان/29.

عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالْجَلِيسِ السُّوءِ كَحَامِلِ الْمَسْكِ وَنَافِخِ الْكَبِيرِ، فَحَامِلُ الْمَسْكِ إِمَّا أَنْ يَجْزِيكَ وَأَمَّا إِنْ تَبَتَّاعَ مِنْهُ، وَأَمَّا إِنْ تَجَدَّ فِيهِ رِيحاً طَيِّبَةً، وَنَافِخِ الْكَبِيرِ إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ، وَأَمَّا إِنْ تَجَدَّ رِيحاً خَبِيثَةً﴾^(٢).

فظاهرة إدمان الشباب للمسكرات والمخدرات، يؤدي إلى اختلال العقل بفقده الوعي والإدراك ويختل توازنه ويفقد الإنسان السيطرة على نفسه،

¹ - رواه مسلم، جزء من الحديث.

² - رواه مسلم/2628.

ويضطرب كلامه ويصبح كلامه هذيان، ولا يعرف ما يقول وقد يشتم هذا وذاك، وتضطرب الرؤيا ويفقد التركيز لما حوله ويضطرب تفكيره فيتصرف تصرفات طائشة.

والخمر اسم لما خامر العقل وغطاه من الأشربة، وكل مسكر خمر لما روي عن أنس أنه قال: ((حرمت الخمر وهي من العنب، والتمر والعسل، والحنطة، والشعير، والذرة))^(١).

○ ﴿ثُمَّ يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدُّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ المائدة/91.

أما المخدرات فهي مواد طبيعية أو مصنعة، تحتوي على مواد مسكنة يستفاد منها للأغراض الطبية، لكن استخدامها بغير محلها والتعود عليها مما يزيد من سميتها على أجهزة الجسم وخاصة الجملة العصبية وبالتالي اضطراب الأوامر للجهاز الحركي للجسم مما يؤدي إلى الوهن والخمول وعدم الرغبة في العمل وتخور قوته بالكامل، وضعف التركيز، والتمييز، والوعي، والإدراك، فالمدمن على المخدرات بكافة أنواعها يجعل من نفسه سلعة رخيصة لبيع نفسه وعرضه للحصول على المخدرات فعندما يختل العقل يفعل بصاحبه الأفاعيل، فينزلق لمتاهات الهوى وحب المعصية ويزين الشيطان أعماله، فينفلت العقل من قيد الخضوع والطاعة:

○ قال رسول الله ﷺ: ﴿لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَشْرَبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَسْرِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَنْتَهَبُ نُهْبَةً يَرَفَعُ النَّاسُ إِلَيْهِ فِيهَا أَبْصَارَهُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾^(٢).

¹ - محمد علي الصابوني: روائع البيان في تفسير آيات الأحكام من القرآن، المجلد الأول، ص 407.

² - رواه البخاري.

الترف المادي والتقليد الأعمى:

الترف هو أول مظاهر الفساد في المجتمع، والمترفين هم الأدوات التي تفتك بجسم المجتمع لكي يصل إلى الهاوية إذا فسقوا:

○ ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاَهَا تَدْمِيرًا﴾ الإسراء/16.

وأما التقليد الأعمى:

○ ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا﴾ الأعراف/28.

هكذا هم دائماً يقولون وجدنا آباءنا يفعلون ويقولون ويؤمنون بهذا، ونحن كذلك نتبعهم فبدل أن يدركوا الحقائق ويتبعون الحق قلدوا آباءهم فكانت النتيجة تهافت عقولهم فهم على آثارهم يهرعون.

المجادلة بالباطل (وهو جدل مذموم) ليدحضوا به الحق:

أعموا أبصارهم وبصيرتهم عن صوت الحق، وعطلوا البوابات الإدراكية لعقولهم فكانوا أخس من الدواب، فلا قناعة عقلية فيما يقولونه، بل إظهار المرء والمجادلة، معاندة للحق من عند انفسهم.

○ قال تعالى: ﴿وَقَالُوا آلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِِنَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ الزخرف/58.

○ قال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصَّمُّ الْبَكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ الأنعام/22.

والمخاصمة بطبع الإنسان:

○ ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ النحل/4.

لكن أن يخاصم خالقه وينازعه في شرعة فهنا عين الكفر، هؤلاء يعتقدون في أنفسهم بأنهم يملكون العلوم والمعرفة لكنهم بالحقيقة لا يملكون إلا الدنائة، فلم تفرق عقولهم بين الخير والشر، منهم من تفنن في بث العقائد الباطلة المنحرفة عن الفطرة السليمة وعن شرع الله، ليدحضوا به الحق، لكن ديننا يجعل العقل رأس الفضائل ومناطق تكليفه، والعين الساهرة على شرعه:

○ ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ الرعد/19 .

وكثيراً من الناس من يتصلبون لأرائهم ويستमितون في الدفاع عنها، وهذا هو قمة الغلو فكل ما أنكره شرع الله فهو منكر ولو تعارف عليه الناس، وكل ما عرفه شرع الله فهو معروف ولو أنكره الناس.

الخيال العقلي:

الفساد الذي يلحق الحيوان فيورثه اضطراباً كالجنون والمرض المؤثر في العقل والفكر⁽¹⁾ قال تعالى:

○ ﴿مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ التوبة/47 .

○ وفي الحديث الشريف: ﴿مَنْ شَرِبَ الْخَمْرَ ثَلَاثًا كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ تَعَالَى أَنْ يَسْقِيَهُ مِنْ طِينَةِ الْخَبَالِ﴾ .

وكما حدثنا رسول الله ﷺ عن آخر الزمان أنه يزداد القتل بين أبناء الأمة قائلوا: ﴿وَمَعَنَا عُقُولُنَا يَوْمَئِذٍ ؟ ! قَالَ: أَنَّهُ لَتَنْزِعَ عُقُولَ أَهْلِ ذَلِكَ الزَّمَانِ وَتَخَلَّفَ لَهُ هِبَاءٌ مِنَ النَّاسِ يُحْسَبُ أَكْثَرُهُمْ إِنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ، وَلَيْسُوا عَلَى شَيْءٍ﴾⁽¹⁾.

¹ - مفردات غريب القرآن للأصفهاني، ص 148 .

الشطط العقلي:

هو جنوح بالقول بعيداً عن الحق ﴿لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا﴾ الكهف/14، وما القول والفعل إلا إرادة إنسانية عقلية، لأن بعضهم يبحثون عن الأفكار التافهة ويدافعون عنها، ويسمى شرود العقل حيث اصبح رهين أهواء النفس فابتعد عن الحق.

الاستعلاء العقلي وخفة العقل:

مثال ذلك فرعون حيث تشربت نفسه الخبيثة بأنه لا يقدر عليه أحد، بل وبمقدوره أن يلغي تفكير قومه:

○ ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ غافر/29.

السفه العقلي: أصل السفه في لغة العرب الخفة والرقّة.

السفيه: هو الذي لا رأى له في حسن التصرف، وبالتالي هو الجاهل ضعيف الرأي وقليل المعرفة ، وحقيقة السفه جهل الإنسان بمصالحه فلا يحسن التصرف، والذي يتصف بالسفه قليل العقل.

○ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ

هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ البقرة/13.

الغرور العقلي:

الغرور: كل ما يغرّ الإنسان من مالٍ وجاهٍ وشهوةٍ وشيطانٍ، وقد غرّ بالشيطان إذ هو أخبث الغارين بالدنيا لذا قيل الدنيا تغر وتضر^(٢)، ويقال غررت فلاناً أي نلت منه ما أريده .

¹ - أخرجه أحمد وابن ماجه .

² - مفردات غريب القرآن للأصفهاني، ص363.

○ ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ النساء/120.

اللغو العقلي:

اللغو من الكلام ما لا يعتد به، وهو الذي يورد لا عن روية وفكر، فيجري مجرى اللغا وهو صوت العصافير، وقد يسمى كل كلام قبيح لغواً:

○ قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ المؤمنون/3⁽¹⁾.

من أجل ذلك نهانا الله عز وجل الخوض مع أهل اللغو، بل والإعراض عن مجالسهم:

○ ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ الأنعام/68.

الجهالة العقلية:

ظلمة الجهالة العقلية تؤدي إلى عمى القلب، والجهل على ثلاثة أضرب:

الأول: وهو خلو النفس من العلم.

والثاني: اعتقاد الشيء بخلاف ما هو عليه.

والثالث: فعل الشيء بخلاف ما حقه أن يفعل سواء اعتقد فيه اعتقاداً صحيحاً أو فاسداً كمن يترك الصلاة متعمداً:

○ وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُؤًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ البقرة/67⁽²⁾.

¹ - المرجع السابق، ص 455.

² - مفردات غريب القرآن للأصفهاني، ص 109.

○ وقال تعالى: ﴿قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ تَأْمُرُوْنِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ الزمر/64.

ويقول ابن عاشور في تفسير الجهالة: ((تطلق على سوء المعاملة، وعلى الإقدام على العمل دون روية - أي دون تعقل وتدبر))، لهذا كان الجهل الحمق أصل لكل فساد، والجاهل يفعل بنفسه أكثر مما يفعل العدو بعدوه.

الحمق العقلي:

الحمقى هم الذين لا زَبَرَ لهم، وعنه ﷺ قال: ﴿وَأَهْلُ النَّارِ حَمْسَةٌ: الضَّعِيفُ الَّذِي لَا زَبَرَ لَهُ، الَّذِينَ هُمْ فِيكُمْ تَبِعاً لَا يَبْتَغُونَ أَهْلاً وَلَا مَالاً﴾⁽¹⁾.

وقوله ﷺ الضعيف الذي لا زَبَرَ له أي لا عقل له يزيره، ويمنعه عما لا ينبغي... ولعل المراد فيه أنهم الكسالى لا يسعون إلى تحصيل مال ولا ولد، وهم فيكم تبعاً اتباع للرؤساء، لا رأي لهم في الدين⁽²⁾.

المكر العقلي:

صرف الغير عما يقصده بحيلة، منه مكر مذموم وهو أن يتحرى به فعل قبيح، قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ فاطر/43، فانظر كيف كان عاقبة مكرهم، ومنه مكر محمود ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ آل عمران/54، وقال بعضهم: من مكر الله إقبال العبد وتمكينه من إعراض الدنيا ولذلك قال أمير المؤمنين ﷺ: ((من وسع عليه دنياه ولم يعلم بأنه مكر به فهو مخدوع عن عقله))⁽³⁾.

¹ - رواه مسلم، جزء من الحديث.

² - يحيى بن شرف النووي: شرح صحيح مسلم، ج1، ص314.

³ - مفردات غريب القرآن للأصفهاني، ص473.

المنكر العقلي:

وهو عكس الحسن، وهو الذي ينكره المجتمع والعرف وتقبحه الشريعة، لهذا فإنهم لا يملكون عقولاً ناهية تزجرهم عن القبائح والمنكرات لا باليد، ولا باللسان، ولا بالقلب.

○ ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ المائدة/79.

هؤلاء تتبعوا خطوات الشيطان:

○ ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ النور/21.

وذلك أنهم جمعوا بين المنكر والجهر به وعدم النهي عنه، والمعصية إذا فعلت ينبغي أن يستتر بها لحديث رسول الله ﷺ: ﴿مَنْ أُبْتَلِيَ مِنْكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ هَذِهِ الْقَادُورَاتِ فَلْيَسْتَتِرْ﴾⁽¹⁾.

الرجس العقلي:

○ قال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ يونس/100.

قال الرَّجَّاجُ: ((الرجس اسم لكل فاسد قذر من عمل، وقال أيضاً: الرجس اللعنة في الدنيا والعذاب في الآخرة)).

أي ويجعل العذاب على الذين لا يتدبرون آيات الله ولا يستعملون عقولهم فيما ينفع⁽²⁾.

¹ - صفوة التفاسير للصابوني، ص503.

² - المرجع السابق، ص510.

الخاطئون:

هم الذين كانوا يقصدون تعمداً عمل الخطيئة والإساءة عن قصد ونية مع سبق الإصرار، ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ﴾ 36 ﴿لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ﴾ الحاقة/36-37، والخاطئ هو القاصد للذنب العظيم، أما أهل الإيمان فإن كانت الخطايا من غير قصد فالتوبة والمغفرة لهم ﴿تَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ﴾ البقرة/58.

الزيغ العقلي:

هو الميل عن الاستقامة:

○ قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ الصف/5.

أي لما فارقوا الاستقامة عاملهم بذلك، فالزيغ، هو الميل عن الحق اتباعاً للهوى⁽¹⁾.

○ ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ آل عمران/7.

○ قال ﷺ: ﴿إِذَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ، فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَى اللَّهُ فَاحْذَرُوهُمْ﴾⁽²⁾، هؤلاء هم العلمانيون والمتورون الذين يحاولون المكر بالدين وأهله.

العتو العقلي:

حالة رفض الطاعة ولا سبيل لإصلاحها ومداواتها فعتوا عن أمر ربهم:

¹ - الموافقات في أصول الأحكام للشاطبي، الكتاب الثاني، الجزء الرابع، ص 84.

² - سنن أبي داود، رقم/4598.

○ ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ الأعراف/166.

العجز العقلي: العاجز هو القصور عن فعل الشيء^(١)، قال عليه الصلاة والسلام:
﴿وَالْعَاجِزُ مَنْ اتَّبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا﴾^(٢).

الجنون العقلي: حائل بين النفس والعقل^(٣).
الكبر العقلي:

هو مرض نفسي عقلي، فالكبر حالة التي يتخصص بها الإنسان من إعجابه بنفسه، وذلك أن يرى الإنسان نفسه أكبر من غيره، وأعظم الكبر التكبر على الله بالامتناع عن قبول الحق والإذعان بالعبادة قال تعالى:

○ ﴿سَاءَ صَرَفُ عَنْ آيَاتِي الَّذِينَ يَكْبُرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْعِغْيِ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ الأعراف/146^(٤).

الغل العقلي:

الغل مختص بما يقيد به فيجعل الأعضاء وسطه، وغل فلان قيد به:

○ قال تعالى: ﴿حُدُوهُ فَعُلُوهُ﴾ الحاقة/30.

○ ﴿إِذِ النَّعْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ﴾ غافر/71^(١).

¹ - المفردات في غريب القرآن للأصفهاني، ص 325.

² - رواه الترمذي/2459، جزء من الحديث.

³ - المفردات في غريب القرآن للأصفهاني، ص 106.

⁴ - المفردات في غريب القرآن للأصفهاني، ص 423 و 424.

وأهل الغلّ العقلي هم الذين يتصلبون لأرائهم وأفكارهم وقيدها بحيث لا يقبلون رأي الآخر ويستमितون في الدفاع عن أفكارهم المتطرفة.

الغي العقلي: الغي جهل من اعتقاد فاسد قال تعالى:

○ ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ فِي الْغَيِّ الْأَعْرَافِ/202﴾^(٢).

الخبث العقلي:

هو الفاسد ما يكره رداءة وخساسة محسوساً كان أو معقولاً وأصله الرديء الدخلة الجاري مجرى خبث الحديد، وذلك:

1- بتناول الباطل في الاعتقاد .

2- والكذب في المقال .

3- والتبجح في الأفعال .

قال تعالى: ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ الأعراف/157، أي ما لا يوافق النفس من المحظورات، قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ﴾ النساء/2، أي الحرام بالحلال ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ﴾ المائدة/100، أي الكافر والمؤمن والأعمال الفاسدة والأعمال الصالحة^(٣)، وقيل في خبيث الطوية: ((قد أُرْضِعَ بِلِبَانِ اللُّؤْمِ، وَرُبِّيَ فِي حَجَرِ الشَّرِّ، وَقُطِمَ عَنِ ثَدْيِ الْخَيْرِ، هُوَ عَصَارَةُ لُؤْمٍ فِي قَرَارَةِ خَبِيثٍ، فِي أَحْسَ جَنَّةٍ)).

البغي: تجاوز الحد في الفساد، ﴿يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ يونس/23.

¹ - المرجع السابق، ص 364.

² - المرجع السابق، ص 369.

³ - المرجع السابق، ص 147.

العقل الظلوم- الظلم: عن أهل اللغة وضع الشيء في غير مكانه إما بنقصان أو زيادة، والظلم يقال في مجاوزة الحق، ولهذا يستعمل في الذنب الكبير والصغير قال بعض الحكماء والظلم ثلاثة:

الأول: ظلم بين الإنسان وبين الله تعالى وأعظمه الكفر والشرك والنفاق:

○ قال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ لقمان/13 .

والثاني: ظلم بينه وبين الناس:

○ ﴿إِنَّهُ لَأُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ الشورى/40 .

والثالث: ظلم بينه وبين نفسه وإياه قصد بقوله:

○ ﴿فَمَنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ فاطر/32⁽¹⁾ .

وعلينا أن نفرق بين الظلم الذي هو أخذ حق الغير بدون قهر، والبغي الذي هو أخذ حق الغير تحت القهر وبالقوة، وكله يندرج تحت فعل إرادي عقلي.

الفساد العقلي:

الفساد خروج الشيء عن الاعتدال وضده الصلاح ويستعمل ذلك في النفس والبدن والأشياء الخارجة عن الاستقامة، بالتفكير والقول والفعل كفساد الفكر وفساد القول وفساد العقل فساد الدين بالمجمل:

○ ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمَلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ الروم/41 .

¹ - المفردات في غريب القرآن للأصفهاني، ص318.

الفسق العقلي:

فسق فلان خرج عن حَجْرِ الشَّرع، وأكثر ما يقال الفاسق لمن التزم حكم الشَّرع وأمر به ثم أخل بجميع أحكامه أو ببعضه، أي الخروج عن طاعة والدخول في كبيرة، كالذي يصلي ثم توقف عن الصلاة، وهناك فسق عمل وفسق عقيدة:

○ ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ﴾ السجدة/18.

○ وإذا قيل للكافر الأصلي فاسق فلأنه أخل بحكم ما ألزمه العقل واقتضته الفطرة، قال تعالى:

○ ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ الكهف/50.

○ ﴿وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ النور/55.

فالفسق أعم من الكافر والظالم أعم من الفاسق⁽¹⁾.

الذل العقلي: ما كان عن قهر، ويقال الذلة والقلّة:

○ قال تعالى: ﴿تَرَهَقُهُمْ ذُلَّةٌ﴾ القلم/43.

○ ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذْلِينَ﴾ المجادلة/20.

إن الذين يحادون الله ورسوله داخلون في جملة الأذلين، لا يوجد أحد أذل منهم لأنهم يعادون ويخالفون ويشاقون، وأصله مخالفة حدود الله التي حداها وهم أعظم الناس ذلاً، والذل: الصغار والهوان والحقارة⁽²⁾.

¹ - المفردات في غريب القرآن للأصفهاني، ص382.

² - أضواء البيان للشنقيطي، ص1848.

ويعجبني قول المصلح الكبير عبد الحميد بن باديس: ((الجاهل يمكن أن تعلمه، والجاهل يمكن أن تهذبه، ولكن الذليل الذي نشأ على الذل، يتعذر أن تغرس في نفسه الذليلة المهينة عزة وإباء وشهامة تلحقه بالرجال)).

الجدال العقلي:

المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة وأصله من جدلت الحبل أي أحكمت فتله، ومنه الجدال فكأن المتجادلين يفتل كل واحد الآخر عن رأيه، وأساس الجدال هو الكبرُّ والعتو والكفر:

○ ﴿وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ غافر/5.

○ ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ﴾ 3

كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَإِنَّهُ يَضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ الحج/3-4.

علماء السوء وتهافت العقول:

ضرب الله مثلاً عن علماء السوء وصورهم بأخزي وأقبح صورة... الكلب اللاهث لمن رزقه الله العلم النافع فاستعمله لدنياه الفانية فكان العلم خزيًا ووبالاً عليه، لأنه انسلخ منه كما تنسلخ الحية من جلدها ولو بقى متمسكاً بعلمه وبشرع الله لأعزه الله ولرفعه، لكنه آثر هواه فأخلد إلى الأرض بغفلته وحب هواه.

○ قال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ

الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ 175 ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَىٰ

الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمَلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَتْرَكُهُ يَلْهَثُ﴾

الأعراف/175-176.

هؤلاء بعض صفات ونماذج من الذين تهافتت عقولهم وقلوبهم، فكانت إرادتهم إرادة شيطانية نابعة من قلب خرب حاوي إلا من سواد البواعث الشيطانية الشريرة:

○ ﴿أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾
التوبة/69 .

إنهم ملة الكفر والضلال أرادوا ذلك، وعزموا على الانحراف، فحكمة الله في إضلال من يضلّه من عباده لا تتم إلا بعد أن يبيّن لهم الحق من الباطل، فيرفضونه عناداً واستكباراً، عندها يتم معاقبتهم:

○ ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ﴾
التوبة/115 .

فأصبحت قلوبهم خربة خالية من بواعث الخير، بل أصبحت منزلاً للشيطان لكثرة بواعث الهوى والشهوات المدنسة بالصفات السلوكية المذمومة، عندها يخنس العقل لكثرة غشاوة البواعث الهوى الشيطانية في القلب فتغلبه، ماذا كانت النتيجة؟

قلوب خربة، وحواس تسمع وتبصر دون وعي وإدراك وتدبر وتعقل، أنتجت مرضاً في قلوبهم وعقولهم، هؤلاء هم المتورين والعلمانيين القرآنيين الذين يريدون إلغاء السنة وتشويش عقول أهل الإسلام بالتأويل الكاذب لآيات الله ويعتقدون أنهم سيفسلون عقولنا، خسئوا هم ومشغليهم، هم الذين تم غسل عقولهم من قبل مشغليهم فاصبحوا يحملون مصابيح الجهالة قلوبهم وعقولهم مريضة.

علامات مرض قلوب وعقول الأشقياء الحمقى كثيرة منها :

(1) مرحلة الإزاعة: الزيغ: الميل عن الاستقامة.

○ قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ الصف/5.

لما فارقوا الاستقامة عاملهم بذلك⁽¹⁾.

(2) مرحلة الران: الران صدأ يعلو الشيء الجليل.

○ قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ المطففين/14.

أي صار ذلك صدأ على جلاء قلوبهم فعمى عليهم معرفة الخير من الشر⁽²⁾.

(3) مرحلة الطبع: الطبع هو نقش النفس بصورة ما:

○ قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ محمد/16.

○ قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ غافر/35.

○ ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾

النساء/155.

هذا الطبع والإبعاد عن توفيقه وفضله إنما كان لكفرهم الذي اختاروه لأنفسهم وآثروه على الإيمان فعاقبهم عليه بالطبع واللعنة⁽³⁾.

(4) مرحلة الختم: الختم والطبع يقال على وجهين مصدر ختمت وطبعت هو

تأثير الشيء.

¹ - المفردات في غريب القرآن للأصفهاني، ص 222.

² - المرجع السابق، ص 214.

³ - ابن القيم: التفسير القيم، ص 146.

كنقش الخاتم والطابع، «خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ» البقرة/7.

إشارة إلى ما أجرى الله به العادة أن الإنسان إذا تناهى في اعتقاد الباطل أو ارتكاب محظور يورثه ذلك هيئة تمرنه على استحسان المعاصي، كأنما يختم بذلك على قلبه:

○ «أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ» محمد/16.

وقال بعضهم: ((خَتَمَهُ شَهَادَتُهُ تَعَالَى عَلَيْهِ أَنَّهُ لَا يُؤْمِنُ «خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ»))⁽¹⁾. هؤلاء الأشقياء الذين تهافت عقولهم وقلوبهم الخربة لا يرجى منهم الخير مطلقاً.

○ قال تعالى: «وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ» الأنفال/23.

○ وروي عن النبي ﷺ أن رجلاً قال: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا أَعْقَلَ فَلَانًا فَقَالَ: مَهْ إِنَّ الْكَافِرَ لَا عَقْلَ لَهُ أَمَا سَمِعْتَ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى: «وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ» الملك/10.

○ وفي حديث ابن عمر: فزجره النبي ﷺ ثم قال: مَهْ فَإِنَّ الْعَاقِلَ يَعْمَلُ بِطَاعَةِ اللَّهِ ذَكَرَهُ التِّرْمِذِيُّ⁽²⁾.

○ قال تعالى: «وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ» الحشر/14.

سلب منهم الإيمان:

○ قال تعالى: «فَقَاتِلُوا أُمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَأَيْمَانَ لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ» التوبة/12.

¹ - المفردات في غريب القرآن للأصفهاني، ص 149.

² - الجامع الأحكام لعلوم القرآن للقرطبي ج3، المجلد التاسع، ص 48.

سلب منهم العلم:

○ قال تعالى: ﴿وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ التوبة/93.

سلب منهم الفقه والفهم:

○ قال تعالى: ﴿وَطَبَعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ التوبة/87.

○ قال تعالى: ﴿صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بَأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ التوبة/127.

○ قال تعالى: ﴿وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِثَّةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ الأنفال/65.

سلب منهم التعقل والتبصر بما يسمع ويشاهد ففقدوا وعيهم وإدراكهم العقلي:

○ قال تعالى: ﴿وَنَطَبَعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ الأعراف/100.

ملاحظة: لم يقل ونطبع على آذانهم فهم لا يسمعون، بل كان الطبع على قلوبهم، لأن القلوب حظ المسموع لفهمه وتعقله.

○ قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمَعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ النحل/108.

ملاحظة هامة: في كل القرآن الكريم يأتي السمع فرداً والأبصار جمع، ويرد السمع أولاً ثم الأبصار.

سلب منهم الطمأنينة وقذف في قلوبهم الريبة:

○ قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ التوبة/45.

بل كان الله لهم بالمرصاد فأنزل آيات تتهمهم بعقولهم وينعتهم كالأنعام:

○ ﴿إِنَّ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ الفرقان/44.

○ ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ الطور/32.

أي أم تأمرهم عقولهم بهذا الكذب والبهتان؟، قال الخازن: ((وذلك أن عظماء قريش كانوا يوصفون بالأحلام والعقول، فأزرى الله بعقولهم، حين لم تثمر لهم معرفة الحق من الباطل، وهو تهكم آخر بالمشركين))^(١).

○ قال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ 43 ﴿أَمْ

تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ

سَبِيلًا﴾ الفرقان/43-44.

والمعنى بل أتحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون، أي لا تعتقد ذلك ولا تظنه فإنهم لا يسمعون الحق ولا يعقلونه: أي لا يدركون بعقولهم إن هي كالأنعام أي ما هم إلا كالأنعام، بل هم أضل من الأنعام، أي أبعد عن فهم الحق وإدراكه.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا، قال الزمخشري: ((فإن قلت: كيف جعلوا أضل من الأنعام؟ قلت: لأن الأنعام تنقاد لأربابها التي تعلقها وتتعهدها، وتعرف من يحسن إليها ممن يسيء إليها، وتطلب ما ينفعها، وتجنب ما يضرها، وتهتدي لمراعيها ومشاربها، وهؤلاء لا ينقادون لربهم ولا يعرفون إحسانه إليهم من إساءة الشيطان الذي هو عدوهم، ولا يطلبون الثواب الذي هو أعظم المنافع ولا يتقون العذاب الذي هو أشد المضار والمهلك ولا يهتدون للحق))^(٢).

¹ - صفوة التفاسير للصابوني، ص 1231.

² - أضواء البيان للشنقيطي، ص 1414.

هؤلاء الذين تهافتت عقولهم وقلوبهم واجتالتهم شياطين الإنس والجن عن الحق فسقطوا في مستنقع الضلال والكفر والعصيان ونهايتهم وخيمة.

○ قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ ﴿27﴾ يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿28﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا﴾ الفرقان/27-29.

لكن مهلاً هناك من يريد العودة إلى جادة الحق، وكله بتوفيق وفضل من الله.
والله عز وجل لطيف بعباده:

○ قال تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ الحديد/17.

أي اعلموا يا معشر المؤمنين أن الله يحيي الأرض القاحلة المجدبة بالمطر، ويخرج منها النبات بعد يبسها، وهو تمثيل لأحياء القلوب القاسية بالذكر وتلاوة القرآن، كما تحيا الأرض المجدبة بالغيث، قال ابن عباس: ((يلين القلوب بعد قساوتها، فيجعلها مخبئة منيية، وكذلك يحيي القلوب الميتة بالعلم والحكمة))⁽¹⁾.

¹ - صفوة التفاسير للصابوني، ص 1286.

لا تناقض بين العقل والنقل

نور النقل مدد لإرشاد طاقة العقل، والحكمُ بالشيء أن تقضي بأنه كذا أو ليس بكذا سواءً أُلزمت ذلك غيرك أو لم تلزمه:

○ قال تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ النساء/58⁽¹⁾.

سنداً البحث من أن أي قضية خلافية، يجب ردها إلى كتاب الله وسنة رسوله:

○ قال تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ الشورى/10.

الإسلام أطلق للعقل مساحات واسعة لينظر ويفهم ويفكر ويتدبر ويقرر بإرادة اختيارية وله القيادة في ذلك، لكن عليهم أن يفهموا أن العقل محدود الإدراك وهو السبب الرئيسي في أن الشرع منعه من أن يتدخل في علم الغيب «الآخرة» والصرائط المستقيم، والجنة، والنار، والروح، بل وفي الذات الإلهية، لا بل حتى في قضايا غير الغيبية، قد يدرك إدراكاً عاماً للمجمل وليس مفصلاً كقضايا الجور، العدل.

¹ - المفردات في غريب القرآن للأصفهاني، ص134.

لهذا كان النقل والسنة الشريفة تعصم من المهالك نصاً قاطعاً للعدز:

○ قال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ 15 ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ المائدة/16 .

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ المائدة/1 .

قولاً واحداً الحكم للنقل لا للعقل هناك من يجب أن يظهر التناقض بين النقل والعقل، بعض العقلاء قد يستتجون استنتاجات صحيحة مطابقة للحق، وبعضهم يشطط عقله لمنحى آخر.

فصريح العقل لا يعارضه الشرع، لكن الحكم للنقل وليس للعقل، فلا معارضة عقلية مهما كانت، لا بالمجادلة ولا بالمعقولات ولا بالأراء، لكتاب الله عز وجل، وهؤلاء الذين يجادلون في آيات الله حفنة من أهل الشطط العقلي، يزعمون أن آراءهم وأفكارهم تفند بعض الآيات، هم أهل الريبة والشك لأن أقوالهم معلومة البطلان بصريح المعقول والمنقول.

هم من يريد تفصيل إسلام جديد على مقاسهم ومقاس أهواءهم وأفكارهم ويعتقدون أن العقل وحده قادر على ترشيد الحياة وأن النقل لم يعد صالحاً في هذا الزمان، وهنا يظهر العقل كأنه إله وهذا ما حدث لـ "نيتشه" حيث أعلن موت الإله وبزوغ الأنا، والعقل لسان القلب ينطق بما يحتويه من معتقدات إيمانية وأخلاقية.

ينطقها اللسان على شكل آراء وأفكار، فمنهم من أعلى شأن العقل أمثال ابن رشد نادوا بسلطان العقل وحاكميته، ومنهم من تمادى في رفض العقل، ومنهم من ينادي بأنهم فقط قرآنيين ويرفضون السنة الشريفة، شردت عقولهم كما تشرذ الأنعام:

○ قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ (150) ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾ النساء/150-151 .

○ قال تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ الحشر/7 .

لماذا هذا الجدل والخصومة؟

إن التصارع والتصادم بين العقل والنقل مرده هوى النفس، واستعلاء الأنا، على النقل ورفضه إما جملة أو تفصيلاً؛ فأرادوا الخصومة هنا مع الخالق في تكذيب الوحي بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه، هؤلاء اعتقدوا أن عقولهم تدرك كل شيء. الحقيقة أن حالة التوازن والتناغم والتوافق بين النقل والعقل الذي له دور هام في مناط التكليف، لذا العقل يقوم بدوره كضابط للأفعال والأقوال وتقديرها بعد فهمها قبل ظهورها بما يوافق النقل حسب استطاعة المخلوق:

○ ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ البقرة/286 .

هنا قمة التناغم بين العقل والنقل، وتظهر على قلب العاقل وجوارحه بالطمأنينة والسكون.

والعقل يقدر قيمة الفعل والقول ضمن إمكانيته الإدراكية المحدودة الزمانية والمكانية والذي لا يتجاوز حجم الإنسان بالنسبة لحجم الكون!.

فكلما عقل العاقل وأمر الوحي كلما تقارب تقدير الأفعال، لأنه يخضع لأوامر الوحي، وبهذا رفع مقام العقل وجعل منه ظهيراً للنقل في قيادة الحياة، وإذا كان النقل لم يقدر بعض الأفعال، يكون للعقل دور ظني في النظر العقلي والبحث والاستنباط والاجتهاد في ذلك ضمن الضوابط الشرعية من ينبوع النقل، فصريح

العقل لا يعارضه الشرع، بل فضل النقل على العقل بأنه يحميه من تدليس النفس.

فسبحان الله الذي أمر وأحكم نقله وأرسل رسله لُبِينًا للمستخلف ما يجب عليه فعله وما ينبغي، فبين له الطريق المستقيم، والسعادة كل السعادة فيه، وطريق الضلال والشقاء كل الشقاء بمخالفته، فلا يجوز لأي مسلم أن يضع موانع وتساؤلات... لماذا... كيف... ما الحكمة من أي أمر صادر عن الله عز وجل وعن رسوله ﷺ، لأن المؤمن العاقل يعلم أنه أمر من الله عز وجل وعن رسوله ﷺ وذلك عين الحكمة أن يتقبل.

أمر الله عز وجل رسوله ﷺ بالوضوء بعد أكل لحوم الإبل، ذلك أمر علينا طاعته سواء علمنا الحكمة منه أم لم نعلم، وهنا يتوقف دور العقل ويأتي دور ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ البقرة/286، وذلك عين الحكمة.

عجبت من اجتماع العقل والسمع والبصر واليد وانكباها عند الكتابة، ومع هذا يحتاج أحذق الكتاب إلى ورق مسطر يهديه حتى لا تنحرف أسطره، فكيف يريد الوصول بهذا العقل المجرد من غير أن يرسمه الله له:

○ ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ الأنعام/153⁽¹⁾.

حكى أبو عمر الداني في كتابه طبقات القراء عن أبي الحسن بن المنتاب قال: ((كنت يوماً عند القاضي أبي اسحاق إسماعيل بن إسحاق، فقليل له: لمّ جاز التبديل على أهل التوراة، ولم يجز على أهل القرآن؟ فقال القاضي: قال الله عز وجل في أهل التوراة: ﴿بِمَا اسْتَحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ﴾ المائدة/44، فوكل الحفظ

¹ - عزام محمد المحيسني: سطور من النقل والعقل والفكر، ص212.

إليهم، فجاز التبدل عليهم، وقال في القرآن: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ الحجر/9، فلم يَجَزَّ التبدل عليهم⁽¹⁾.

وقد تحدى الله عزَّ وجل من الإتيان بسورة من مثله، وعجزت العرب عن الإتيان ولو بآية واحدة، إنه معصوم ومحفوظ من الله عزَّ وجل، من التبدل والتغير والزيادة والنقصان حتى ولو بحرف واحد، وقيد الله عزَّ وجل للقرآن حفظه رجال تتناقله الأجيال إلى يومنا هذا بدون أي تحريف.

وإيضاح مسألة الحكم العقلي أنه عند جمهور ثلاثة أقسام:

الأول... الواجب عقلاً: ومثاله العقل السليم لو عرض عليه وجود خالق هذه المخلوقات لقبلت، ولو عرض عليه عدمه، وأنها خلقت بلا خالق، لم يقبله، فهو واجب عقلاً.

الثاني... المستحيل عقلاً: كالجمع بين النقيضين: ومثاله إن كان العقل يقبل عدم وجود خالق لهذه المخلوقات فهو المستحيل عقلاً، كشريك لله سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً:

○ ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ الأنبياء/22.

○ ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ المؤمنون/91.

الثالث... الجائز عقلاً: كإيمان أبي لهب، فإنه لو عرض وجوده على العقل السليم لقبه، ولو عرض عدمه بدل وجوده لقبه أيضاً⁽¹⁾.

¹ - الموافقات في أصول الأحكام للشاطبي، ج2، ص32.

فإن السبب المؤدي إلى معرفة الأصول الشرعية والعمل بها هو علم الحس، وهو العقل، لأن حجج العقل أصل معرفة الأصول، إذ لا تعرف الأصول إلا بحجج العقل^(٢).

فالمؤمن التقي يضيء قلبه وعقله كالمصباح من مشكاة الربوبية:

○ ﴿وَيَجْعَلُ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ الحديد/28.

فالعقل هو بمنزلة العين للإنسان التي تبصر نور الشمس، والمتقي هو الذي يبصر بعقله فيتبصر قلبه، فليقادة الحياة الإنسانية بأحسن ما يكون بحاجة إلى التوازن والتناغم بين النقل والعقل، مما يجعل النقل دائماً يحمي العقل من تدليس النفس، عندها يعقل العاقل النقل ويطمئن له وبه، فيحاول تطبيق أقواله وأفعاله وتنزيهه على الواقع بشكل متوازن ودون غلو وتطرف فلا أحد يلغي الآخر بل يتدافعان في مجرى واحد لوصول النفس إلى كامل الطمأنينة التي تتشدها في هذه الحياة، فالنقل من الله هو نور والعقل هبة من الله وهو طاقة النور تترجم وتدرك وتفهم النقل لإنزاله على أرض الواقع، وهو بحاجة إلى هذا المدد النوراني من النقل لإرشاد العقل بدون إفراط ولا تفريط، هذه المنظومة الثنائية المتوازنة بين نور النقل ونور العقل:

○ ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ انور/35.

تصدق في أرجاء المعمورة بالتوحيد وإقرار عبودية الإله الواحد الأحد وهي أسمى الأهداف والغايات لخلق الإنسان:

○ قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ الذاريات/56.

¹ - الشنقيطي: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، ص136 و ص1197.

² - الماوردي: أدب القاضي، ج1، ص274.

فالله خالق الكون ومبدعه إبداعاً يليق بمقامته وجلاله به التناسق الكامل،
فلا تفاوت ولا اعوجاج:

○ ﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ﴾ الملك/3.

○ ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا﴾ الفرقان/2.

فهل بعد الذي قيل هناك تعارض بين النقل والعقل!، والحق يؤيد أن يكون حكماً
على جوارحك وعقلك أيها الإنسان.

وظيفة العقل الأساسية ومناطق تكليفه تعقل أوامر الله ونواهيه وحدوده بعد أن
يفهمها يطبقها بحذاقها لكن في أمور حياة الإنسان فلا بد من إعمال العقل
والاجتهاد فيه لأخذ أصوب الآراء وأحسنها، فالمؤمن نبيه كيس، قال ﷺ: ﴿إِنَّمَا أَنَا
بَشَرٌ، إِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دِينِكُمْ، فَخُذُوا بِهِ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ رَأْيِي، فَإِنَّمَا أَنَا
بَشَرٌ﴾⁽¹⁾.

إنه دين يسر وليس بعسر، إنه دين الوسطية وليس بالمتجمد والمتزمت، إنه دين المحبة
والتسامح، وأهله ليسوا بأهل الغلو «تعالوا إلى كلمة سواء»، بل يكرهون مظاهر
التشدد، فهي هي الجماعات التكفيرية لفظت من إسلامنا كما يلفظ الزيد من الماء
فلا يقبل الغلو والكراهية والحقد والبغي بغير الحق، هؤلاء تركوا شرع الله وحكموا
عقولهم المتهاففة فقتلوا وأعدموا العشرات، وأفسدوا في الأرض، فحللوا ما حرم الله
وحرموا ما أحل الله، هذه هي فتنة العقل والإعجاب به، فيميل بصاحبه عن فهم
النقل، بل ويحرف معناه رأساً على عقب لغاية في نفسه المريضة فغرور الإنسان
بقدرته العقلية، وتضخيم الأنا يجعله ينادي أنا ربكم الأعلى، يريدون أن يحكموا
بعقولهم المتشيطنة بأحكام الجاهلية قال تعالى:

¹ - رواه مسلم في صحيحه.

○ ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ المائدة/50.

لأن هنالك عقول لم تعقل مهمتها فتتحرف وتشرذ تائهة، وما شرود العقل إلا حب الهوى واستحكامه بتلك العقول الشاردة.

نعم اجتالتهم شياطينهم عن فطرة الله تعالى، إنهم أهل الغلو المارقين عن الإسلام يضرّيون رقاب الناس، فيستبيحون دماء الناس بدون وجه حق. احتكموا لعقولهم الطائشة المتهافئة وازدراء الأديان بل ورفض العيش المشترك، لكن إسلامنا يدعوا:

○ قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ النحل/125.

العاقل من يجعل الحكمة نبراساً لطريقه، فيتصرف بأحسن الأقوال والأفعال لأن العاقل هو من يقرأ النقل بالعقل ويحكم العقل بالنقل، فالدين عقل: عقل لمعرفة الله عزّ وجل، وللتحقق من صحة النقل وفهمه، والنقل: يبين للعقل ما خفي عنه ما عجز عن إدراكه وما يضمن سلامته وسعادته، لأن وظيفة العقل فهم الدين وليس تشريع الدين، وبالتالي النقل يحمي العقل من تدليس النفس. إنها منظومة متوازنة بتطبيقها يصبح المؤمن العاقل... قوله ذكر... ونظيره عبرة...وصمته فكرة.

المهارات التفكيرية لأولي الألباب

أولو الألباب هم نخبة أهل العقول النيرة وخالصة العقول وقد سّماهم القرآن أولي الألباب.

فالألباب: هي العقول واحدها لب، ولب الشيء صفوته وخالصته لذلك سمي العقل لباً^(١)، واللييب من يحمل لب العقل وهو أعلى درجات ومراتب العقل.

اللب: العقل الخالص من الشوائب، وقيل هو أذكى من العقل، فكل لب عقل وليس كل عقل لب، ولهذا علق الله عزّ وجل الأحكام التي لا يدركها إلا العقول الذكية بأولي الألباب^(٢).

يشرح ابن حبان في كتابه روضة العقلاء ونزهة الفضلاء مراتب العقل، فأعلاها من سعي في ترقية عقله وترقية سلوكه، ومن أهمله ظل واقفاً عنده.

خاطب الله عزّ وجل أولي الألباب بطريقة فكرية عالية المستوى تليق بعقولهم وتليق بما يتفكرون في الآيات المنظورة والمقروءة، فيتأملوا أسرار الكون وإبداع

¹ - صفوة التفاسير للصابوني، ص 1049.

² - المفردات في غريب القرآن للأصفهاني، ص 449.

خلقه، لكي يزدادوا معرفة بالله العليم، فأمدهم بالعلم والمعرفة وحسن البصيرة، والفراسة والحكمة وتدبر الآيات الأحكام، كل هذه الصفات يحملها أولو الألباب الذين هم خاصة أهل التقوى، ولكل مجتهد نصيب، وظفوا ألبابهم في خدمة دينهم فجعلوا القرآن إماماً نبراساً فتدبروا وتأملوا ونظروا في معاني كلمات القرآن وأسرار آياته فتولدت الأفكار النيرة.

○ قال تعالى: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ آل عمران/7.

لقد ورد في القرآن الكريم معاني عديدة لمعنى الفكر، وهذه معانٍ متقاربة تجتمع في شيء وتتفرق في آخر.

سمي تذكراً لأنه إحضار للعلم الذي يجب مراعاته بعد ذهوله وغيبته عنه ومنه قوله تعالى:

○ ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ الأعراف/201.

وسمي نظراً لأنه التفات القلب إلى المنظور فيه.

وسمي تأملاً لأنه مراجعة للنظر كرة بعد كرة حتى يتجلى له وينكشف لقلبه.

وسمي اعتباراً وهو افتعال من العبور لأنه يعبر منه إلى غيره فيعبر من ذلك الذي قد فكر فيه إلى معرفة تالفة وهو المقصود من الاعتبار، ولهذا يسمى عبرة:

○ قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى﴾ الانزاعات/26.

وسمي تدبراً لأنه نظر في إدبار الأمور، وهي أواخرها ومنه تدبر القول:

○ وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾ المؤمنون/68.

○ ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ النساء/82.

وتدبر الكلام أن ينظر في أوله وآخره ثم يعيد نظره مرة بعد مرة...

وسمي استبصاراً وهو استفعال من التبصر وهو تبين الأمر وانكشافه وتجليه للبصيرة⁽¹⁾.

وهذه هي بعض المعاني المتقاربة والتي يتوصل بها للفكرة في عقولنا وتصاغ حسب حامل هذا العقل.

تعالوا ندرس معاني وصفات أولي الألباب الذين هم خاصة أهل التقوى....

¹ - ابن قيم الجوزية: مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، ص217.

البند الأول:

الاعتبار العقلي

○ قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَابِ﴾ يوسف/11.

الاعتبار والعبرة هي الحالة التي يتوصل بها من معرفة المشاهد إلى ما ليس بمشاهد:

○ قال تعالى: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ الحشر/2.

والتعبير مختص بتعبير الرؤيا وهو العابر من ظاهرها إلى باطنها، قال تعالى:

○ ﴿إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾ يوسف/43⁽¹⁾.

○ قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَنْ يَخْشَى﴾ الانزاعات/26.

فإن من يخشى الله، هو الذي ينتفع بالآيات والعبر فإذا رأى عقوبة فرعون، عرف أن كل من تكبر وعصى وبارز الملك الأعلى، عاقبته في الدنيا والآخرة⁽²⁾.

الاعتبار: وهو افتعال من العبور لأنه يعبر منه إلى غيره، فيعبر من ذلك الذي قد فكر فيه إلى معرفة ثالثة وهو المقصود من الاعتبار ولهذا يسمى عبرة⁽³⁾، والاعتبار هو الاتعاظ بما تشاهد وتفهم معنى المشاهدة.

والعبارة المائية هي التي تعبر من ضفة النهر إلى الضفة الأخرى وهكذا تعبر الفكرة من حالة إلى أخرى، وكله من المهارات التفكيرية لأولي الباب.

¹ - المفردات في غريب القرآن للأصفهاني، ص323.

² - تفسير السعدي ص923.

³ - ابن قيم الجوزية: مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، ص217.

فائدة لطيفة في معنى الاعتبار:

○ قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ النَّبْصَارِ﴾ الحشر/1-2.

ماذا حدث لهم، أخبرنا الله ذلك في كتابه:

○ ﴿فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا﴾، أي: من الأمر والباب الذي لم يخطر ببالهم أن يؤتوا منه⁽¹⁾.

○ ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾، وهو الخوف الشديد الذي هو جند الله الأكبر الذي لا ينفع معه عدد ولا عدة ولا قوة ولا شدة⁽¹⁾.

○ ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ﴾.

ما درس المستفاد من هذه الآيات:

○ ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ النَّبْصَارِ﴾.

أي: أهل البصائر النافذة والعقول الكاملة، فإن في هذا معبر يعرف به صنع الله تعالى في المعاندين للحق، المتبعين لأهوائهم الذين لم تنفعهم عزتهم، ولا منعتهم قوتهم، ولا حصنتهم حصونهم، حين جاءهم أمر الله، ووصل إليهم النكال بذنوبهم، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

فإن هذه الآية تدل على الأمر بالاعتبار، وهو اعتبار النظير بنظيره، وقياس الشيء على مثله، والتفكير فيما تضمنته الأحكام من المعاني والحكم التي هي محل العقل

¹ - السعدي: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ص 861.

والفكر، وبذلك يزداد العقل وتتنور البصيرة ويزداد الإيمان ويحصل الفهم الحقيقي⁽¹⁾، وما تعليل ما حصل لليهود:

○ ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ الحشر/4.

آية أخرى توضح معنى الاعتبار والعاقبة، قال تعالى:

○ ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ البقرة/179.

أي لكم في هذا الحكم الذي شرعه الله لكم حياة، لأن الرجل إذا علم أنه يقتل قصاصاً إذا قتل آخر كف عن القتل وانزجر عن التسرع إليه والوقوع فيه، فيكون ذلك بمنزلة الحياة للنفوس الإنسانية.

وهذا نوع من البلاغة بليغ، وجنس من الفصاحة رفيع، فإنه جعل القصاص الذي هو موت حياة.

باعتبار ما يؤول إليه من ارتداع الناس عن قتل بعضهم بعضاً، إبقاء على أنفسهم واستدامة لحياتهم، وجعل هذا الخطاب موجهاً إلى أولي الألباب، لأنهم هم الذين ينظرون في العواقب ويخافون ما فيه الضرر الآجل، وأما من كان مصاباً بالحمق والطيش والخفة فإنه لا ينظر عند ثورة غضبه وغليان مراجل طيشه إلى عاقبة ولا يفكر من أمر مستقيل.

ثم علل سبحانه هذا الحكم الذي شرعه لعباده بقوله: لعلمكم تتقون أي تخافون القتل بالمحافظة على القصاص فيكون ذلك سبباً للتقوى⁽²⁾.

¹ - السعدي: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ص 862.

² - محمد بن علي الشوكاني: فتح القدير، ج 1 ص 176.

البند الثاني:

التدبر العقلي

التدبر: التفكير في دبر الأمور قال تعالى: ﴿فَالْمُدْبِرَاتِ أَمْرًا﴾ اننازعات/5، يعني الملائكة الموكلة بتدبير الأمور⁽¹⁾، عند أهل اللغة التدبر هو النظر في عاقبة الأمور⁽²⁾.

والفكر سُميَّ تدبيراً لأنه نظر من إديار الأمور وهي أواخرها ومنه تدبر القول:

○ قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾ المؤمنون/68.

والتدبر المطلق لله تعالى:

○ ﴿وَمَنْ يَدَّبِّرْ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾ يونس/31.

ومن مهارة أولي الألباب النظر لعواقب الأمور وخواتمها بالعمل والقول السديد الموصل للحق:

○ قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ ﴿70﴾
يُصَلِّحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ الأحزاب/71.

○ ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا النَّبَابِ﴾ ص/29.

¹ - المفردات في غريب القرآن للأصفهاني، ص171.

² - أبو الفضل محمد بن مكرم ابن منظور: لسان العرب، مادة (دبر).

كتاب أنزلناه إليك مبارك فيه خير كثير، وعلم غزير، فيه كل هدى من ضلالة، وشفاء من داء، ونور يستضاء به في الظلمات، وكل حكمٍ يحتاج إليه المكلفون فيه، وفيه من الأدلة القطعية على كل مطلوب، ما كان به أجل كتاب طرق العالم منذ أنشأه الله.

ليدبروا آياته، أي هذه الحكمة من إنزاله، ليتدبر الناس آياته، فيستخرجوا علمها ويتأملوا أسرارها وحكمها، فإنه بالتدبر فيه والتأمل لمعانيه، وإعادة الفكر فيها مرة بعد مرة، تدرك بركته وخيره، وهذا يدل على الحث على تدبر القرآن، وأنه من أفضل الأعمال، وأن القراءة المشتملة على التدبر أفضل من سرعة التلاوة التي لا يحصل بها هذا المقصود.

وليتذكر أولوا الألباب، أي أولوا العقول الصحيحة يتذكرون بتدبرهم لها كل علم ومطلب، فدل هذا على أنه بحسب لب الإنسان وعقله يحصل له التذكر والانتفاع بهذا الكتاب^(١).

هذا القرآن جعل الله تعالى آياته بينات الدلالة، لكن الهداية بيد الله تعالى فمن هداة، اهتدى بهذا القرآن وجعله الله له إماماً ونوراً ونبراساً وقدوة، ومن لم يرد الله هدايته، فجميع الآيات البينات لن تهديه ولن تنفعه:

○ ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ﴾ الحج/16.

يقول الزركشي: ((القرآن كله لم ينزله منزله تعالى إلا ليُفقه ويُعلم ويفهم، ولذلك خاطب به أولي الألباب الذين يعقلون، والذين يعلمون، والذين يفقهون، والذين يتفكرون ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب))^(٢).

¹ - تفسير السعدي، ص 720.

² - أبو عبد الله، بدر الدين، محمد بن بهادر الزركشي: البرهان في علوم القرآن، ج 2/160.

يقول ابن عطاء الله السكندري: ((التدبير المحمود هو ما كان تدبيراً إلى ما يقربك إلى الله سبحانه وتعالى، كالتدبير في براءة الذمة من حقوق المخلوقين، إما وفاء وإما استحلالاً، وتصحيح التوبة إلى رب العالمين، وأما التدبير المزموم، فهو كل تدبير ينعطف على نفسك بوجود حظها ليس لله فيه شيء))^(١).

قال الحسن بن علي رضي الله عنه: ((إن من كان قبلكم رأوا القرآن رسائل من ربهم فكانوا يتدبرونها بالليل ويتفقدها في النهار)).

وعن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿أَعْطُوا أَعْيَنَكُمْ حَظَّهَا مِنَ الْعِبَادَةِ، فَقَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا حَظُّهَا مِنَ الْعِبَادَةِ؟ قَالَ: النَّظَرُ فِي الْمَصْحَفِ وَالتَّفَكُّرُ فِيهِ وَالْإِعْتِبَارُ عِنْدَ عَجَائِبِهِ﴾^(٢).

وتدبر القرآن يولد الأفكار، والتأمل في القرآن: ((فهو تحديق ناظر القلب إلى معانيه وجمع الفكر على تدبره وتعقله، وهو المقصود بإنزاله، لا مجرد تلاوته بلا فهم ولا تدبر قال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ ص/29)^(٣).

سأل ابن عمير عائشة رضي الله عنها: ﴿فَأَخْبَرِينَا بِأَعْجَبِ شَيْءٍ رَأَيْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ، قَالَ فَبَكَتْ، وَقَالَتْ: كُلُّ أَمْرِهِ كَانَ عَجَبًا، أَتَانِي فِي لَيْلَتِي ثُمَّ قَالَ: ذَرِينِي أُتَعَبِدُ لِرَبِّي عَزَّ وَجَلَّ فَحَمَّامٌ إِلَى الْقُرْبَةِ فَتَوَضَّأَ مِنْهَا ثُمَّ قَامَ يُصَلِّي فَبَكَى حَتَّى بَلَ لِحَيْتِهِ ثُمَّ سَجَدَ حَتَّى بَلَ الْأَرْضُ ثُمَّ اضْطَجَعَ عَلَى جَنْبِهِ حَتَّى أَتَاهُ بِلَالٌ يُؤَدِّنُهُ بِصَلَاةِ الصُّبْحِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا بِيَكِيكَ وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ، فَقَالَ: لَقَدْ أَنْزَلْتَ عَلَيَّ اللَّيْلَةَ آيَاتٍ وَبَلَّ لِمَنْ قَرَأَهَا وَلَمْ يَتَدَبَّرْهَا فِيهَا: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ

¹ - ابن عطاء الله السكندري: تاج العروس الحاوي لتهذيب النفوس، ص593-595.

² - أخرجه ابن أبي الدنيا .

³ - ابن القيم: تهذيب مدارج السالكين، ص223.

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿آل عمران/190﴾،
ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها⁽¹⁾.

فقيل للأوزاعي: ((ما غاية التفكر فيهن؟ قال: يقرؤهن ويعقلهن)).

¹ - رواه ابن حبان في صحيحه.

البند الثالث:

النظر والتأمل العقلي

من معاني الفكر ما يسمى نظراً لأنه التفات القلب إلى المنظور فيه، ويسمى تأملاً لأنه مراجعة النظر كرة بعد كرة حتى يتجلى له وينكشف لقلبه⁽¹⁾.

النظر العقلي: تقليب البصر والبصيرة لإدراك الشيء ورؤيته، وقد يراد به التأمل والفحص، وقد يراد به المعرفة الحاصلة بعد الفحص وهو الروية قال نظرت فلم تنتظر أي لم تتأمل ولم تترو:

○ وقوله تعالى: ﴿قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ يونس/101.

ونظرت فيه إذا رأيته وتدبرته:

○ قال تعالى: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ يونس/39.

○ قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْآيَاتِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ الغاشية/17.

○ ﴿فَنظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ﴾ 88 ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾ الصافات/88-89.

○ قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ فاطر/44.

يحض تعالى على السير في الأرض، في القلوب والأبدان، للاعتبار، وأن ينظروا إلى عاقبة الذين من قبلهم ممن كذبوا الرسل، وكانوا أكثر منهم أموالاً وأولاداً وأشد قوة وعمروا الأرض أكثر مما عمروها هؤلاء فلما جاء العذاب، لم

¹ - ابن القيم: مفتاح دار السعادة، ص217.

تتفَعهم قوتهم، ولم تغن عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً ونفذت فيهم قدرة الله ومشيتته^(١).

وهناك المناظرة، وهي المباحثة والمباراة في النظر واستحضار كل ما يراه ببصيرته^(٢).

وما أكثر المناظرات بين أهل الحق وأهل الباطل بها يتميز التفكير المستقيم عن التفكير الأعوج.

ولو تتبعنا أهل التفكير الأعوج لوجدنا أن أساليبيهم واحدة لأن نفسياتهم من منبع واحد هي النفس الأمارة بالسوء والتي تحمل كبر إبليس وحسد قابيل وعتو عاد وطغيان ثمود وجراءة نمرود واستطالة فرعون وبغي قارون، وهوى "بلعام" وحيل أصحاب السبت وتمرد الوليد بن المغيرة وجهل أبي جهل، لأنهم يحملون الأنا المتمردة، فكلما زاد الخواء الداخلي كلما زاد تسرطن الأنا لملء الفراغ منه بالتفكير الأعوج والإرادة السلبية الشيطانية، هي معركة بين الحق بالفكر السليم والعقيدة الصحيحة والحجج العقلية وبين الباطل بالفكر الأعوج والحجج الداحضة، وكل الأنبياء والرسل دخلوا في هذه المعركة.

موسى عليه السلام وفرعون مصر:

○ ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِنُخْرِجَكَ مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى﴾ طه/57.

○ ﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ الأعراف/110.

¹ - تفسير تيسير كريم الرحمن للسعدي، ص 699.

² - المفردات في غريب القرآن للأصفهاني، ص 500.

لكن الحقيقة ليست كذلك إنما يريدون بتفكيرهم الأعوج أن يقلبوا الحقائق
ويتهمونه زوراً وظلماً بما هم فيه .

○ ﴿وَتَكُونُ لَكُمْ الْكِبْرِيَاءَ فِي الْأَرْضِ﴾ يونس/78 .

بل واتهام موسى وهارون بالإفساد في الأرض:

○ ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَدْرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾

الأعراف/127 .

بل ويثيرون المجتمع ضده بطريقة خبيثة:

○ ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ 53 ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ

قَلِيلُونَ﴾ 54 ﴿وَأَنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ﴾ الشعراء/53-55 .

ومعركة موسى وهارون مع قومهما بقصة البقرة كيف سخروا واستهزؤوا به قالوا:

○ ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُؤًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ البقرة/67 .

حتى خاتم النبيين محمد ﷺ لم يسلم من أهل السخرية:

○ ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ الحجر/1 .

لكن رسالة الأنبياء جميعاً هدفها إعلاء كلمة التوحيد وإصلاح ما أفسده المفسدون
ولو وصلت التهم والافتراءات والسخرية إليهم فإنهم لا يخافون لومة لائم ولا نقد
جارج:

○ ﴿وَلَا يَحْزَنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ يونس/65 .

البند الرابع:

التأويل العقلي

التأويل أي الرجوع إلى الأصل ومنه رد الشيء إلى الغاية المرادة منه «غاية مقصودة» علماً كان أو فعلاً، ففي العلم:

○ ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ آل عمران/7.

○ وقوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ﴾ الأعراف/53، أي بيانه الذي هو غايته المقصودة⁽¹⁾.

كما قال تعالى مخبراً عن الراسخين في العلم حيث قالوا أمنا به كل من عند ربنا أي محكمه ومتشابهة حق، فلهذا ردوا المتشابه إلى المحكم فاهتدوا، والذين في قلوبهم زيغ ردوا المحكم إلى المتشابه فغَوَّوا، ولهذا مدح تعالى الراسخين في العلم وذم الزائغين⁽²⁾.

○ قال ﷺ لابن عباس: ﴿اللَّهُمَّ فَقِّهْ فِي الدِّينِ وَعَلِّمَهُ التَّأْوِيلَ﴾⁽³⁾.

قال تعالى: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ الكهف/78، تعلمنا في سورة الكهف أن مهما أوتينا من العلم فهو لا شيء يذكر أمام علم الله عز وجل ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ الاسراء/85، وعليه:

¹ - مفردات في غريب القرآن للأصفهاني، ص40.

² - تفسير مختصر ابن كبير للصابوني، ص417.

³ - رواه البخاري برقم 143 ومسلم برقم 2477.

- يجب أن لا يتباهى أي إنسان بعلمه، وهذا ما حصل لسيدنا موسى عليه السلام عندما سئل أي الناس أعلم؟، فأجاب: أنا، فعاتبه الله إذ لم يرد العلم إليه، وأوحى إليه أنه يوجد من أعلم منه.
- عندما ألتقى سيدنا موسى عليه السلام الخضر قال له: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا﴾ ﴿66﴾ قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿67﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾
الكهف/66-68،

البند الخامس:

استنباط الحلول

أليس أولو الألباب هم أولو الحلم والرزانة العقلية، هم الذين يتصفون بأهل الرشد وحسن التصرف بأحسن أحواله بالقول والفعل، فأى معلومة أو إشاعة خبر لا يبثه اللبيب لأحد قبل أن يتروى، ويتفحصه ويتحقق منه، قال تعالى:

○ ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَدْعَاؤُهُ بِهِنَّ﴾ النساء/83.

هذا إنكار على من يبادر إلى الأمور قبل تحققها فيخبر بها وينشرها، وقد لا يكون لها صحة، قال تعالى:

○ ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ﴾ النساء/83.

قال عمر ابن الخطاب: ((أنا استنبطت ذلك الأمر حديث إشاعة طلاق نساء رسول الله ﷺ ومعنى يستنبطونه أي يستخرجونه من معادنه، يُقال: استنبط الرجل العين إذا حفرها واستخرجها من قعورها))⁽¹⁾.

إذا فأى إشاعة أو خبر لا يجوز تناقله قبل التثبت في صحته بل الأولى أن يردونه إلى الرسول ﷺ وإلى أولي الأمر، وأهل الرأي والمعرفة والخبرة لكي يستنبطونه ويستخرجون الحل، عندها يقرر أهل الرأي والمشورة إذاعته أو السكوت عنه ﴿لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾، أي يستخرجونه بفكرهم وآرائهم السديدة، وعلومهم الرشيدة، وقيل من تصدر قبل أن يتعلم كان كمن تذبذب قبل أن يتحصن، فالصمت منجاة للإنسان وحفظ لماء الوجه.

¹ - مختصر تفسير ابن كثير للصابوني، ج2، ص418.

وفي هذا دليل لقاعدة أدبية، وهي أنه إذا حصل بحث في أمر من الأمور، ينبغي أن يولى من هو أهل لذلك، ويجعله إلى أهله، ولا يتقدم بين أيديهم، فإنه أقرب إلى الصواب والسلامة من الخطأ، وفيه النهي عن العجلة والتسرع لنشر الأمور حين سماعها، والأمر بالتأمل قبل الكلام والنظر فيه، هل هو مصلحة، فيقدم عليه الإنسان، أم لا فيحجم عنه⁽¹⁾.

هكذا مهارات أولي الأبواب في استنباط الحلول وتحليل المشاكل بأن نضع علامات الاستفهام كعناوين للأسئلة... كيف..لماذا..أين..متى..من...ستساعدنا على حل المعضلة القائمة واستخراج واستنباط الحلول الملائمة.

¹ - تفسير السعدي، ص178.

البند السادس:

الرؤية العقلية

والرؤية إدراك المرئي وذلك أقرب بحسب قوى النفس.

الأول... بالحاسة وما يجري مجراها نحو:

○ «لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ» ﴿6﴾ تَمَّ لَتَرَوْنَهَا عَيْنَ الْيَقِينِ التكاثر/6-7.

الثاني... بالوهم والتخيل:

○ «وَلَوْ تَرَى إِذِ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا» الأنفال/50.

والثالث... بالتفكر نحو:

○ «إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ» الأنفال/48.

والرابع: بالعقل وعلى ذلك قوله:

○ «مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى» النجم/11، فاطمأن فؤاده إلى ما رأى بصره وهذا

غاية اليقين والاطمئنان⁽¹⁾.

الرأي: اعتقاد النفس أحد النقيضين عن غلبة الظن وعلى هذا قوله تعالى: «يَرَوْنَهُمْ مَثَلِيهِمْ رَأَى أَلْعَيْنِ» آل عمران/13، أي يظنونهم بحسب مقتضى مشاهدة العين مثلهم.

الرؤية: التفكير في الشيء والإمالة بين خواطر النفس في تحصيل الرأي⁽²⁾.

فأهل أولي الأبواب يملكون مهارة تقليب الصور الذهنية والملاحظات لإدراك ماهية الأشياء؟ أو ماهية الحدث ولما وكيف وقع؟ وما نتائجه؟ هذه المهارة التي تقوى بالتجارب

¹ - د . فاضل صالح السامرائي: من أسرار البيان القرآني، ص226.

² - المفردات في غريب القرآن للأصفهاني، ص189 - 190.

والتدريب والقراءة لكي يستطيع العقل تكوين صورة ذهنية وخيالات جاهزة لأمر ما لأي حدث، خاصة إذا كانت تلك الرؤية العقلية يستفاد منها في وعي الأمة ونهضتها الفكرية.

○ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيْجُ فَتَرَاهُ مَصْفَراً ثُمَّ يُجْعَلُهُ حُطَاماً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَ لِّلَّذِينَ لِيَُوَلِّوا لِّلْآلِبَابِ﴾ الزمر/21.

فأولو الآلِباب لديهم رؤية واضحة تنير دريهم ويتبصرون ما لا يبصر الآخريين، الآية واضحة أنها تخاطب الإنسان العاقل بأن ينظر بالرؤية العقلية والتفكير بقدرة الله عز وجل كيف أنزل المطر فأخذته الأرض وارتوت وحبست الباقي لتحفظ به على هيئة عيون، وبه تخرج الزروع والحمضيات والبقوليات ثم يحصد، وبعد ذلك يصفر وتنشف عروقه فتتكسر وتسحقه الرياح.

لكن الرؤية العقلية من هذا كانت نتيجته: أن هذه الحياة مهما كانت جميلة ومهما طال عمر الإنسان سيكبر ثم يشيب ثم يضعف وبعدها الموت، فالأولى الانتباه واستغلال العمر لطاعة الله ورسوله ﷺ⁽¹⁾.

¹ - لطيفة لغوية: مقتطفات مما أورده د. فاضل السامرائي.

- الرؤية بالعين المجردة «رءاً» ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا﴾ الأنعام/76. «فلما رءاً الشمس»، «فلما رءاً القمر» وهي الرؤية البصرية، وكأن الألف في «رءاً» حاجراً لوجود حدود ومسافات للرؤية البصرية للإنسان.
- أما «رأى» فهي رؤية البصيرة، وتنتهي بحرف الألف المقصورة والذي يوحي بالامتداد، وجاءت كلمة «رأى» في القرآن الكريم بموضعين في القرآن الكريم.
- كلمة «ترء» بمعنى العلم المؤدي إلى الاعتبار ونهاية الأمر «ألم ترء» بمعنى ألم تعلم وتتعجب أيها العاقل ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ الفيل/1.
- «قل أرءيتم» تأتي بمعنى أخبروني، ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَّعِينٍ﴾ الملك/30.

أهل الرشد

الرشد الاستقامة على طريق الحق مع تصلب فيه، والرشد من الرشاد وهي الصخرة، هم الذين يحملون العقول الرشيدة الخالصة من الشوائب القوية كالصخرة تدافع عن الحق لتهزم الباطل، إنهم أهل التقوى الذين يحبون الإيمان ويستमितون في حماية إيمانهم، ويكرهون الفسق والمعصية وهم في حالة دائمة لمراجعة فكرية لكل صغيرة وكبيرة لأفعالهم وأقوالهم، لذا قيل الرشد خلاف الغي.

○ قال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَبٌ إِلَيْكُمْ الْإِيمَانَ وَزَيْنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَهُ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ الحجرات/7.

أي حبيب الإيمان إلى نفوسكم، وحسنة في قلوبكم، وبغض إليكم الكفر والفسوق وهي الذنوب الكبار، والعصيان وهي جميع المعاصي، وهذا تدرج لكمال النعمة (أولئك هم الراشدون) أي المتصفون بهذه الصفة هم الراشدون الذين أتاهم الله رشدهم⁽¹⁾.

الرشد: اسم جامع لكل ما يرشد الناس إلى مصالح دينهم ودنياهم، والرشد هو حسن التصرف، ولذلك سُمِّي حسن التصرف عقلاً، لأن الإنسان عقل تصرفه فيما ينفعه، والراشد هو المهتدي إلى أحسن الأمور في القول والعمل.

وقد بينت الدراسات العلمية أن نمو الدماغ يكتمل في سن الأربعين، وقسم الذاكرة طويلة الأمد تكون في أوج عملها، والتي تستقبل المعتقدات الإيمانية الموجودة في

¹ - تفسير مختصر ابن كثير للصابوني، ج3 ص358.

قلب الإنسان، وفي هذا العمر يكون الجسم البشري في أوجه، هنا العمر الذي حدده القرآن الكريم قبل أربعة عشر قرناً يكون الإنسان السليم قد اكتمل أشده ووعيه فما بالكم بالمؤمن الذي يسعى جاهداً لطاعة الله ورسوله ﷺ فيزداد تقوى وعقلاً بهذه المرحلة يتم كمال عقله ويزداد خبرة فتتم له قوة البدن وقوة المعرفة، لأن المؤمن يعلم أن الغاية الحقيقية لحياته كلها لله تعالى وهذا ما أكدته القرآن الكريم.

○ ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي دُرِّيَّتِي إِنَّي تُبِّتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ الأحقاف/15.

بهذه الآية يتبين أن المؤمن الرشيد يدعوا الله كثيراً أن يلهمه التوفيق والسداد على شكر نعمه التي لا تعد ولا تحصى ويدعوا الله على استمرار الصلاح له ولذريته لأن صلاح الآباء من أعظم الأسباب لصلاح الذرية، فأهل الرشد يتصفون بضبط سلوكهم وتصرفاتهم بشكل متقن.

والرشد إصابة عين الحقيقة وهو الطريق المستقيم، وقيل أن اللبيب من الإشارة يفهم:

○ ﴿عَسَىٰ أَنْ يَهْدِيَنَّ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا﴾ الكهف/24.

لطائف بيانية:

○ ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ﴾ الأنبياء/51.

قد تقول: ولم يقل (آتيننا إبراهيم الرشد) أو (رشداً)؟

فنقول: إن كلمة (الرشد) أعم من (رشده)، ولذا لم يستعمل القرآن (الرشد) معرفة بآل للأشخاص، وإنما استعملها لدينه أو سبيله أو نحو ذلك لأن الرشد أعم من (رشده).

○ قال تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ البقرة/256.

○ قال تعالى: ﴿وَأَنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ الأعراف/146.

وأما (رشد) المنكرة فهي تعني أي نوع من الرشد وإن كان قليلاً، وذلك نحو قوله سبحانه:

○ ﴿فَإِنْ أَسْتَمْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ النساء/6.

وهذا شأن عموم العقلاء من خلق الله من المكلفين، فليس في ذلك مزية خاصة به⁽¹⁾.

¹ - د. فاضل السامرائي: على طريق التفسير البياني، ج4، ص136.

البند الثامن:

أهل الحكمة - أهل أولي الأبواب

قال تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ البقرة/269، فرأس الحكمة معرفة الله عز وجل.

الحكمة: إصابة الحق بالعلم والعقل، فالحكمة من الله تعالى معرفة الأشياء، وإيجادها على غاية الأحكام، ومن الإنسان معرفة الموجودات وفعل الخيرات، وهذا هو الذي وصف به لقمان في قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾ لقمان/12⁽¹⁾.

الحكمة مصدر من الأحكام وهو الإتيان في قول أو فعل، فكتاب الله حكمة، وسنة نبيه حكمة، وأصل الحكمة ما يمتنع به من السفه، فقليل للعلم حكمة، لأنه يمتنع به، وبه يعلم الامتناع في السفه وهو كل فعل قبيح.

وقال بعض الحكماء: ((من أعطي العلم والقرآن ينبغي أن يعرف نفسه، ولا يتواضع لأهل الدنيا لأجل دنياهم، فإنما أعطي أفضل ما أعطي أصحاب الدنيا، لأن الله تعالى سمى الدنيا متاعاً قليلاً فقال: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ النساء/77، وسمي العلم والقرآن خيراً كثيراً))⁽²⁾.

فأهل الحكمة يملكون القلوب المتبصرة الواعية المضاءة بنور القرآن فيمشون ويتكلمون بنور من الله عز وجل، هم يملكون لباب العقول النيرة لأنهم أهل الفطنة والفقه إنهم أهل العلم وقوله تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ﴾ فقليل هي العلم، وقيل الفهم وقيل الإصابة في القول ولا مانع من الحمل على الجميع شمولاً أو بدلاً، وقيل أنها

¹ - المفردات في غريب القرآن للأصفهاني، ص 134.

² - الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، مجلد 2، ج 1 ص 217.

النبوة، قيل العقل، وقيل الخشية وقيل الورع، وأصل الحكمة ما يمنع من السفه وهو كل قبيح^(١)، وقيل عن لقمان الحكيم: ((الصمت حكم وقليل فاعله)).

أهل الحكمة يملكون ومضات فكرية دائماً يبتونها كفكرة إيجابية، هم أهل الاتزان العقلي وأهل المهمة ويجدون الحلول للمشاكل، ويجتهدون بالقول الصائب السليم، يحملون الصور الذهنية النيرة لتتشكل أفكاراً نيرة هذه هي الحكمة توهب لحاملها بما يوفقه الله له، وتكون ملكاته مستعدة لذلك.

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: ((خذ الحكمة، ولا يضرك من أي وعاء خرجت))، ويقول ابن عطاء الله السكندري: ((الحكمة القيد وإن قيدت بها نفسك امتنعت، وإن رميتها تسببت تسبب))^(٢).

أساس الحكمة: أن تعطي كل شيء حقه، ولا تعديه حده، ولا تعجله عن وقته، ولا تؤخره عنه،... فالحكمة إذاً: فعل ما ينبغي، على الوجه الذي ينبغي، في الوقت الذي ينبغي قولاً وفعلاً وعين الحكمة وضع الأشياء في مكانها قولاً وفعلاً.

ولقد امتن الله على رسوله وأمته بما أتاهم من الحكمة، قال تعالى:

○ ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ البقرة/151، وهنا الحكمة تعني هدي النبوة أي السنة الشريفة.

وللحكمة ثلاثة أركان:

1- العلم.

2- الحلم.

¹ - فتح القدير للشوكاني، ج 1، ص 89..

² - ابن عطاء الله السكندري: تاج العروس الحاوي لتهذيب النفوس، ص 474.

3- الأناة.

وآفاتها وأضدادها: الجهل والطيش والعجلة، سئل لقمان الحكيم: ((ممن تعلمت الحكمة، قال: من الجهلاء، فكلمنا رأيت فيهم عيباً تجنبتة)).

فلا حكمة لجاهل، ولا طائش، ولا عجول، وتكمل الحكمة بأن تشهد نظر الله في وعده، وتعرف عدله في حكمه وتلحظ بره في منعه أي تعرف الحكمة في الوعد والوعيد، وتشهد حكمه في قوله:

○ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ النساء/40، فتشهد عدله في وعيده وإحسانه في وعده.

وكذلك تعرف عدله في أحكامه الشرعية، والكونية الجارية على الخلائق، فإنه لا ظلم فيها، ولا حيف ولا جور، وإن أجراها على أيدي الظلمة فهو أعدل العادلين، ومن جرت على يديه هو الظالم.

فإنه سبحانه هو الجواد الذي لا ينقص خزائنه الإنفاق، ولا يفيض ما في يمينه سعة عطائه فما منع من منعه فضله إلا لحكمة كاملة في ذلك، فإنه الجواد الحكيم، وحكمته لا تناقض جوده.

فهو سبحانه لا يضع بره وفضله إلا في موضعه ووقته بقدر ما تقتضيه حكمته، ولو بسط الله الرزق لعباده لفسدوا وهلكوا، ولو علم في الكفار خيراً وقبولاً لنعمة الإيمان، وشكراً له عليها، ومحبة له واعترافاً بها، لهداهم إلى الإيمان، ولهذا لما قالوا للمؤمنين:

○ ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾ الأنعام/53.

○ أجابهم بقوله: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ الأنعام/53.

فهو سبحانه ما أعطى إلا بحكمته، ولا منع إلا بحكمته، ولا أضل إلا بحكمته⁽¹⁾ فالحكمة كالشجرة تنبت بالقلب وثمارها حكم عقليه وطعمها في لسان صاحبها وأهل الحكمة يتميزون بالهدوء النفسي والوقار والسكينة، وعدم لفت النظر إليهم دون العزلة بل هم في مخالطة مع الناس لكن صمتهم يطفى على تصرفاتهم، وأهل الحكمة يجبرون الخواطر لأنهم أهل الخير، فطوبى لمن جعله الله مفتاحاً للخير مغلاقاً للشر.

وقال الشافعي يرحمه الله تعالى: الفضائل أربع:

إحداها: الحكمة وقوامها الفكرة.

والثانية: العفة وقوامها في الشهوة.

والثالثة: القوة وقوامها الغضب.

والرابعة: العدل وقوامه في اعتدال قوى النفس.

أهم طرق الوصول للحكمة أنها هبة من الله عز وجل، ومنها اكتساب نتيجة تراكم الخبرات والمعرفة فتقود صاحبها إلى إيجاد الحل والربط والرزانة العقلية، وإعطاء الرأي في حل المشاكل، وأخذ القرارات، لأن الحكمة هي وضع الأشياء في مكانها المحدد.

وفي الختام علينا أن نتذكر قول رسول الله ﷺ:

﴿لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَيْنِ، رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَسَلَّطَهُ عَلَىٰ هَلَكَةٍ فِي الْحَقِّ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الْحِكْمَةَ فَهُوَ يَعْلَمُهَا النَّاسُ﴾.

¹ - ابن القيم: تهذيب مدارج السالكين، ص 435- 437 بتصرف.

البند التاسع:

البصيرة القلبية

البصيرة يقال: ((لقوة القلب المدركة بصيرة))، وبصر نحو قوله تعالى:

○ ﴿فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ ق/22.

○ وقال جلّ وعلا: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ النجم/17.

وجمع البصر أبصار وجمع البصيرة بصائر:

○ قال تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ يوسف/108، أي على معرفة وتحقق⁽¹⁾.

والاستبصار، وهو استفعال من التبصر وهو تبين الأمر وانكشافه وتجليه للبصيرة⁽²⁾.

مهارات كثيرة لأولي الألباب، هنا مهارة التعليل والتحليل الذهني وانكشاف الأمور على حقيقتها والبصيرة هي طاقة نورانية من الله عزّ وجل تسكن قلب المؤمن العاقل الفطن.

والبصيرة: سراج عقل المؤمن، كلما قويت بصيرته اضاءت لعقله نوراً، فتنكشف الأشياء بحقيقتها الباطنية والظاهرية.

فتعمل كعمل كشاف يضيء ويبصر بحقائق الأشياء بعد أن ينجلي عنها غشاوة الباطل وزيغ الشيطان فيفرق بين الحق والباطل، وروي عن النبي ﷺ قال: ﴿الْعَقْلُ نُورٌ فِي الْقَلْبِ يُفَرِّقُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ﴾⁽³⁾.

¹ - المفردات في غريب القرآن ص 59.

² - ابن القيم: مفتاح دار السعادة، ص 217.

³ - ذكره ابن عبد ربه في العقد الفريد، وجار الله الزمخشري في ربيع الأبرار ونصوص الأخيار.

فالْمُؤْمِنُ الْعَاقِلُ يَتَبَصَّرُ بِبَصْرِ قَلْبِهِ، وَهُوَ عَقْلُهُ اسْتَدَلَّ بِهَا عَلَى وُجُودِ الرَّبِّ تَعَالَى وَقُدْرَتِهِ وَعِلْمِهِ وَرَحْمَتِهِ وَحِكْمَتِهِ وَإِمْكَانِ مَا أَخْبَرَ بِهِ مِنْ حَيَاةِ الْخَلَائِقِ بَعْدَ مَوْتِهِمْ كَمَا أَحْيَا الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا، هَذِهِ أُمُورٌ لَا تَدْرِكُ إِلَّا بِبَصْرِ الْقَلْبِ وَهُوَ الْعَقْلُ^(١).

وأهل البصيرة هم أهل القرآن، وأهل اليقين والاعتبار:

○ قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ آل عمران/13.

فَنَصَرَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَأَيَّدَهُمْ بِنَصَرِهِ فَهَزَمُوهُمْ وَقَتَلُوا صِنَادِيهِمْ، وَأَسْرَوْا كَثِيرًا مِنْهُمْ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِأَنَّ اللَّهَ نَاصِرٌ مِنْ نَصَرِهِ وَخَازِلٌ مِنْ كَفَرٍ بِهِ، فَفِي هَذَا عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَبْصَارِ، أَيِ أَصْحَابِ الْبَصَائِرِ النَّافِذَةِ وَالْعُقُولِ الْكَامِلَةِ، عَلَى أَنَّ الطَّائِفَةَ الْمَنْصُورَةَ فِيهَا الْحَقُّ، وَالْأُخْرَى مَبْطُلَةٌ، وَإِلَّا فَلَوْ نَظَرَ النَّازِرُ إِلَى مَجْرَدِ الْأَسْبَابِ الظَّاهِرَةِ وَالْعَدَدِ وَالْعُدُوِّ لَجَزَمَ بِأَنَّ غَلْبَتَهُ هَذِهِ الْفِتَّةُ الْقَلِيلَةُ لِتِلْكَ الْفِتَّةِ الْكَبِيرَةِ مِنْ أَنْوَاعِ الْمَحَالِّاتِ، وَلَكِنْ وَرَاءَ هَذَا السَّبَبِ الْمَشَاهِدِ بِالْأَبْصَارِ سَبَبٌ أَعْظَمُ مِنْهُ لَا يَدْرِكُهُ إِلَّا أَهْلُ الْبَصَائِرِ وَالْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَالتَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ وَالثِّقَةِ بِكَفَايَتِهِ، وَهُوَ نَصَرُهُ وَإِعْزَاؤُهُ لِعِبَادَةِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى أَعْدَائِهِ الْكَافِرِينَ^(٢).

هؤلاء هم أهل البصيرة الذين لا يبصرون الأشياء على ظاهرها فقط، لكنهم يبصرون باطن الأشياء على حقيقتها، وتنجلي لهم بعض الحقائق فيستتجون العبر والدروس والمواعظ، قال تعالى:

○ ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ الحج/46.

¹ - ابن القيم: مفتاح دار السعادة، ص221.

² - تفسير تيسير كريم الرحمن للسعدي، ص112.

قال مجاهد: ((لكل إنسان أربع أعين: عينان في رأسه لدنياه، وعينان في قلبه لأخرته، فإن عميت عينا رأسه وأبصرت عينا قلبه فلم ينفعه عماء شيئاً، وإن أبصرت عينا رأسه وعميت عينا قلبه فلم ينفعه نظره شيئاً))⁽¹⁾.

فالمؤمن بحاجة لنور من الله تعالى ليستتير عقله ويبصر الحق في هذه الحياة:

○ قال تعالى: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُينَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ الأنعام/122.

لتحيا القلوب المبصرة بهذا النور الإيماني وتتكشف حجب لا يعلمها إلا الله، فيرى ما لا يرى الآخر ويسمع ما لا يسمع الآخر، ويشعر ما لا يشعر الآخر، إنه عالم الود والحب مع الله عز وجل.

والعقل هو بمنزلة العين للإنسان التي تبصر نور الشمس فأى خلل في العين تجعله أعمى ومن لا يملك العقل لا يملك الإبصار ولا التبصر، فنور الإيمان هو رأس الهرم وبه يستتار العقل المتبصر.

قال أبي بن كعب: ((«نور على نور» المؤمن يتقلب في خمسة من النور، فكلامه نور، وعمله نور، ومدخله نور، ومخرجه نور، ومصيره إلى يوم القيامة إلى الجنة)).

وقال السعدي: ((نور على نور قال: نور النار ونور الزيت حين اجتماعا أضاء ولا يضيء واحد بغير صاحبه، كذلك نور القرآن ونور الإيمان حين اجتماعا فلا يكون واحد منهما إلا بصاحبه، وقوله تعالى: يهدي الله لنوره من يشاء أي يرشد الله إلى هدايته من يختاره، كما جاء في الحديث: ﴿إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ خَلْقَهُ فِي ظُلْمَةٍ ثُمَّ أَلْقَى عَلَيْهِمُ

¹ - الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، المجلد السادس، ج2 ص234.

مِنْ نُورِهِ يَوْمَئِذٍ، فَمَنْ أَصَابَ مِنْ نُورِهِ يَوْمَئِذٍ اهْتَدَى وَمَنْ أَخْطَأَ ضَلَّ فَلِذَلِكَ أَحَقُّ: جَفَّ الْقَلَمُ عَلَى عِلْمِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ)) أَخْرَجَهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ^(١)، قَالَ تَعَالَى:

○ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ الأنفال/29.

قيل: ((نورٌ يفرق به بين الحق والباطل ويخرج به من الشبهات))، ولذلك كان ﷺ يكثر من دعائه من سؤال النور قال ﷺ: ﴿اللَّهُمَّ أَعْطِنِي نُورًا وَزِدْنِي نُورًا وَاجْعَلْ لِي فِي قَلْبِي نُورًا وَفِي قَبْرِي نُورًا وَفِي سَمْعِي نُورًا وَفِي بَصَرِي نُورًا﴾^(٢).

¹ - مختصر تفسير ابن كثير للصابوني ج2، ص 604-605.

² - رواه البخاري برقم/117/ومسلم برقم/763/.

البند العاشر:

الفراسة عين البصيرة

البصيرة تزداد طرداً بازدياد التقوى إلى أن تصل بصاحبها إلى درجة عالية من الحدس والإدراك وترتفع حواسه سمواً ورفعة فيصبح حاملها من أهل الفراسة فيرى ويسمع بنور الله.

○ قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّمَتَّوِّسِينَ﴾ الحجر/75.

روى الترمذي الحكيم من حديث أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ أنه قال: ﴿لِمَتَّوِّسِينَ﴾، وهو قول مجاهد.

وروى الترمذي عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿اتَّقُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّهِ﴾.

وروى الترمذي عن ثابت عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عِبَادًا يُعَرِّفُونَ النَّاسَ بِالتَّوَسُّمِ﴾.

فراسة التوسم: هي استدلال بالشكل الظاهري في الوجه وحركات الأيدي وما ينتج عنها من تصرفات، ومن هنا تبدأ المعرفة من خلال هذه الملامح ليستدل بها لفهم النفس البشرية وكشف بعض الطباع فيها.

قال العلماء: ((التوسم تفعل من التوسم، وهي العلامة التي يستدل بها على مطلوب غيرها، يقال: توسمت فيه الخير))، ومنه قول عبد الله بن رواحه للنبي ﷺ:

إني توسمت فيك الخير أعرفه والله يعلم أنني ثابت البصر

قال الثعالبي: ((وأصل التوسم التثبيت والتفكير، وذلك يكون بجودة القريحة وحدة خاطر وصفاء الفكر، بتفريغ القلب من حشو الدنيا))، وقالت الصوفية: ((أنها

كرامة، وقيل: بل هي استدلال بالعلامات))، وقول ابن عباس: ((ما سألتني أحد عن شيء إلا عرفت أفضيه هو أو غير فقيه)).

وروي عن عثمان بن عفان رضي الله عنه أن أنس بن مالك دخل عليه، وكان قد مر بالسوق فنظر إلى امرأة، فلما نظر إليه قال عثمان: ((يدخل أحدكم علي وفي عينيه أثر الزنا فقال له أنس: أوحياً بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقال: لا ولكن برهان وفراسة وصدق))⁽¹⁾.

وللفراسة أنواع:

فراصة مدلول للكلام «فراصة السمع»:

○ قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾ محمد/30.

فمعرفة الإنسان وما يقصده يظهر أجلى وأوضح من ظاهر كلامه لأن الكلام يفيض صاحبه مهما حاول أن يُجمِّله فدلالة الكلام على قصد قائله أوضح وأجلى لكي يعرف المتفرس ما وراء القصد، لأن اللسان مغرفة القلب يخرج ما في القلب من طيب الإيمان ونوره، أو يخرج ما في القلب من ضغائن وأحقاد للعلن.

فراصة النظر: التمعن بتعابير الوجه قد تعطي بعض المدلولات لكن الخصم قد يجيد التمثيل فيغير من تعابير وجهه إشارات فتكون فراصة السمع أوضح وأجلى ودلالته أوضح مهما حاول الآخر أن يستتر لكي يخفي ما في صدره.

وعليه فالفراصة هي النظر بخفاء إلى أمر ما يلمح فيه مدلولات وتوسمات للشخص.

¹ - الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، بتصرف المجلد الخامس ج2، ص279 - 280.

آلية الدراسة والتبصر تعتمد على معايير أهمها:

- 1) دقة ملاحظة المتفرس للأخر بسماع كلامه وفهمه والتمعن بتعابير وجهه.
 - 2) هذه الملاحظات تعطي للمتفرس ومضة في خاطره بأن هذا الذي أمامه صادق أو كاذب في قوله وتصرفه ولو تصرف كل تصرفاته بدهاء وخبث ومكر.
 - 3) هذه الخاطرة تتحرك وتعمل عملها لتشكل صورة ثم فكرة تجول في عقل المتفرس.
 - 4) فتخرج هذه الفكرة مباشرة بقرار يقيني بأن الذي أمامه منافق أو كاذب أو صادق، أدباً للمتفرس التقى يقول ظني بفلان كذا وكذا، ولا أزكي على الله أحد إذ كان يمدحه.
 - 5) هذه النتيجة لا تأتي للمتفرس عبثاً، إنما نتيجة متراكمة للركائز في قلبه.
- أولاً: نور الإيمان ونور العقل، فيزداد تبصراً وفساسة.

ثانياً: كثرة التجارب، والقراءة المستمرة، وفهم التاريخ وتنوع في اكتساب الثقافات.

ثالثاً: التدبر والتفكير والتمعن ودراسة القرآن بطرق استكشافية عندها يتأكد قول من قرأ قرأ وربك الأكرم فيزداد نوراً فيحيا قلبه ويستتير، فلا تكاد فراسته تخطى:

○ قال تعالى: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُينَ لِّلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ الأنعام/122.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: ((افرس الناس ثلاثة، العزيز في سورة يوسف، حيث قال لامرأته: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ يوسف/21، وابنة شعيب حين قالت لأبيها في موسى ﴿اسْتَأْجِرْهُ﴾ القصص/26، وامرأة فرعون، ﴿وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ القصص/9)).

وأعظم أهل الفراسة على الإطلاق فراسة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ولعلنا يجب أن نفرق بين الفراسة المتبصرة بنور الله التي تسكن قلب المؤمن التقي وبين الدهاء هو نوع من أنواع الفطنة والذكاء العقلي وسرعة البديهة واقتناص الكلمة والفرصة وتحويلها من صالح الخصم لصالحه حسب الموقف الذي أمامه وهذا ما قيل في دهاء الحجاج بن يوسف الثقفي عندما كان والياً للعراق إنه صعد المنبر مرة ليخطب الجمعة وقبل أن يشرع في الخطبة انتقض وضوؤه، وخشى الحجاج أن يعير بها، إن أخبرهم بانتقاض وضوئه، فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: ((بلغني أنكم لا تحسنون الوضوء، وقد نويت أن أعلمكم وضوء النبي محمد صلى الله عليه وسلم، يا غلام... انتني بالطست والماء لأعلمكم كيف كان الرسول عليه الصلاة والسلام يتوضأ))⁽¹⁾، هذا هو عين الدهاء، مع ملاحظة أن ليس كل ذكي داهية، بل كل داهية ذكي.

أما أن يقلب الأمور ويقلب الباطل حقاً فهذا هو عين المكر وهذا النوع من الناس يطوعون كل شيء لأهدافهم، لكن الله عز وجل يعطي لأهل التقوى نوراً يمشون به.

○ قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَأْمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ الحديد/28.

ملاحظة هامة: الذكاء في الفهم، يقال شخص ذكي: أي عاقل لديه سرعة الفهم.

¹ - منصور عبد الحكيم: الحجاج بن يوسف الثقفي - طاغية بني أمية، ص 389.

البند الحادي عشر:

التذكر من صفات أولي الألباب

التذكر: الحفظ للشيء، والشيء يجري على اللسان^(١)، والتذكر ضد النسيان، والتذكر يقال باستحضاره، ولذلك الذكر ذكران، ذكر في القلب وذكر في اللسان وكل قول يقال له ذكراً^(٢).

وأولو الألباب هم الذين فهموا وتدبروا آيات القرآن وحفظوه وعقلوه ووعوه:

○ قال تعالى: ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ﴾ الأنبياء/50.

القرآن سُمِّيَ ذكراً لأنه يُذَكَّرُ ما ركزه الله في العقول والفطرة من التصديق بالأخبار الصادقة، والأمر بالحسن عقلاً، والنهي عن القبيح عقلاً^(٣).

فالذكر عبودية القلب منها تتطلق للسان والجوارح، وهو العلم الذي يوصل المؤمن إلى اليقين الكامل وإيثار الآخرة، واستعداد للرحيل بالعمل الصالح.

ويسمى تذكراً لأنه استحضار العلم الذي يجب مراعاته بعد ذهوله وغيبته عنه، ومنه قوله تعالى:

○ ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾

الأعراف/201^(٤).

¹ - القاموس المحيط لـ الفيروز أبادي، ص394.

² - المفردات في غريب القرآن للأصفهاني، ص184.

³ - تفسير تيسير كريم الرحمن للسعدي، ص528.

⁴ - ابن القيم: مفتاح دار السعادة، ص217.

○ قال تعالى: ﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ ص/1.

أي ذي القدر العظيم والشرف، والمُذَكَّرُ للعباد كل ما يحتاجون إليه من العلم بأسماء الله وصفاته وأفعاله، ومن العلم بأحكام الله الشرعية ومن العلم بالميعاد والجزاء، فهو مذكر لهم في أصول دينهم وفروعه⁽¹⁾.

○ قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ الغاشية/21.

أي ذكر الناس وعظهم وأنذرهم وبشرهم، فإنك مبعوث لدعوة الخلق إلى الله وتذكيرهم، ولم تبعث مسيطراً عليهم مسلطاً موكلاً بأعمالهم، فإذا قمت بما عليك فلا يقع عليك بعد ذلك لوم⁽²⁾.

تكرر ذكر أولي الأبواب في كتاب الله حوالي ست عشرة مرة لكن لاحظت أن أكثر من تسع آيات منها تتحدث عن الذكر والتذكر وذكرى، وليذكر أولو الأبواب.

○ قال تعالى: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ آل عمران/7.

من يتعظ بمواعظ الله ويقبل نصحه وتعاليمه هم أولو الأبواب أي: أهل العقول الرزينة لب العالم، وخالصة بني آدم يصل التذكير إلى عقولهم، ويتذكرون ما ينفعهم فيعقلونه، وما يضرهم فيتركونه، وأما من عداهم فهمهم القشور التي لا حاصل لها ولا نتيجة تحتها لا ينفعهم الزجر والتذكير لخلوهم عن العقول النافعة⁽³⁾.

ومعنى الذكر هو عملية عقلية تعيد الانتباه وتجلو الصداً وتظهر لليقين قوته ويشرح الصدر وتسكن النفس، ومنزلة الذكر عظيمة على القلب لأنه كماء الحياة

¹ - تفسير تيسير كريم الرحمن للسعدي، ص717.

² - المرجع السابق، ص937.

³ - المرجع السابق.

وغياء القلب، وباردياد ذكر الله تزداد تألق معنى العبودية بل وتزداد حلاوة حياة القلب، لأن الذكر عبودية القلب واللسان.

وعنه عليه السلام قال: ﴿مِثْلُ الَّذِي يُذَكِّرُ رَبَّهُ وَالَّذِي لَا يُذَكِّرُهُ ! مِثْلُ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ﴾⁽¹⁾.

قال الحسن البصري رحمه الله: ((تفقدوا حلاوة الإيمان في ثلاثة أشياء: في الصلاة، والذكر، وقراءة القرآن)).

فذكر الله الدائم يجلو الصدر من الهموم ومكدرات الحياة ويدفع الغفلة وينحيها جانباً:

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ الأنفال/2.

وفلاح المؤمن يأتي بالإكثار من ذكر الله عز وجل:

○ ﴿فَاتَّبِعُوا وَادْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ الأنفال/45.

وأما أهل الخسارة فهم الذين أضاعوا ذكر الله لاهتمامهم بجمع المال وتكاثر الأولاد:

○ قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَلْهَكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ

وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ المنافقون/9.

¹ - رواه البخاري.

أهل الذكر: أهل التفكير في آيات الله المقروءة والمنظورة:

○ قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾
آل عمران/191.

فتعالوا نجعل ألسنتنا رطبة بذكر الله.

عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿أَلَا أُبَيِّنُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ، أَرْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ، وَأَرْفَعَهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ، وَخَيْرٌ لَّكُمْ مِنْ إِعْطَاءِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، وَأَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ، فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ؟ قَالَ: وَمَا ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: ذَكَرَ اللَّهُ عِزًّا وَجَلًّا^(١).

○ ومصدقا لهذا قال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ ص/29.

يقول الحسن البصري: ((والله ما تدبره بحفظ حروفه وإضاعة حدوده، حتى أن أحدكم ليقول والله لقد قرأت القرآن فما أسقطت منه حرفاً، وقد أسقطه والله كله، ما يرى للقرآن عليه أثر، في خلق ولا عمل))^(٢).

لهذا حذرنا القرآن الكريم من إطاعة أهل الغفلة الذين غفلوا عن ذكر الله:

○ قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ الكهف/28، فمن جعل الهوى إلهه هوى، ومن جعل العقل رفيقه ارتقى .

¹ - رواه أحمد في مسنده.

² - صفوة التفاسير للصابوني، ص1050.

○ قال تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الذاريات/55.

والتذكير نوعان:

النوع الأول: تذكير بما لم يعرف تفضيله، مما عرف مجمله بالفطر العقول، فإن الله فطر العقول على محبة الخير وإيثاره، وكراهة الشر والزهد فيه، وشرعه موافق لذلك، فكل ما أمر به ونهى عنه الشرع فإنه من التذكير، وتمام التذكير أن يذكر ما في الأمور من الخير والحسن والمصالح، وما في النهي عنه من المضار.

والنوع الثاني: من التذكير: تذكير لما هو معلوم للمؤمنين، ولكن انسحبت عليه الغفلة والذهول، فيذكرون لذلك، ويكرر عليهم ليرسخ في أذهانهم، وينتبهوا ويعملوا بما تذكروه من ذلك، وليحدث لهم نشاط وهمة، توصي لهم الانتفاع، وأخبر الله أن الذكرى تنفع المؤمنين، لأن ما معهم من الإيمان والخشية والإنابة، واتباع رضوان الله، يوجب لهم أن تنفع فيهم الذكرى وتقع منهم الموعظة موقعها، كما قال تعالى:

○ ﴿ذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى﴾9﴿ سَيَذَكِّرُ مَنْ يَخْشَى﴾10﴿ وَيَتَجَنَّبَهَا
الْأَشْقَى﴾ الأعلى/9-11⁽¹⁾.

¹ - لمسة بيانية: مما أورده د. فاضل السامرائي.

- استخدم القرآن الكريم كلمتين «يتذكرون» و«يذكرون» فهما واحد من حيث اللغة.
- «يتذكرون» الأطول وفيها تضعيف واحد، يستعمل القرآن الكريم «يتذكر لطول الوقت في التذكر العقلي»، بمعنى إعادة التذكر الماضي، تذكر الأعمال الماضية وتذكر سعيه مما يأخذ وقتاً طويلاً، فاستخدمت للأحداث الطويلة الأمد الماضية ﴿فَإِذَا جَاءتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى﴾34﴿ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى﴾ النازعات/34-35، ﴿وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾ الفجر/23.
- أما «يذكرون» ففيها تضعيفين يدلان على المبالغة في التذكر، وشدة تهتزها القلوب ومحلها العقل، ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ الإسراء/41.

وأما من ليس معه إيمان ولا استعداد لقبول التذكير، فهذا لا ينفع تذكيره وهو بمنزلة الأرض السبخة التي لا يفيدها المطر شيئاً، وهؤلاء الصنف لو جاءتهم كل آية لم يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم⁽¹⁾.
فأهل أولي الأبواب هم الذين يتذكرون بما حفظوه ووعوه لأنهم أهل الإنابة والعودة الدائبة إلى الله:

○ ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ﴾ غافر/13.

قال الحسن البصري رحمه الله: ((ما زال أهل العلم يعودون بالتذكر على التفكير وبالتفكير على التذكر، ويناطقون القلوب حتى نطقت بالحكمة))، وتذكر يتضمن معنى التعلم والاكساب، كما يتضمن معنى الوعي والاحتفاظ بما حفظه في ذاكرته، فالتفكير يحصله والتذكر يحفظه.

وفائدة التذكير تكرار المعارف على القلب لترسخ فيه، وفائدة التفكير، تكثير العلم واستجلاب المعرفة:

○ قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَبَابِ﴾ الرعد/19.

○ قال تعالى: ﴿هُدًى وَذِكْرَى لَأُولِي الْأَبَابِ﴾ غافر/54.

والذكرى: كثرة الذكر وهو أبلغ من الذكر⁽²⁾.

¹ - صفوة التفاسير للصابوني، ص 824.

² - المفردات في غريب القرآن للأصفهاني، ص 185.

كيف تتم عملية التذكر:

عملية التذكر لاستحضار العام بحاجة لاستحضار الصور الذهنية الماضية والانطباعات والألفاظ والمعاني والأشكال السابقة التي مرت، كاسترجاع حادثة أو قول ما أو صورة ما، ومجالسة أهل الخبرة والحكمة يفيد أهل العقول.

كما قال السلف الصالح: ملاقاته الرجال تلقيح لألبابها والفكرة ثمرة العلم ويناطقون القلوب حتى نطقت بالحكمة.

فالذاكرة بها لقاح العقل، والفكر ثمرة العلم، والخير والسعادة مفتاحهما التفكير.

فعلوم الوحي بحاجة إلى تكرار وحفظ لكي لا تنسى، وقيل العلم في الصغر كالنقش على الحجر لذا مرحلة الطفولة هامة تحفظ الصور الذهنية فما بالكم بحفظ القرآن فتعالوا معاً نفهم أين يوعى المعتقد الإيمان في القلب، وكيف يتم الحفظ في الذاكرة القلبية.

إن الخلايا المتميزة الوعائية في القلب تعي وتحفظ كلمات الله وآياته لأنها ترسخت فيها ولها طاقة استيعابية لا يعلمها إلا الله ومبرمجة على حفظ المعتقد الإيمان... وللعلم فإن معنى آخر للتذكر (الحفظ للشيء)⁽¹⁾، فالوعي يقاس بالأثر فما بالكم بأثر آيات القرآن الكريم على سامعها وحافظها.

فتعالوا نستذكر أنواع الذاكرة في الإنسان.....

في الدماغ يوجد أنواع كثيرة فمثلاً ذاكرة تحفظ الأمور السريعة كالأرقام والملاحظات والمواعيد وحفظ الصورة الذهنية السمعية وأخرى البصرية اليومية، هي ذاكرات قصيرة الأمد، تسمح كثيراً من هذه الصور لأنها يومية، وأكبر ذاكرة في

¹ - القاموس المحيط لـ فيروز أبادي، ص 394.

الدماغ في منطقة الحصين قدرت مساحتها بحوالي 1000 تيرا بايت أي مليون جيجا بايت وهذا ما يعادل 3 مليون ساعة فيديو، لكن التي تحفظ المعتقد الإيماني والخبرات والعادات المستمرة، والأحداث الهامة والمؤثرات الماضية فإنها تحفظ كما يدعي علماء النفس في العقل اللا واعي أو الباطني.

ونحن نسميه القلب أي العقل المطبوع الذي يحتوي على الذاكرة العميقة طويلة الأمد من الصعب مسحها لأنها مترسخة وتتحضر في أكايد القلب أي بمعنى آخر أرشيف كامل للمعتقد الإيماني والطباع والعادات والمشاعر والأحاسيس كلها مؤرشفة في الذاكرة الطويلة الأمد القلبية، والله عز وجل تكفل

ب حفظ القرآن ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ الحجر/9.

أليس من المعيب أن تلهينا وأموالنا وأولادنا عن ذكر الله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ المنافقون/9.

هل من الممكن أن نفقد ذاكرتنا؟.

نعم... تعالوا ندرس حالة الخرف والذي يسمى مرض الزهايمر، فهو مرض ناتج عن حالة عصبية تتدهور بشكل ثابت خاصة في منطقة الحصين، الذي يقع على جانبي الدماغ يحتوي على الملايين من العصبونات والمتمركزة فيه الذاكرة الأكبر في الدماغ.

ومنطقة قاعدة الدماغ التي تزداد خسارة الخلوية تدهوراً خاصة العصبونات الكولينية وهي عصبونات تستخدم الناقل العصبي الاستيل كولين تتوزع على نطاق

واسع للحاء ويمكن أن تؤدي إلى تعطيل الانتباه وبداية الخرف لفقدانهم محتوى الذاكرة^(١).

يعتقد بأن هناك نوع من أنواع الزهايمر وراثي يظهر بسن مبكرة «في العقد الرابع» أما الزهايمر المتأخر أي بعد سن 60 عاماً^(٢).

والزهايمر هو حالة تبدأ بتعطيل عمليات الانتباه يترافق مع فقد جزء كبير من الذاكرة القصيرة الأمد أي التي تحفظ ما يحدث حالياً، بمعنى مريض الزهايمر لا يعرف ماذا أكل منذ ساعة، ومن تحدث معه، ولا يعرف إن دخل الحمام من قبل، لكنه يعرف أسماء أهله وأقاربه ولا ينسى شيئاً من الماضي أي من الذاكرة طويلة الأمد المؤرشفة في القلب - في العقل اللاوعي الباطني المطبوع، فالمؤمن الذي يصاب بالزهايمر الجزئي يقوم ويصلي كل صلواته ويساعده أهله في الوضوء وتحديد موعد الصلاة ويعرف أهله وأسماء كل من لهم صلة به مباشرة لكن الزهايمر إذا ازداد قد يصل إلى الذاكرة القلبية التي فيها المعتقدات والمشاعر والحب والبغض... الخ.

هنا مريض الزهايمر ينسى كل شيء حتى لا يعرف أهله لكن بعض أهل الإيمان والتقوى أكرر أهل الإيمان والتقوى يظل جزء من ذاكرتهم القلبية التي تحمل المعتقد الإيماني غير معطلة، فعند الأذان يطلب أن يصلي، فسبحان الله من جعل كلامه محفوظاً في صدور المؤمنين.

¹ - لاري. آر. سكووير آيرك آر. كاندل: الذاكرة من العقل إلى الجزئيات، ص 396 طباعة مكتبة العبيكان.

² - المرجع السابق، ص 401 - 402.

حينما تضيع الذاكرة كما هو الحال في مرض الزهايمر، فإننا نخسر
مقدرتنا على إحياء ماضيها وتكون النتيجة أننا نفقد صلتنا بأنفسنا وبالأخرين⁽¹⁾.
هذا صحيح لكن يستثنى المؤمن التقى وبفضل الله عزّ وجل يحفظ له إيمانه في
قلبه فلا ينسى نداء الصلاة ولا ينسى صلاته سبحانه اللهم.

¹ - المرجع السابق، ص10.

البند الثاني عشر:

من مهارات أولى الألباب

«يستمعون القول فيتبعون أحسنه»

قال تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿17﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ الزمر/17-18.

﴿أُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ أي العقول الذكية... ومن لبهم وحزمهم عرفوا الحسن من غيره وآثروا ما ينبغي إثاره على ما سواه، وهذه علامة العقل، بل لا علامة للعقل سوى ذلك، فإن الذي لا يميز بين الأقوال حسنها وقبحها، ليس من العقول الصحيحة أو الذي يميز لكن غلبت شهوته عقله، فبقي عقله تابعا لشهوته، فلم يؤثر الأحسن كان ناقص العقل⁽¹⁾.

ويعبر تارة بالسمع عن الأذن نحو ﴿حَتَّمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾ البقرة/7، وتارة عن فعله كالسمع نحو إنهم عن السمع لمعزولون، وتارة عن الفهم وتارة عن الطاعة تقول اسمعوا ما أقول لك ولم تسمع ما قلت وتعني لم تفهم: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ البقرة/93، أي فهمنا قولك ولم نأتمر لك، فحظ الكافرين من السمع لفظه وهو حظ الأذن، لأن قلوبهم لاهية غافلة عن سماع المعنى من المسموع:

○ ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ النور/51، أي فهمنا وأجبنا وهذا للمؤمنين، لأنهم فهموا سماع حقيقة المسموع وهو حظ القلب الحي.

¹ - تفسير تيسير كريم الرحمن للسعدي، ص 729.

أسئلة مطروحة:

- ما الفرق بين معنى الاستماع والإنصات؟ وكيف تصل الرحمة لمن يستمع وينصت للقرآن؟.
 - كيف تتم عملية تأثير الكلمات القرآنية على الخلايا العصبية فيشعر المريض بالسكينة والطمأنينة؟.
 - ما هو تأثير سماع القرآن على المورثات السلوكية؟.
- ما تأثير الكلمات القرآنية على الكافرين الذي نعتهم القرآن الكريم:
- ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ الإسراء/41.

الفرع الأول

معجزة الكلمة القرآنية عند الاستماع والإنصات لها

قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾

الأعراف/204.

والاستماع: هو الإصغاء نحو:

○ ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ الإسراء/47⁽¹⁾.

الإنصات: ترك التحدث والانشغال بما يشغل عن سماعه - أي سكت مستمعاً⁽²⁾.

المرحلة الأولى: هنا لطيفة إعجازية للاستماع والإنصات للقرآن الكريم، عند سماع كلام الله المدرك بالأذن، وبإصغاء وانتباه شديد والتركيز لسماعه، وترك التحدث والثرثرة، والبعد عن أي مؤثرات، يبدأ القلب بالاسترخاء وتهدأ الانفعالات الجسمية وتبدأ سكون النفس لانخفاض الأدرينالين في الجسم وتبدأ عمليات التمعن والتركيز عملها للإنسان المؤمن لأن هذه الكلمات القرآنية تحمل طاقة نورانية ذات تأثير هائل لمن يستمع بإنصات وإصغاء لها.

¹ - المفردات في غريب القرآن للأصفهاني، ص 249.

² - المرجع السابق، ص 307.

هذا للمؤمن المتأثر بالسموع-المؤثر- هذا التفاعل بينهما يزداد فهماً وتدبراً كلما كان الإصغاء والتركيز للسموع، وهو سماع حقيقة معناه ومقصوده، وهو حظ القلب الحي.

○ قال تعالى: ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ الحاقة/12.

قال قتادة: ((عقلت عن الله عز وجل فانتفعت بما سمعت من كلام الله)).

المرحلة الثانية : تبدأ بالذبذبات الصوتية التي وصلت إلى مجرى السمع نتيجة تحول الصوت من موجات هوائية إلى موجات صوتية تصل غشاء الطبل فيهتز لتصل إلى العظيومات السمعية (المطرقة والسندان والركاب) ثم إلى الغشاء الذي يغطي القوقعة (بالأذن الداخلية) وفيها سائل يهتز باهتزاز عظمة الركاب لتتحرك الخلايا الشعرية لتولد سيالة عصبية تنتقل عبر العصب السمعي لتظهر أثر هذه الموجات الكهرومغناطيسية، هنا يلتفت القلب الحي إلى معاني المسموع وإدراك معناه فهماً وتدبراً ليسترشد عقله إلى حقيقة مقصوده، عندها يختزن القلب ويتشرب نور الوعي لتتشكل هندسة الوعي بأبهى صورته.

هذا هو السماع الإيماني سماع قبول وإجابة بكامل الحب لكلمات المسموع (المؤثر) وهؤلاء المؤمنون لا يقبلون سماع المذموم.

○ قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا﴾ القصص/55.

إنما يعشقون المسموع من كلمات الله عز وجل فيحللون حلاله ويحرمون حرامه.

تعلموا نفهم آلية سماع الكلمات القرآنية وتأثيرها على المؤمن العاقل:

الذبذبات الاهتزازية الصوتية تحسب التردد بالثانية فازدياد التردد يزداد معه حدة الصوت.

وأذن الإنسان لا تسمع الصوت إذا كان تردده أقل من 20 ديسبل وهو مجال الهمس وأعلى من 150 ديسبل ينفجر غشاء الطبل ويفقد السمع، فالذبذبات الصوتية للكلمات القرآنية تصل إلى الخلايا العصبية الأذنية التي هي فائقة التمييز، ترتبط بالخلايا العصبية المحيطة بالقلب مباشرة عن طريق العصب العاشر الذي يسمى العصب الحائر أو التائه، فتصل الذبذبات الصوتية للكلمات القرآنية إلى القلب مباشرة وهو محل المعتقدات الإيمانية والمشاعر والطباع، فتعمل على إعادة برمجة الحمض النووي المنقوص الأوكسجين «DNA» والذي هو مادة الحياة، لأن الترددات الاهتزازية لكلمات القرآن توافق لغة تركيب المورثات السلوكية الإيجابية فتعيد تفعيل «DNA» بشكل إيجابي لهذه المورثات السلوكية الموجودة حصراً في القلب، حيث لها نفس النظام الترددي فتتوسم بنور الطمأنينة للمؤمن المستمع والمنصت للقرآن، هذه الكلمة القرآنية ذات سلطان طاقي هائل، بل سحر الكلمة وقوتها تفعل الأعاجيب وتفتح قلوب العباد وتكون الرحمة قريبة ممن يسمع كلماتها .

بهذه الترددات الصوتية والذبذبات الطاقية لكلمات القرآن تعمل الخلايا العصبية على تمرير بالمشبك العصبي الموصلات العصبية الكيمائية (الناقل العصبي الكيمائي، نتيجة فعل الجهد الكهربائي على طول المحور العصبي وحركة الأيونات «الشوارد» عندها تثار الحويصلات فتتفجر)⁽¹⁾، طارحة مواد كيميائية وأهمها الدوبامين الذي يؤثر مباشرة على الحالة النفسية للإنسان. فتتخفف شدة التوتر، والاكتئاب والضغط النفسي وتتحول إلى حالة الطمأنينة ويشعر المؤمن بالسعادة (انشرح الصدر):

¹ - كرسيتين تمبل: المخ البشري، سلسلة عالم المعرفة، العدد رقم 287، ص 13.

○ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ﴾ يونس/57.

عند التحدث عن مفهوم مورثات السعادة نجد أن أول مادة يمكن أن تلعب مثل هذا الدور هي الناقل العصبي المسمى (الدوبامين)، وهي مادة السرور الكيمائية تزداد بعد تجربة سارة «كسماع كلمات قرآنية» إن إطلاق وتحول الدوبامين والسيروتونين، هي أول الظواهر التي تفسر تأثير المورثات على السلوك⁽¹⁾، وبالمقابل ينخفض الأدرينالين فينخفض التوتر والانفعال فينشرح الصدر .

○ قال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ الرعد/28.

إن المورثات السلوكية الموجودة في الخلايا القلبية حصراً تحتاج دائماً إلى من يهذبها لكي تظهر فيها السلوكيات الحسنة وهنا يلعب الذكر وقراءة القرآن دوراً بتنقيتها من شوائب الآثام والمعاصي التي أثرت على المورثات السلوكية سلباً وسودت صفحة القلب فلا بد من زيادة نور الإيمان ليروي القلب وليغسل درنه .

وليرجع نقياً صافياً هذا هو حال المؤمن المعلق قلبه بذكر الله، أثبتت الأبحاث أن سماع القرآن يؤثر على رفع النظام المناعي للإنسان، إن تنبه القلب لمعاني المسموع يصل لحالة الفهم وإدراك المعنى، عندها يكون سماع قبول وإجابة:

○ قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا

ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿24﴾ تُوْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَصْرِبُ

اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ إبراهيم/24-25.

إنها كلمة التوحيد، كلمات القرآن الكريم، تنشط وتهذب المورثات السلوكية للصفات الحميدة للإنسان، فتتقوى لمة الرحمن المنادية لفعل الخير لهذا المؤمن في

¹ - كيفن ديفس: الجينوم - كسر شفرة المورثات، ص330.

قلبه فيصوب نفسه باتجاه الاستقامة، وعنه قال رسول الله ﷺ: ﴿حَسَنُوا
أَخْلَاقَكُمْ﴾ .

هنالك تغيرات فيزيولوجية أيضاً تظهر لمن يستمع للقرآن، وأكدها القرآن الكريم:

○ قال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعْرُ مِنْهُ
جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى
اللَّهُ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ انزمر/23.

أحسن الحديث هو القرآن الكريم:

فعند قراءة القرآن وتلاوته تلاوة عقلية تفكرية، وتأمل معانيه يشعر المؤمن العاقل
بتغير جسمي ونفسي كيف هذا؟ لأن الذين يتلون القرآن هم الذين يتبعون أحكامه
ومعانيه فكل تلاوة قراءة وليس كل قراءة تلاوة... إذا تليت عليهم آياته زادتهم
إيماناً، أما قوله:

○ ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ البقرة/121، أي اتباع له بالعلم والعمل⁽¹⁾.

فسماع القرآن أو تلاوته يشعر المؤمن بقشعريرة في جلده وهي دليل الخشوع
والانكسار لرب الوجود، ثم تلين جلودهم وقلوبهم طمعاً بمغفرة الرحمن وزيادة
الهدى فتقشعر جلودهم عند سماع آيات العذاب والخوف من الله عز وجل ذلك
هدى الله يهدي به من يشاء .

ومصدقاً لحديث رسول الله ﷺ قال: ﴿لَا يَقْعُدُ قَوْمٌ يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا حَفَّتْهُمُ
الْمَلَائِكَةُ وَغَشِيَّتْهُمُ الرَّحْمَةُ وَنَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ﴾⁽²⁾.

¹ - المفردات في غريب القرآن للأصفهاني، ص 84.

² - رواه مسلم في صحيحه.

فذكر الله تعالى تجعل المجلس تتعلق حوله الملائكة وتغشيهم الرحمة وتنزل السكينة والطمأنينة عليهم، ويذكرهم الله فيمن عنده سبحانه الله أليست كلها جنود لله:

○ ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ الفتح/7.

والمفتاح بيد المؤمن التقى العاقل، فكلما ازدادت تقوى الله في قلبه ازداد فهماً وتدبراً وتعقلاً لحقيقة المسموع، قال تعالى:

○ ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَسْمِعُوا﴾ المائدة/108.

○ ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ﴾ الأنفال/2.

وإليكم الركائز الأربعة التي تصل بالمؤمن العاقل لكي يكون من أهل الفلاح والفوز العظيم، قال تعالى:

○ ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِّأَنْفُسِكُمْ

وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ التباين/16.

يأمر الله عز وجل بالتقوى أي امتثال أوامره واجتتاب نواهيه، وقيد ذلك بالاستطاعة والقدرة المتأثر من سماع مقصوده، فما بالكم بقارئ القرآن الكريم، بل الذي يرتله ويحفظه ويعقله ويعيه في صدره، قال تعالى:

○ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ ق/37.

وهنا النتيجة الهامة بسماع القرآن تعقلاً وتدبراً تزداد هندسة الوعي في قلب المؤمن تألقاً وترسخاً فيرتقي به للأعلى وتزداد حدة نضارته الفكرية لأنه أوعى آيات الله فهماً، لكن حربهم علينا بما أوعينا وحفظنا فيحاولون تغيير مفاهيمنا بل وتغيير هندسة وعيننا بكتاب الله عز وجل وسنة رسوله ﷺ، ويستحضرون

حروبهم الفكرية في تغيير وعينا واستبداله بمفاهيم فكرية ساقطة يبثونها أهل الحداثة الفكرية والمتورين والعلمانيين لقلب أحكام رب العالمين رأساً على عقب فالحذر الحذر.

ماذا يحدث للكفار عند سماع القرآن: يتأثرون سلباً وتشمئز قلوبهم ويولون الأدبار نفوراً وتصيبهم حالة الاكتئاب النفسي ويضطرب مزاجهم، بل وتزداد عدوانيتهم وانفعالهم وغضبهم.

وذلك لزيادة فرط نشاط هرمون التوتر الأدرينالين والنور أدرينالين التي تفرزه الخلايا النابضة في القلب والمشابك العصبية في الدماغ فتزداد دقات قلوبهم وتبثق عنها ارتفاع ضغط الدم فيظهر ما تكنه سرائرهم من كراهية وحقد واشمئزاز فتظهر علانية، بل وينخفض مستوى السيروتونين فتظهر الكآبة وتوتر القلق الزائد، لكن لو ذكر أسيادهم ليستبشروا مصداقاً لقوله تعالى:

○ ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ الزمر/45.

○ وقال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَتْ رَبُّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوَّا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً﴾ الإسراء/46.

إنهم في حالة الضنك والتعب النفسي والجسمي حتى في حياتهم ومعيشتهم كما قال تعالى:

○ ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ طه/124.

بل ويزيدهم قهراً، فيقيض الله للكافر شيطاناً قريناً له قال تعالى:

○ ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِيضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾
الزخرف/26.

إن الكفار يكونون في حالة نفسية وقلبية شديدة البؤس تنعكس على قلوبهم المشتمزة فتتفطر قلوبهم.

فسورة الجاثية تعطينا شرحاً وافياً عن نوعين من الناس منهم من ينتفع بسماع القرآن، والنوع الثاني يسمعون سماع لفظه وهذا حظ الأذن لغفلة قلوبهم فتقوم عليهم الحجة، ويعرضون عن سماعه عقلاً أي سماع حقيقة معناه، هم الذين قال عنهم القرآن:

○ ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾7 ﴿يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾8 ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ الجاثية/7-9.

أكد فريق من الباحثين في جامعة جونز هوبكنز إلى أن الأخبار السيئة «حالة الاشمزاز والتوتر والضغط النفسي قد تجعل المرضى يتعرضون لعدة أيام لارتفاع الأدرينالين وغيره من الهرمونات التي تقطر القلب التي توجد في الخلايا النابضة بالقلب» ووجدوا أن معدلات هذه الهرمونات أكثر نسبة/7/إلى/34/مرة، مما يوجد في حالات الإصابة بنوبة قلبية.

ويقول "إيلان ويتشاين" رئيس فريق البحث، بعد ملاحظة عدد من حالات ظاهرة انفطار القلب في مستشفيات هوبكنز: ((أدركنا أنه ظهرت على هؤلاء المرضى علامات إكلينيكية تختلف تماماً عن الحالات النموذجية للنوبات القلبية، وأن شيئاً

مختلفاً تماماً كان يحدث⁽¹⁾، هذا ما يحدث لأهل الكفر عند سماعهم القرآن فتزداد حالة الضغط النفسي والتوتر مما يؤثر على انقطاع قلوبهم.

لذا أمر الله تعالى المؤمنين اجتناب المستهزئين قال تعالى:

○ ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيَسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً﴾ النساء/140.

فدل بهذا على وجوب اجتناب أصحاب المعاصي إذا ظهر منهم منكر، لأن من لم يجتنبهم فقد رضى فعلهم، والرضا بالكفر كفر، فكل من جلس في مجلس معصية ولم ينكر عليهم يكون معهم في الوزر سواء، وينبغي أن ينكر عليهم إذا تكلموا بالمعصية وعملوا بها، فإن لم يقدر على النكير عليهم فينبغي أن يقوم عنهم حتى لا يكون من أهل هذه الآية...

أي أن الرضا بالمعصية معصية، فكل قرين بالمقارن يقتدي⁽²⁾، وكل فريق بفريقه يفرح، قال تعالى:

○ ﴿مِثْلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمَى وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ هود/24.

فقدوا توازنهم النفسي والأخلاقي والجسماني وظهرت طاقتهم السلبية، فطبع الله على قلوبهم:

○ ﴿وَنَطَبَعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهَمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ الأعراف/100.

بل وضرب حجاباً مستوراً يستترهم ويمنعهم عن فهم القرآن وتعقله فلا ينتفعون به:

¹ - أخبار BBC العربية، في 2005/2/10.

² - الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، مجلد الثالث، ج 1 ص 279.

- ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ 45 ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوَّا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾ الإسراء/45-46.
- لأنهم أهل الغفلة وانزلاقهم بمتاهات شهواتهم وأهوائهم:
- ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ﴾ الجاثية/23.
- أما المؤمن العاقل فيجعل عقله رقيباً ضابطاً لهواه:
- ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ 40 ﴿فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ النازعات/40.
- وفي الآخرة الندامة لأنهم أصحاب السعير:
- ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ الملك/10.
- وفي ختام هذا البحث يتأكد لنا أن الأذن هي الطريق الأقرب إلى القلب، وقد تكون معلومة مفيدة، لو وضعنا الأذنتين جنباً إلى جنب لتشكّل لنا القلب سبحانه.
- فالحمد لله على نعمة الإسلام، الحمد لله على نعمة القرآن لأنه نور وشفاء ورحمة للعالمين، الحمد لله على نعمة سماع صوت الحق وفهم معانيه.
- تعالوا معاً نتابع بعض صفات أولي الألباب:
- وصف القرآن الكريم أولي الألباب بعشرات الصفات التي ميزتهم عن غيرهم من أهل العقول، لأن عقولهم أدركت من الله عز وجل ما لا تدركه العقول العادية، ففي سورة الرعد:
- قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ الرعد/19.

أي هل يستوى من آمن وصدق بما أنزل عليك أيها الرسول، من بقي يتخبط في ظلمات الجهل والضلال؟ لا لب له كالأعمى؟ المراد به عمى البصيرة، إنما يتعظ بآيات الله ويعتبر بها ذو العقول السليمة⁽¹⁾.

ثم عدد الله تعالى صفات أولي الأبواب فقال سبحانه:

○ ﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾ ﴿20﴾ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿21﴾ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرُؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿الرعد/20-22﴾.

ماذا كانت نتيجة أعمالهم:

○ ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ ﴿22﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴿23﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿الرعد/22-23﴾.

وصفة العلم والتذكر ملازمة لأهل الأبواب مع العمل الدائم ومواظبة العبادة لله في كل الأوقات قال تعالى:

○ ﴿أَمَنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولَؤَا النَّبَابِ﴾ الزمر/8-9.

¹ - تفسير صفوة التفاسير للصابوني ص 576.

قال الإمام الفخر: ((وأعلم أن هذه الآية دالة على أسرار عجيبة فأولها أنه بدأ فيها بذكر العمل، وختم فيها بذكر العلم، أما العمل فهو القنوت والسجود، والقيام، وأما العلم ففي قوله قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون وهذا يدل على أن كمال الإنسان محصور في هذين المقصودين⁽¹⁾.

صفات أولي الألباب كثيرة أهمها التفكير بآيات الله وبعظمته، وذكر ربهم آناء الليل وأطراف النهار.

قال تعالى في سورة آل عمران:

○ ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ آل عمران/190.

ثم وصف أعمالهم ودعائهم الدائم وإلحاحهم على ربهم أن يقبل ويستجيب دعائهم:

○ ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ آل عمران/191.

○ ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ آل عمران/191.

ومن صفاتهم الدعاء وذكر الله دائماً:

○ ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ آل عمران/191.

○ ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تَدْخُلِ النَّارَ فَقَدْ أَحْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن أَنْصَارٍ﴾

آل عمران/192.

¹ - صفوة التفاسير للصابوني، ص1063.

○ ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا﴾
آل عمران/193

○ ﴿رَبَّنَا فَاعْفُرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾
آل عمران/193

○ ﴿رَبَّنَا وَأَتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ
الْمِيعَادَ﴾ آل عمران/194.

الاستجابة أتت سريعاً:

○ قال تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنْكُمْ﴾
آل عمران/195.

إن من أقوى الأسباب في دفع المكروه الاستمرار في الدعاء، ومن أسباب الإجابة الإلحاح في الدعاء واليقين بالإجابة من الله، وعنه ﷺ قال: ﴿الدُّعَاءُ سَلَاحَ الْمُؤْمِنِ، وَعِمَادَ الدِّينِ، وَنُورَ السَّمُوتِ وَالْأَرْضِ﴾⁽¹⁾، فكيف لا يستجاب لأهل العقول الرزينة الذين يتفكرون آناء الليل وأطراف النهار بآيات الله المقروءة والمنظورة!.

كيف لا يستجاب لأهل البصيرة والاعتبار! عندما يدعون ربهم ويلحون بالدعاء بقلوب خاشعة وجلة وانكسار بين يدي الله عز وجل.

○ قال تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾
البقرة/197.

الزاد الحقيقي المستمر نفعه لصاحبه في دنياه وآخره، هو زاد التقوى الذي هو زاد إلى دار القرار، وهو الموصل لأكمل لذة، وأجل نعيم دائم أبداً، ومن ترك هذا الزاد فهو

¹ - أخرج الحاكم في مستدركه، 1/492.

المنقطع به الذي هو عرضة لكل شر، وممنوع من الوصول إلى دار المتقين، فإيا أهل العقول الرزينة، اتقوا ربكم الذي تقواه أعظم ما تأمر به العقول، وتركها دليل على الجهل، وفساد الرأي⁽¹⁾.

وأعظم صفة لأولي الألباب أنهم أهل التقوى خصهم القرآن على التزود الدائم بأفضل الزاد وخيره وأصل التقوى مأخوذ من اتقاء المكروه، مما تجعله حاجزاً بينك وبينه، فالمتقي هو الذي يقي نفسه مما يضرها .

وهو الذي يتقى عذاب الله بطاعته، وجماع التقوى أن يمتثل العبد للأوامر، ويتجنب النواهي، قال ابن عباس رضي الله عنه: ((المتقون هم الذين يتقون الشرك، ويعملون بطاعة الله))⁽²⁾.

¹ - تفسير تيسير كريم الرحمن للسعدي، ص 82.

² - صفوة التفاسير للصابوني، ص 24 و 25.

القرآن الكريم

المعجزة الفكرية الخالدة

التفكير فريضة وعبادة لأن المؤمن العاقل المتبصر مطالب بأن يعمل فكره في كل مناحي الحياة، وخاصة التفكير بما أبدع الله عز وجل، فيتعرف لخالق الكون مما يزداد عبودية وخشية منه، لأن العقل هبة الله لنا لكي نعرفه، والتفكير مفتاح الوصول إلى الحق عز وجل بتقليب النظر والتأمل في مخلوقاته.

التفكير العقلي يؤدي بالمؤمن إلى الإقرار والاستسلام والتصديق فيما قاله رسول البشرية ﷺ، ولا يأتي هذا إلا عندما يعرف أن تاريخه ناصع البياض في صدق الحديث وصدق التعامل.

إن التفكير يمر بمراحل ثلاث:

- 1- مشاهدة الحقائق ودراستها .
 - 2- ملاحظة الحقائق وتدبرها والتفكير بها للتأكد من صدقها أو كذبها .
 - 3- بعد التحقق منها تكون قد وصلنا لحقيقة علمية .
- فحامل الرسالة ﷺ اجتمعت له خصائص ومميزات تؤكد وتؤيد صدق نبوته .

اقتضت الحكمة الإلهية أن يكون الرسول ﷺ أمياً لا يتلو الكتاب ولا يخطه يمينه حتى لا يرتاب العامة في نبوته ﷺ وحتى بيئته بيئة أمية بالنسبة للأمم الأخرى التي من حولها، حتى تكون معجزة النبوة والشريعة الإسلامية واضحة للأذهان لا لبس بينها وبين الدعوات البشرية.

وكان ينادى في الجاهلية الصادق الأمين... هكذا عرف في مجتمعه القرشي، لأنه يحمل أخلاقاً عالية تميزه عن بقية الناس، فلا يخون الأمانة، ولا من طبعه الكذب.

عند بدء نزول الوحي، رجع إلى بيته خائفاً وقص كل ما حدث على زوجته خديجة، فقالت: ﴿أَبَشَّرَ فُوُ اللَّهِ لَا يَخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحْمُ وَتَصْدُقُ الْحَدِيثَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتُقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الدَّهْرِ﴾.

التفكير العقلي يثبت أن القرآن الكريم هو المعجزة الفكرية الخالدة، عرف العلماء المعجزة فقالوا! المعجزة هي أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي مع عدم المعارضة من المرسل إليهم، فالمعجزة حسب التعريف السابق لها ثلاثة أركان:

الأول: حدوث أمر خارق للعادة.

الثاني: تحدي الناس المعاصرين بهذا الأمر الخارق،

الثالث: عجز الناس المعاصرين عن المعارضة.

لو طبقنا مصطلح المعجزة على ما أجراه الله تعالى على يدي رسولنا محمد ﷺ من معجزات لوجدناه ينطبق على معجزة القرآن الكريم، حيث قال تعالى:

○ ﴿وَأِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّمَّنْ لَمِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ 23 ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ البقرة/23-24.

معجزات الرسول ﷺ كثيرة، مثل الإسراء والمعراج، وانشقاق القمر ونبع الماء من بين يديه، وتكثير الطعام القليل، وتكليمه الشجر والحجر... إلخ.

فلا ينطبق عليها مصطلح المعجزة السابق، لأنها لم يقصد بها تحدي المدعويين، وإنما كانت لحكم متعددة أبرزها التسرية عن الرسول ﷺ وتثبيت المؤمنين، وزيادة إيمانهم بدعوة الإسلام، وزيادة يقينهم بنبوته محمد ﷺ، نخلص من كل الكلام السابق أن التفسير العلمي للآيات القرآنية فيه خير كثير، فهو يزيد الهداية، ويعمق اليقين بالهية القرآن الكريم، وقد جاء الإشكال والالتباس عند كثير من المسلمين من إسقاط المفاهيم مصطلح المعجزة على هذا التفسير، فإذا عرفنا أن مصطلح المعجزة جديد، وأن مضمونه حدده بعض علماء أصول الدين، وأن المصطلح الذي استخدمه القرآن والسنة للدلالة على المعجزة والمعجزات هو مصطلح الآية والآيات⁽¹⁾.

والقرآن الكريم تحدى كل من يفكر أنه من عند غير الله.

هذا التحدي كان جلياً واضحاً لا غموض فيه، يؤكد أن الذي أنزل القرآن هو الله عز وجل:

○ ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ النساء/82.

¹ - مجلة الإعجاز العلمي العدد/17/ ذو الحجة/1424هـ ص46.

أليس هذا التحدي هو إعجاز يحسب على القرآن الكريم ورداً على من ينكرونه، وإلى هذا اليوم وبعد مضي أربعة عشر قرناً لم ولن ولا يستطيع أحد أن يرد هذا التحدي في فصاحته وألفاظه ونظمه وبلاغته وبيانه وأسلوبه وقصصه وأمثاله وأخباره وأحكامه فالتحدي قائم وسيظل قائماً ما دامت السموات والأرض.

أليس هذا التحدي يثبت ويبرهن تلقائياً أنه كلام ليس من البشر بل هو من صمم وأبدع هذا الكون.

○ قال تعالى: ﴿قُلْ لئن اجتمعت الإنسُ والجنُ على أن يأتوا بمثل هذا القرآنِ لا يأتونَ بمثله ولو كان بعضهم لبعضِ ظهيراً﴾ الإسراء/88.

فبالعقل يحكم الإنسان بأنه لا بد لهذا الكون من خالق وحيد، ومسير حكيم، واحد في ذاته، وفي أسمائه، وصفاته، وأفعاله وبالعقل يحكم الإنسان بأن هذا القرآن هو كلام الله أنزل إلى رسوله ﷺ.

وبعدئذ يأتي القرآن، ليخبر الإنسان، عما لا يستطيع العقل أن يدركه بذاته... إنها قصة خلق السموات والأرض، وحقيقة الحياة الدنيا والآخرة، وخلق الإنسان، وما المنهج الذي ينبغي أن يسير عليه ليحقق ذاته ويدرك السعادة في الدنيا والآخرة... فالدين عقل ونقل: عقل لمعرفة الله، وللتحقق من صحة النقل عنه ولفهمه، ونقل بيبين للعقل ما خفي عنه وما عجز عن إدراكه وما يضمن سلامته وسعادته⁽¹⁾.

إنه الوحي الخالد والمعجزة الفكرية التي تشع نوراً ما دامت السموات والأرض، كثير من الأنبياء أظهروا بأمر الله تعالى بعض المعجزات الحسية لإثبات رسالتهم،

¹ - د. محمد راتب النابلسي: نظرات في الإسلام، ص 245.

عيسى عليه السلام معجزة إحياء الموتى، وموسى عليه السلام شق البحر، وانقلاب عصاه إلى أفعى تسعى، وصالح عليه السلام معجزة خروج الناقة من الصخر، كلها معجزات حسية مؤقتة، زالت بزوال صاحبها، لكن رسول الله وخاتم النبيين ﷺ معجزته فكرية دائمة وباقية إلى أن يرث الله الأرض.

وأسند عن الحارث عن الإمام علي كرم الله وجهه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ﴿سَتَكُونُ فِتْنٌ كَقَطْعِ اللَّيْلِ الْمُظْلَمِ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا الْمُخْرَجُ مِنْهَا؟ قَالَ: كِتَابُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِيهِ نَبَأٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَخَبْرٌ مَا بَعْدَكُمْ وَحُكْمٌ مَا بَيْنَكُمْ هُوَ الْفَصْلُ لَيْسَ بِالْهَزْلِ مَنْ تَرَكَهُ مِنْ جِبَارٍ قَصَمَهُ اللَّهُ وَمَنْ ابْتَغَى الْهُدَى فِي غَيْرِهِ أَضَلَّهُ، اللَّهُ هُوَ حَبْلُ اللَّهِ الْأَمْتِينَ، وَنُورُهُ الْأَمْبِينِ وَالذِّكْرُ الْحَكِيمِ وَهُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ وَهُوَ الَّذِي لَا تُزَيِّعُ بِهِ الْأَهْوَاءُ وَلَا تَلْتَبِسُ بِهِ الْأَلْسَنَةُ وَلَا تَتَشَعَّبُ مَعَهُ الْأَرَاءُ وَلَا يُشْبِعُ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ وَلَا يَمْلُهُ الْأَتَقِيَاءُ وَلَا يُخْلِقُ عَلَى كَثْرَةِ الرَّدِّ.

وَلَا تَنْفُضِي عَجَائِبُهُ وَهُوَ الَّذِي لَمْ تَنْتَهُ الْجَنُّ إِذْ سَمِعْتُهُ أَنْ قَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قِرْآنًا عَجَبًا مِنْ عِلْمٍ عَلَّمَهُ سَبَقَ وَمَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ، وَمَنْ حُكِمَ بِهِ عَدْلٌ، وَمَنْ عَمِلَ بِهِ أَجْرٌ، وَمَنْ دَعَا إِلَيْهِ هُدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿⁽¹⁾﴾.

إن القرآن الكريم معجزة خالدة معجزة فكرية لا ولن يستطيع إنس ولا جان تحريفه لأن الله عز وجل تكفل بحفظه.

○ قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ الحجر/9.

¹ - أخرجه الترمذي.

أليس الله عزّ وجل أخبرنا بقرآنه أننا مهما اكتشفنا من مخلوقات، سيكون هنالك المزيد من المخلوقات وأشياء جديدة لم تكتشف وصدق الله تعالى:

○ ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ النحل/8.

○ قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَّلَمَ يَكْفُرْ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ فصلت/53.

هكذا حث القرآن الكريم المؤمنين والناس أجمعين على التفكير بآياته حتى يتبين لهم أنه الحق المبين.

إن العقل البشري يقوم على مبدأ السببية، أي أن العقل لا يفهم حدثاً من دون محدث، ومن رحمة الله بنا، أن هذا النظام في الكون، وذاك المبدأ في العقل، يقودنا برفق إلى معرفه الله مسبب الأسباب، فالؤمن الصادق يأخذ بالأسباب، من دون أن يعتقد أنها تصنع النتائج، وبالتالي من دون أن يعتمد عليها، يأخذ بها وكأنه كل شيء، ويعتمد على الله وكأنها ليست بشيء، معتقداً أنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأن الأسباب وحدها لا تقود إلى النتائج، إلا بمشيئة الله، وهذا التوحيد الإيجابي الذي يغيب عن كثير من المؤمنين⁽¹⁾.

وفي الأثر (لا يعرف حقيقة الله إلا الله) إن عقل الإنسان من الضعف المتناهي بحيث لا يستطيع أن يحيط بذات الله مهما بلغ من الوصف ولا يعرف الله إلا الله لأن النسبة قائمة بين الله وذاته سبحانه.

فتعالوا معاً نتعرف على المزيد....

¹ - د . محمد راتب النابلسي: تأملات في الإسلام ، ص 264.

الدعوة إلى التفكير العقلاني في آيات القرآن الكريم:

○ قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ النحل/44 فيتعضوا ويعملوا بها .

○ قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ النحل/89.

في أصول الدين وفروعه، وفي أحكام الدارين، وكل ما يحتاج إليه العباد فهو مبين فيه أتم تبين، بألفاظ واضحة، ومعان جلية... حتى إنه تعالى يجمع في اللفظ القليل الواضح، معاني كثيرة، يكون اللفظ لها كالقاعدة والأساس، فلما كان هذا القرآن تبياناً لكل شيء صار حجة الله على العباد كلهم.

فانقطعت به حجة الظالمين، وانتفع به المسلمون، فصار هدى لهم، يهتدون به إلى أمر دينهم ودنياهم، ورحمة ينالون به كل خير في الدنيا والآخرة.

وتمام العقل الذي لا يتم إلا بتربيته على معانيه التي هي أجل المعاني وأعلاها، والأعمال الكريمة والأخلاق الفاضلة والرزق الواسع، والنصر على الأعداء بالقول والفعل، ونيل رضا الله تعالى، وكرامته العظيمة التي لا يعلم ما فيها من النعيم المقيم إلا الرب الرحيم⁽¹⁾.

لا تنتقض عجائبه فمنها الإعجاز العلمي واللغوي والتاريخي والرقمي والطبي وشفاء لما في الصدور تثبت أن القرآن تبيان لكل شيء وهو من عند الله.

فمثلاً نزلت في معركة بدر هذه الآية:

○ ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾ الأنفال/11.

○ ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاساً﴾ آل عمران/154.

¹ - تفسير تيسير كريم الرحمن للسعدي، ص 449.

إن الخائف الفرع لا يغشاه النعاس وذلك لإفراز كمية كبيرة من الأدرينالين في جسمه فيزيده توتراً وقلقاً، لكن الله عز وجل ألقى بمعركة بدر، النعاس على المؤمنين ليجعل قلوبهم آمنة غير خائفة من عدوها، أليس النوم يخفف من هموم الحياة وضغوطها من قلق - خوف - غم - فزع - اضطراب الأعصاب- تعالوا نتابع الآية:

○ ﴿وَيُنزِّلُ عَلَيْكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُم رَجَزَ

الشَّيْطَانِ﴾ الأنفال/11.

ما أهمية ماء المطر بعد النوم من المبدأ العلمي: ينشط الجسم والدورة الدموية ويخفف من ارتفاع الهستامين نتيجة آثار الضغط والتوتر من سطح الجسم حيث يقوم بتبريد الوجه والجسم المكشوف مما يسهم في عملية إفراز السيروتونين هذا الهرمون وظيفته أنه مضاد للاكتئاب ومرخٍ للانفعال فيشعر المرء بنشاط حيوي وطمأنينة عالية مما يبعد وسوسة الشيطان وتخوفه للمؤمنين فيساهم ماء المطر بهذا التنشيط للجسم والقلب مما يساعد على إزالة الخوف بل يزيد الإحساس بالقوة والثبات.

ليربط على قلوب المؤمنين ويدفعهم إلى الثبات بأرض المعركة، فالنعاس والمطر ما هي إلا جنود من الله قال تعالى:

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ الفتح/7.

الدعوة إلى التفكير العقلاني بآيات القرآن ليستدل المؤمن عن أطوار خلق الإنسان قال تعالى:

○ ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾ الطارق/5.

○ ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾ ﴿20﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ الروم/21.

قال قتادة: ((تفكر في خلق نفسه عرف أنه إنما خلق ولينت مفاصله للعبادة، وفي بعض الكتب الإلهية يقول الله تعالى: ابن آدم خلقتك لعبادتي فلا تلعب وتكفلت برزقك فلا تتعب، فاطلبنى تجدني، فإن وجدتي وجدت كل شيء، وإن فتك فاتك كل شيء، وأنا أحب إليك من كل شيء))⁽¹⁾.

الدعوة إلى التفكير في خلق النبات:

○ ﴿يُنَبِّتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ النحل/11.

في صنع العسل من النحل:

○ ﴿ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ النحل/69.

الدعوة إلى التفكير العقلاني في حقيقة الدنيا، قال تعالى:

○ ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ الأنعام/32.

الدعوة إلى التفكير العقلاني لفهم سنن التغير والصراع بين الحق والباطل:

قال تعالى: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ فاطر/43.

¹ - مختصر تفسير ابن كثير للصابوني، ج3، ص381-384.

○ قال تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ
كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ آل عمران/137.

الدعوة إلى التفكير العقلاني في نعم الله على عباده:

○ قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَاراً وَمَنْ كُلِّ
الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ
لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ الرعد/3.

○ ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ
تُسِيمُونَ﴾ 10 ﴿يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ
الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ النحل/11.

الدعوة إلى التفكير العقلاني في المتناقضات:

○ قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ الأنعام/50.

الدعوة إلى التفكير العقلاني في تسخير كل شيء للإنسان لإعمار الأرض:

○ ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ
وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ 12 ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَاءً فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ
جَمِيعاً مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ الجاثية/13.

الدعوة إلى التفكير العقلاني بأحسن الطرق:

○ قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْطُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَتًى وَفُرَادَى ثُمَّ
تَتَفَكَّرُوا﴾ سبأ/46.

قال الماوردي: ((إنما قال متى وفرادى لأن الذهن حجة الله على العباد وهو
العقل، فأوفرهم عقلاً أوفرهم حظاً من الله، فإذا كانوا فرادى كانت فكرة واحدة،

وإذا كانوا مثني تقابل الذهنان فتتراءى من العلم لهما ما أضعف على الانفراد والله أعلم^(١).

التفكير العقلاني في الآيات المنظورة:

إن قضية الخلق قضية لا تقع تحت إدراك العلماء مباشرة لهذا فكل نظرية علمية تنتصر تكون بمقام الحقيقة عندما يؤكدتها القرآن ولو بأية وأي تعارض بين القرآن الكريم والنظرية العلمية ستسقط لا محال، يقول الشيخ الشعراوي: ((إن القرآن هو كلام الله والكون خلق الله، وما دام الذي خلق الكون هو الذي قال ذلك الكلام فيجب بدهاءة ألا تتعارض حقيقة قرآنية مع حقيقة كونية))^(٢).

○ قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ الذاريات/47^(٣).

إن الكون المحيط بنا كون دائم الاتساع، من سنوات أقرت جائزة نوبل لعالم أثبت أن الفضاء في توسع وتمدد مستمر، حقيقة علمية أكدها القرآن الكريم منذ أربعة عشر قرناً.

حتى أن الصياغة المصدرية الراقية باسم الفاعل لموسعون تشير إلى اتساع الكون منذ نشأته واستمرارية الاتساع إلى أن يشاء الله.

هذا الاتساع الكوني دفع العلماء إلى القول إننا إذا عدنا بهذا الاتساع إلى الوراء البعيد فلا بد أن تلتقي مادة الكون المنظور في جرم واحد وهي تكون نقطة البداية إلى الجرم الابتدائي ذو الكثافة العالية والطاقة العالية تجعله في حالة حرجة

¹ - الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، ج3، ص439.

² - المرابط بن محمد لخديم الشنقيطي: معرفة الله دلائل الحقائق القرآنية والكونية، ص45.

³ - د. زغلول النجار: من آيات الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، مكتبة الشروق الدولية ثلاثة مجلدات بتصرف.

ينفجر هذا الجرم ويتحول إلى غلالة من الدخان، هذا الدخان يخلق منها دوامات تجتمع كماً من المادة والطاقة حول مراكز الجاذبية لتتم عملية التكديس ليتشكل بقدره الله على هيئة أجرام السماء المختلفة.

هذه أكثر النظريات قبولاً عن نشأة الكون وتسمى نظرية الانفجار العظيم

The Big Bang Theory، فيصف القرآن الكريم هذه الحقيقة العلمية:

○ قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ الأنبياء/30.

الرتق: عكس الفتق في اللغة والرتق هو الجمع والضم والتكديس وهو وصف دقيق للحالة التي كان عليها الكون في الجرم الابتدائي الذي سبق عملية الانفجار العظيم.

والفتق: هو الانفجار والانتشار والانفصال (مرحلة توسع الكون) فسبحان الذي أبدع السموات والأرض.

هذه الحقيقة العلمية ظهرت في القرآن الماضي، والقرآن الكريم تحدث عنها بآية واضحة جلية منذ ألف وأربعمائة سنة، مما يعطي هذه النظرية من الدعم ما يرتقي بها إلى مقام الحقيقة.

سيقول قائل مهلاً هنالك آية معاكسة تماماً لها :

○ قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجْلِ لِلْكِتَابِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ الأنبياء/104.

إن عملية اتساع الكون لن تستمر إلى ما لا نهاية، لأنها محصلة الانفجار الأول، ومعدل اتساع الكون اليوم أبطأ من المعدل الذي بدأ به، فسوف يأتي على هذا الكون زمان تتساوى فيه القوتان القوة الدافعة على الاتساع والقوة اللامة إلى

الداخل بالجاذبية، ثم مع ضعف القوة الدافعة إلى الخارج والانتساع تبدأ قوى الجاذبية في تجميع الكون بجرم واحد ويسمى العلماء هذه النظرية باسم (نظرية الانسحاق الشديد).

والقرآن أثبت هذه النظرية وجعلها حقيقة علمية قبل ألف وأربعمائة سنة، فسبحان من أوجد هذا الكون العظيم:

○ قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجْلِ لِلْكِتَابِ﴾ الأنبياء/104.

وفي القرآن آيات تثبت تماماً أنه سيحصل جمع وتكديس المجرات الكونية كلها في تجمع واحد كما بدأ الخلق، وتظهر صدق القرآن بأنه سيحصل تجميع كامل للكون، وبأنه واجب علينا التفكير بهذا الآيات العظيمة.

○ قال تعالى: ﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصْرُ﴾7﴿ وَخَسَفَ الْقَمَرُ﴾8﴿ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ القيامة/7-9.

○ قال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نَعِيدُهُ﴾ الأنبياء/104.

وسيكون موعدنا نحن البشر، والكائنات الأخرى كلها مع رب العباد في يوم القيامة.

○ قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ إبراهيم/48.

منذ فترة قريبة أعلن علماء الوكالة الفضائية الأميركية ناسا خيراً أن القمر يتباعد عن الأرض أكثر من 5 - 10 سم في السنة باتجاه الشمس وهذا دليل واضح على علامة تجميع الكون بدأت بالظهور، حتى التغيرات المناخية في الأرض وتبدل الشتاء صيفاً بدأنا نشعر بهذا نتيجة تغير في جاذبية القمر مع جاذبية الأرض،

بمعنى أن القمر لاحقاً ستبتلعه الشمس، كما أكد القرآن الكريم، مهلاً حقيقة علمية أخرى مكتشفة حديثاً من وكالة الفضاء الأميركية ناساً منذ عدة شهور أن سرعة الأرض حول محورها آخذة في التباطؤ التدريجي، ويتخوفون من تغير الاتجاهات لأقطاب المغناطيسية للأرض، ولاحقاً دمار كبير في تكنولوجيا الفضاء لعدم صلاحيتها؟.

السؤال المطروح؟ من علم سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام هذه الحقيقة التي بثتها ناسا منذ عدة أشهر، حول تباطؤ سرعة الكرة الأرضية وشروق الشمس من مغربها، فمن أحوال يوم القيامة عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ﴿إِنَّ أَوَّلَ الْآيَاتِ خُرُوجًا طُلُوعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا وَخُرُوجِ الدَّابَّةِ عَلَى النَّاسِ ضَحَىٰ وَأَيُّهُمَا مَا كَانَتْ قَبْلَ صَاحِبَتِهَا فَالْأُخْرَىٰ عَلَىٰ إِتْرَاهَا قَرِيبًا﴾.

تباطؤ سرعة الأرض سيصل إلى حد أن يطول اليوم، فإن كان ذلك بفترة الليل ستصبح الليلة طويلة وكأنها ثلاثة ليال هنا يحدث الانقلاب ثم تشرق الشمس من مغربها، قال ﷺ: ﴿لَيَأْتِينَنَا عَلَى النَّاسِ لَيْلَةٌ تُعَدُّ ثَلَاثَ لَيَالٍ مِنْ لَيَالِكُمْ... فَيُفْزِعُونَ إِلَى الْمَسَاجِدِ فَإِذَا هُمْ بِالشَّمْسِ قَدْ طَلَعَتْ حَتَّىٰ صَارَتْ وَسَطَ السَّمَاءِ﴾⁽¹⁾.

وقال ﷺ: ﴿لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّىٰ تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا، فَإِذَا طَلَعَتْ وَرَأَاهَا النَّاسُ أَمَّنُوا أَجْمَعُونَ، وَذَلِكَ حِينَ ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ أَمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا﴾⁽²⁾ الأنعام/158﴾.

¹ - أخرجه مسلم برقم/7310.

² - رواه البخاري برقم/4635 ومسلم برقم/394.

(¹) معجزة الغلاف الجوي

قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا﴾ الأنبياء/32.

السقف هو الغلاف الجوي الذي تمسكه الأرض عن طريق الجاذبية وتحول دون تسريه، ومؤلف من طبقات غازية هما النتروجين والهيدروجين 78%، والأوكسجين 21% و0.03% CO2 غاز ثاني أوكسيد الكربون اللازم للنبات. القبة الزرقاء التي نراها من الأرض ناجمة عن تفتت أشعة الشمس الزرقاء على ارتفاع 200 كم.

الغلاف الجوي يبلغ سماكته 35/ ألف كم ومقسم إلى سبع طبقات من ملامستها إلى الأرض ثم الأعلى أنظر الشكل رقم/13/:

1) طبقة التروبوسفير: الملاصقة للأرض سماكتها 11 كم، تسمى الطبقة المناخية غير مستقرة، يحدث فيها كل الظواهر الحيوية، تشكل الأمطار، والرعد والعواصف، وتحتوي على بخار الماء - وتقل درجة حرارة الهواء وكثافته وضغطه كلما ارتفعنا للأعلى.

2) طبقة الاستراتوسفير: سماكتها/11-50 كم/ فوق سطح البحر هنا الحرارة عالية لا يوجد بخار ماء وهي مستقرة تسمى الطبقة الأوزونية سماكتها/20-30 كم/ لها، فائدة عظيمة لحماية الأرض لأن لها قدرة على امتصاص الأشعة فوق البنفسجية الضارة جداً للإنسان أي هي حزام

¹ - أ. د. مسلم شلتوت: الغلاف الجوي، أستاذ بحوث الشمس والفضاء، مجلة الإعجاز العلمي من الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة، العدد/11/ سنة/1424/هـ، بتصرف.

واقى للعينين على سطح الأرض - هذه الطبقة حرارتها عالية لامتصاصها الأشعة فوق البنفسجية.

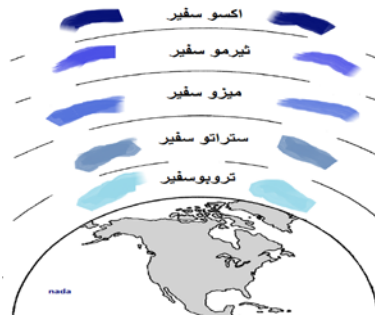
(3) طبقة الميزوسفير: سماكتها بين/50-80 كم هنا الحرارة أقل من (-90) درجة مئوية.

(4) طبقة الايونوسفير: سماكتها/85 كم إلى حوالي/700 كم فوق سطح البحر.

(5) طبقة الترموسفير: حرارتها عالية جداً.

(6) طبقة الإكسوسفير: سماكتها من/700 كم إلى/35000 كم فوق سطح البحر يوجد فيها الهيدروجين والهيليوم.

(7) طبقة الماكتوسفير: هامة جداً وهي آخر طبقة للغلاف الجوي وهي طبقة المجال المغناطيسي للأرض الذي يشكل غلافاً حولها/50.000 كم وهي تتألف من أحزمة إشعاعية تسمى (أحزمة فان ألن) وهي على نوعين من الأحزمة الإشعاعية على هيئة حلقتين تتطابق مع المستوى الاستوائي المغناطيسي للأرض.



الشكل رقم (13)

طبقات الغلاف الجوي

إن المسؤول عن الحقل المغناطيسي للأرض هو الحديد والنيكل الموجودين في لب الأرض.

ولكن رجاءً التركيز على هذه الطبقة، سبحانه الله إنها آخر طبقة للغلاف الجوي وهي التي تغطي الغلاف الجوي وتتشكل من حقول الأرض المغناطيسية وتشكل درعاً واقياً للأرض من الأجرام السماوية والأشعة الكونية خاصة الدقائق المشحونة والهاربة من إكليل الشمس حيث تسبح في الفضاء الخارجي، وتسمى هذه الدقائق بالرياح الشمسية أي أن هذه الأشعة مهلكة لكل صور الحياة على الأرض وهي شبيهة بأشعة ألفا وبيتا التي تصدر من الانفجارات الذرية والنووية وهذه الطبقة (أحزمة فان ألن) تدفع الرياح الشمسية وتمنعها من اختراق الغلاف الجوي للأرض.

القرآن الكريم

معجزة فكرية في لغة كلماته

عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «يَقُولُ الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مَنْ شَغَلَهُ الْقُرْآنُ وَذَكَرِيٌّ عَنْ مَسْأَلَتِي أُعْطِيَتْهُ أَفْضَلُ مَا أُعْطِيَ السَّائِلِينَ، وَقَالَ: وَفَضَّلَ كَلَامَ اللَّهِ عَلَى سَائِرِ الْكَلَامِ كَفَضَّلَ اللَّهُ عَلَى خَلْقِهِ»⁽¹⁾.

جميع لغات العالم هي وسائل للتواصل بين الناس، ولتبادل الأفكار، والمعلومات والأحداث، وأعظم لغة وجدت على سطح الأرض هي لغة القرآن الكريم. وأعظم الكلمات وأقواها كلمات القرآن الكريم كلام الله عز وجل والذي أنزله على سيد المرسلين رحمة للعالمين.

إن لغة القرآن الكريم هي اللغة العربية التي شاء الله عز وجل أن تكون ضاربة في القدم، لا يعلم عمرها إلا الذي أوجدها! والقرآن الكريم كلام الله أنزله ليتدبروا آياته، ويفهموا معانيه ولفظه كل من تكلم العربية،

○ قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسْرِنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ الدخان/58.

¹ - أخرجه الترمذي.

أي سهلناه بلسانك الذي هو أفصح الألسنة على الإطلاق وأجلها، فتيسير لفظه وتيسير معناه⁽¹⁾.

أراد الله عزّ وجل بهذا القرآن أن يحفظ اللغة العربية بحفظه، وهنا السؤال الهام أليست إرادة الله ومشيئته أن جعل القرآن الكريم «كلامه» باللغة العربية ليس للعرب بل للعالمين أجمع، وجعله وسيلة التواصل مع العالمين أجمع، أليس كلام الله أعظم الكلام وكلماته الخالدة والمعبرة عن فن التواصل مع الآخر، وفن الإقناع، وفن التفاوض، والحجة البينة وفن التأويل والاعتبار.

وأما معنى عَرِيب أي أحدٌ يعرب عن نفسه وامرأة عروية معربة بحالها عن عفتها ومحبة زوجها، وجمعها عُرُبٌ، والأتراب الخاليات من العيب.

○ قال تعالى: ﴿عُرْبًا أْتْرَابًا﴾ الواقعة/37.

ومعنى قوله: حُكْمًا عَرِيبًا قيل معناه مُفْصِحًا يحق الحق ويبطل الباطل، وقيل معناه شريفاً كريماً كوصفه بكريم في قوله: كتاب كريم⁽²⁾.

فالعربية هي لغة إنسانية عالمية لكل العالمين، تعالوا نقرأ ما قاله الجن عن القرآن الكريم:

¹ - تفسير تيسير كريم الرحمن للسعدي، ص786.

² - المفردات في غريب القرآن للأصفهاني ص331.

○ قال تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُّندِرِينَ﴾ ﴿29﴾ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿30﴾ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿الأحقاف/31﴾.

سؤال هل الجن استمعوا إلى القرآن الكريم باللغة العربية؟

○ قال تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ ﴿1﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿الجن/2﴾⁽¹⁾.

إنها أعظم لغة تحدث بها الإنسان على سطح الأرض، بها عرفنا أصلنا وعرّفنا الأمم البائدة والسائدة، بها عرفنا أوامر الله ونواهيه، بها عرفنا حلاله وحرامه، إنها لغة آدم وحواء وإثبات ذلك من حديث أبي هريرة: ﴿لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ، وَنَفَخَ فِيهِ الرُّوحَ عَطَسَ، فَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ...﴾ رواه الترمذي⁽¹⁾.

الحمد لله لا توجد ترجمتها إلا بالعربية.

○ قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿31﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿32﴾ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿البقرة/31-33﴾.

سبحان الله الذي فضّل آدم على الملائكة بالعلم، وأمرهم بالسجود إكراماً له ولعلمه.

¹ - الأحاديث القدسية بشرح الحديث من القسطلاني، ص 92.

تستمد اللغة العربية قوتها من حفظ القرآن الكريم لها، لأنه محفوظ في قلوب المؤمنين، والله حافظه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ الحجر/9، قوتها في غناها بمفرداتها وعدد كلماتها يربو عن/12.300.000/مليون كلمة بينما الإنكليزية حوالي/600.000/كلمة.

والفرنسية/150.000/والروسية/130.000/كلمة، فيما اللغة العربية تمتلك أكثر من/16000/ جذر لغوي يفوق عدد جذور كل لغات العالم⁽¹⁾، الذين ينطقون لغة القرآن أكثر من مليار ونصف إنسان، وهي أكثر اللغات المتداولة عالمياً، وكثير من الناس ينجذبون لتعلمها لفهم القرآن الكريم الذي حفظ هذه اللغة وجعلها أداة لفهم وتدبر وتفكر القرآن الكريم.

أليس القرآن الكريم معجزة فكرية، سبحانه الله به يرفع أقواماً وبه يضع آخرين. أنزله الله عزّ وجلّ للتفكير في آياته وتدبر معانيه، والتأمل في أمثاله والتبصر في إعجازه العلمي والرقمي والفلكي والحياتي، والتعقل فيما يقرأ منه وبرؤية وبنظر وتبصر عقلي لكي يفهم، وإتباع القرآن تلاوة، فمن يتلو القرآن حق تلاوته هؤلاء يتبعونه حق الإتياع.

فكل تلاوة قراءة وليس كل قراءة تلاوة:

○ ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ الأنفال/2، أما قوله:

○ ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ البقرة/121، أي إتباع أوامره ونواهيته وحلاله وحرامه، بالعلم والعمل.

¹ - قاموس المعاني الالكتروني.

سبحان الله كيف حثنا القرآن الكريم على التفكير العقلاني بكل آية، لا بل بكل كلمة واسم، الاسم ما يُعرف به ذات الشيء، بدلالة قولهم أسماء، وأصله من السمو وهو الذي به رفع ذكر المسمى فيعرف به قال تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾، ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ البقرة/31، أي الألفاظ والمعاني ومفرداتها مركباتها، ولا يعرف الإنسان الاسم إلا إذا عرض عليه المسمى، وعرف ذاته فمعرفة الأسماء لا تحصل إلا بمعرفة المسمى وحصول صورته - العقل - الذهن ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾، أي صور المسميات في ذواتها، وقوله: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا﴾ يوسف/40، فمعناه أن الأسماء التي تذكرونها ليس لها مسميات، وإنما هي أسماء على غير مسمى إذ كان حقيقة ما يعتقدون في الأصنام بحسب تلك الأسماء غير موجودة فيها .

فليس المراد أن يذكروا أساميها نحو اللات والعزى، وإنما المعنى إظهار تحقيق ما تدعونه إلهاً وأنه هل يوجد معاني تلك الأسماء فيها ولهذا قال بعده:

○ ﴿أَمْ تَتَّبِعُونَ مَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ﴾ الرعد/34.

○ ﴿فَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ طه/89.

هي أسماء بدون مسميات وبدون معنى⁽¹⁾.

تعالوا معاً نعرف المعنى الاعجازي اللغوي لأجمل اسم للفظ الجلالة - الله - تخرج كلمة الله من الصدر - الجوف - لأن كل حروفه جوفية.

الله قيل أصله إله فحذفت همزته وأدخل عليه الألف واللام فخص بالباري تعالى، ولتخصيصه به قال تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ مريم/65، فالإله هو المعبود.

¹ - المفردات في غريب القرآن للأصفهاني، ص 247.

اسم الله ما نقصت حروفه يبقى معناه هو الله المعبود، فلو حذف الحرف الأول لله:

○ ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ الأعراف/180.

ولو حذف الألف واللام لكان له:

○ ﴿وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ النحل/52.

ولو حذف الألف واللام الأولى والثانية بقيت (هـ):

○ ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ طه/8.

ومن جهة أخرى قال بعض الحكماء: الله محبوب الأشياء كلها وعليه دل قوله تعالى:

○ ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ الإسراء/44.

اللهم قيل معناه يا الله فأبد من الياء في أوله الميممان في آخره وخُصَّ بدعاء الله وقيل تقدير يا الله أئنا بخير⁽¹⁾.

الكلمة القرآنية لها قوة وطاقة إيجابية نورانية لا يعلم تأثيرها إلا الله عزّ وجل بها يحق الحق وبها يبطل الباطل.

(لا إله إلا الله) فحوى رسالات الأنبياء جميعاً، فالشيء الدقيق هو أن تضغط ديناً بكامله، وأن تجمع الشرائع السماوية في هذه الكلمات، وعنه ﷺ قال:

○ ﴿أَفْضَلُ مَا قُلْتُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾⁽²⁾.

¹ - المرجع السابق، ص31.

² - د. محمد راتب النابلسي: موسوعة أسماء الله الحسنى، ج2، ص6.

هذه الكلمة ومعناها ولفظها تتحول إلى صورة ذهنية سمعية وبصرية تُطبع وتحتفظ في قلوبنا فما بالكم بعشرات الألوف من الكلمات والمسميات التي معناها لا يعد ولا يحصى لها صور ذهنية في عقول المؤمنين بهذه الصور الذهنية الهائلة تنمو الأفكار والمفاهيم ويتسع إدراك ووعي المؤمن الذي يتفكر بآيات الله، لأن كلمات القرآن ومعانيها مصورة ومسماة لحقائق الأمور بحذافيرها بلا زيادة ولا نقصان، وحتى رسمها بما يسمى الرسم القرآني، هذا ما أكدته القرآن الكريم بأنه لا يمكن تغيير حرف واحد منه، وذكر العلامة ابن مبارك ما نصه: ((رسم القرآن سر من أسرار الله المشاهدة وكمال الرفعة وهو صادر من النبي ﷺ وهو الذي أمر الكتاب أن يكتبوه على هذه الهيئة)).

○ قال رسول الله ﷺ: ﴿أَحَبُّوا الْعَرَبَ لِنَائِي عَرَبِيٌّ وَالْقُرْآنَ عَرَبِيٌّ وَكَلَامَ أَهْلِ الْجَنَّةِ عَرَبِيٌّ﴾⁽¹⁾.

أحب أن أدون ما سمعته من اليوتيوب من عاشق للغة العربية قال: ((اللغة العربية لديها منطق وجود وحياء لأنها لغة معربة تتحرك كلماتها حسب موقعها.

ولغة ترفع فاعلها والفاعل يجب أن يكون مرفوعاً وهذا منطق الحضارة لأن الفاعل من يصنع الحضارة.

والذي يترقب حتى يقع عليه الفعل يكون منصوباً بمعنى عدم الحركة كالنصب التذكارية، أو بمعنى النصب أي التعب.

¹ - الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، ج 1، المجلد الأول، ص 39.

في اللغة العربية المبتدأ إذا تقدم يجب أن يكون معرفة ويقتضي معه خبر، وكل خبر حكم مثال: المسألة صعبة - حكم/الطفل غبي - حكم/الفتاة جميلة - حكم/الحوار مفيد/حكم.

منطق الحياة يقول لا تحكم على أشياء لا تعرفها - والخبر حكم ولا حكم على نكرة فلا تحكم على أشياء لا تعرفها)).

فسبحان من يملك خزائن السموات والأرض، سبحان الله العظيم الذي أمدنا وهدانا وأنزل كتابه العظيم، وأما كلام الله، فإن من جملة صفاته، ليس لها حد ولا منتهى، فأبي سعة وعظمة تصورتها القلوب، فالله فوق ذلك، وهكذا سائر صفات الله تعالى، كعلمه، وحكمته، وقدرته ورحمته، فلو جمع علم الخلائق من الأولين والآخرين، أهل السموات وأهل الأرض لكان بالنسبة إلى علم العظيم، أقل من نسبة العصفور وقع على حافة البحر، فأخذ بمنقاره من البحر بالنسبة للبحر وعظمته، ذلك بأن له الصفات والعظمة الواسعة الكاملة وأن إلى ربك المنتهى⁽¹⁾.

إنها كلمات خالدة في معجزة فكرية خالدة، قال تعالى:

○ ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مَدَادًا لَكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ الكهف/109.

¹ - تفسير تيسير كريم الرحمن للسعدي، ص490.

خَلَقُ اللهُ جَمِيعاً يَسْبِحُونَ بِحَمْدِهِ

أيها الإنسان لا تجعل نفسك مغروراً ومتعالياً بأنك تملك العقل لتمييز به الأشياء وتدرك وتعي، فأنت مهما عظم عقلك لا تدرك إلا ما تشاهده عيناك وتسمعه أذناك، فإدراك عقلك كحجمك بالنسبة لهذا الكون. فتعالوا نخشع ونتأدب مع خالق الكون كله الذي خضعت له بالعبودية والاستسلام كل من في السموات والأرض.

○ قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ الحج/18.

وتسبح له الكائنات كلها :

○ قال تعالى: ﴿تَسْبِحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ الإسراء/44، ليس هذا مجازاً بل حقيقة كاملة.

فلا يجوز إطلاق المجاز في القرآن الكريم، لأنه من يؤيد هذا الرأي يدعم فرضية أن في القرآن الكريم ما يجوز نفيه.

○ قال تعالى: ﴿وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾
الإسراء/44، أعلمنا علام الغيوب أن إدراكنا وفهمنا وعقولنا لا يمكن أن تفقه تسبيحهم.

أليس هذا دليل نقلي يتناغم مع الدليل العقلي، ألم يفهم الله تعالى داود عليه السلام على تسبيح بعض الكائنات لله:

○ قال تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ ص/18.

كل جماعة وأمة تعلم كيف تصلي وتسبح خالقها:

○ قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَاتٍ كُلُّ قَدٍّ عِلْمَ صَلَاتِهِ وَتَسْبِيحِهِ﴾ النور/41.

إنه إلهام الله لمخلوقاته بكيفية عبادته وتسبيحه، بلسان الحال ولسان المقال، لكن الإنسان لا يمكن أن يفهم تسبيحهم لعدم معرفته بلغات هذه الأمم.

لكن هل أعطاهم العقل كما أعطانا بالتأكيد لا لأنها غير مكلفة بتطبيق الشرع، لكن أعطاهم وميزها بإدراك ووعي وفهم خاص بها لا نقدر على فهمه ولا فقعه ولكن علينا الإقرار بذلك.

فكما فطر الإنسان على الإيمان بخالقه، فطرت الكائنات الحيوانية والنباتية وكل شيء على الإقرار بالعبودية والاستسلام لخالقها، ألم يخاطب الله عز وجل السموات والأرض في قوله تعالى: ﴿إِنِّي أَنبَأْتُ طُورًا أَوْ كَرِهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ فصلت/11.

الرجاء الانتباه سؤال من الله عزّ وجل وجواب قول السموات والأرض: ﴿قَالَتَا

أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ فصلت/11.

لها إدراك، نحن بني البشر لا نفهمه لقصر فهمنا عن تفسيره وهذا يحسب علينا وليس لنا، مهلاً يا أيها الإنسان أعطاك الله الفطرة والإيمان وسخر لك كل شيء وأرسل الرسل، لكن كنت المقاوم الشرس والمتكبر والمتعالي على الحق، بل هم أفضل منك هم أقروا الاستسلام طائعين خاشعين وأنت كفرت بالذي خلقك وجعلك تمشي وصورك بأحسن صورة وأعطاك وأكرمك بالعقل لتمييز به الحق من الباطل، لكنك هويت إلى أسفل السافلين:

○ ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا عَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ 6 ﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ﴾ 7

في أي صورة ما شاء ركبك﴾ 8 ﴿كَلَّا بَلْ تُكذِّبُونَ بِالذِّينِ﴾ الانضطار/6-9.

إلا من رحمه ربه وأقر بالعبودية لله، إذا العيب فينا وليس بهذه الكائنات نحن الذين لا نفقه تسبيحهم ثم من قال أن هذه الكائنات لا تدرك أوامر الله، لا بل تدرك وتفهم إنها أمم أمثالنا يبنون بيوتهم ويتزوجون ويحبون ويتخاضمون، لكن لا تعقل مثلنا، لأننا حملنا أمانة التكليف.

○ قال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ

أُمَّتًا لَكُمْ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾

الأنعام/38.

ألم يؤكد علماء الحيوان اليوم بأن الغريبان لها نظام اجتماعي تنقيد به تماماً ومن يخالف الأوامر تتألف محكمة لمحاكمته وينفذ الحكم عليه بالإعدام.

ألم يؤكد علماء الحيوان أن الفيلة لهم نظام خاص بهم وأنهم أكثر الحيوانات رحمة فيما بينهم.

فصيعة الذئاب لا تتكح محارمها، والذئب وفي لزوجته ولو ماتت، ووفي لوالديه فيخدمهم ويقدم الطعام لهم، فأين نحن بني البشر من فصيعة الذئاب؟.

علم الله عز وجل سليمان منطق الطير، وقصة الهدهد كلنا نعرفها فقد أظهرت قصته أنه يعبد الله تمام العبودية، بل وأنكر إنكاراً شديداً على ملكة سبأ وقومها بأنهم لا يعبدون الله تعالى الذي يستحق سبحانه العباداة والاستسلام الكامل له.

فتعالوا نتابع حوار سليمان عليه للسلام مع الهدهد .

○ قال تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَأَ أَرَى الْهُدُودَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾ ﴿20﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لِيَأْتِنِي بِلِسْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿21﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تَحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنِيٍّ يَقِينٍ ﴿22﴾ إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿23﴾ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿24﴾ أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿25﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿انمل/20-26.

هذا هو الهدهد كأنه فقيه، يعلم التوحيد، والعبودية أكثر بكثير من الناس، أدرك أموراً وأحاط بأخبار لا يعلمها سليمان عليه السلام، بل يعلم ويعرف أن من أغوى سبأ وأضلهم هو الشيطان الرجيم فأين نحن من الهدهد، أليست النملة خافت من جنود سليمان أن يحطمها:

○ قال تعالى: ﴿قَالَتْ نَمَلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ﴿انمل/18.

﴿فَتَبَسَّمْ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾ النمل/19، وفي صحيح البخاري أن نملة قرصت نبياً من أنبياء الله فأمر بقرية النمل فأحرقت فأوحى الله إليه أن قرصتك نملة أحرقت أمة من الأمم تسبح الله هذا تسبيح على حقيقته وليس مجازاً، فلديهم الإدراك والفهم العقلي ضمن محدودية غرائزهم.

إذاً هذه الحيوانات هي أمم أمثالنا لها تقاليدنا وأنظمتها وحياتها كما نحن لنا حياتنا وتقاليدنا، وهي مثلنا في الخلق والرزق والموت والبعث:

○ قال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ﴾ الأنعام/38، هي تدرك وتعي وتفهم، لها نظام اجتماعي قائم بذاته تمر بمرحلة الغضب والفرح والحزن والتعب وتتكلم بل وتشتكي ففي صحيح البخاري أنه ذكر: ﴿بَيْنَا رَجُلٌ يَسُوقُ بَقْرَةً إِذْ رَكِبَهَا فَضَرَبَهَا، فَقَالَتْ: إِنَّا لَمْ نُخْلَقْ لِهَذَا إِنَّمَا خُلِقْنَا لِلْحَرْثِ، فَقَالَ النَّاسُ: سُبْحَانَ اللَّهِ بَقْرَةٌ تَتَكَلَّمُ! فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: فَقَالَ: فَإِنِّي أُوْمِنُ بِهَذَا﴾، أليس هذا تأكيداً أن الحيوانات تدرك وتعي وتفهم.

○ وفي زمن رسول الله ﷺ: ﴿أَنْ جَمَلًا قَدْ اشْتَكَى إِلَيْهِ التَّعْبَ وَالْعِذَابَ الَّذِي يُلَاقِيهِ مِنْ صَاحِبِهِ، دَخَلَ ﷺ حَائِطًا لِرَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ فَإِذَا جَمَلٌ، فَلَمَّا رَأَى النَّبِيَّ ﷺ حَزَّ وَذَرَفَتْ عَيْنَاهُ، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ فَمَسَحَ سَرَاتَهُ إِلَى سَنَامِهِ وَذَفَرَاهُ فَسَكَنَ، فَقَالَ: مَنْ رَبُّ هَذَا الْجَمَلِ؟، فَجَاءَ فَتَى مِنَ الْأَنْصَارِ فَقَالَ: لِي يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ: أَلَا تَتَّقِي اللَّهَ فِي هَذِهِ الْبَهِيمَةِ الَّتِي مَلَكَكَ اللَّهُ إِيَّاهَا فَإِنَّهُ شَكَا إِلَيَّ أَنَّكَ تُجِيعُهُ وَتُدْتَبُهُ﴾⁽¹⁾.

¹ - رواه أبي داود.

فسبحان الذي خلق فسوى وأقرت كل الكائنات بالعبودية لله عز وجل،
فكيف نعذبها ونتعيبها بالحمل الزائد ولا نطعمها .

○ قال ﷺ: ﴿لَا تَسُبُّوا الدِّيكَ فَإِنَّهُ يُوقِظُ لِلصَّلَاةِ﴾^(١).

هذه الكائنات خضعت وانقادت لربها وأكثر الناس رفضت وأنكرت خالقها، قال
تعالى:

○ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ
وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ
عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ الحج/18.

هناك شجر وحجر مؤيدة لأهل الدين، ويتدخلون لنصرة المسلمين كيف هذا؟!

تعالوا نتابع:

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

○ ﴿لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُقَاتِلَ الْمُسْلِمُونَ الْيَهُودَ فَيَقْتُلُهُمُ الْمُسْلِمُونَ حَتَّى
يَخْتَبِيَ الْيَهُودِيُّ مِنْ وَرَاءِ الْحَجَرِ وَالشَّجَرِ فَيَقُولُ الْحَجَرُ وَالشَّجَرُ يَا
مُسْلِمُ يَا عَبْدَ اللَّهِ هَذَا يَهُودِيٌّ خَلْفِي تَعَالِ فَأَقْتُلْهُ﴾^(٢).

¹ - رواه أحمد وأبو داود .

² - رواه البخاري .

فمن أراد بهذا الحديث بالمعنى المجازي، نقول لهم تابعوا فلسطين المحتلة
واسألوا اليهود كم يزرعون من شجر الفرقد لكي تحميهم خلفها .

وفي رواية ابن ماجه قال رسول الله ﷺ:

○ ﴿إِنَّا الْغَرْقَدُ فَإِنَّهَا مِنْ شَجَرِهِمْ لَأُتَنَطَّقُ﴾ .

أليس كل هذه الآيات والأحاديث النبوية تدل دلالة أكيدة على عظمة مبدع
السموات والأرض، فكيف نحن بني البشر أكثرنا نكذب أنبياء الله ورسالاته وما
زال الكثير من بني آدم يشركون بالله بل وينكرون وجوده .

عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ:

○ ﴿يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ وَشَتَمَنِي وَلَمْ
يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا وَأَنَا اللَّاحِدُ الصَّمَدُ
لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفْوًا أَحَدٌ﴾⁽¹⁾ .

فانظروا رعاكم الله إلى بني البشر وبقية خلق الله، كلهم أقروا العبودية لله عزَّ
وجل:

○ ﴿إِن كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ مريم/93 .

الكل تحت العبودية والخضوع الكامل لخالق الكون ولم يعترض إلا هذا الإنسان الذي
أكرمه الله وفضله على بقية مخلوقاته، بل وازداد وقاحة أنه افتري على الله تعالى:

○ ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ مريم/88 .

بل ومنهم استكبروا حتى جعل الأنا تطفئ فيصنف نفسه كما قال فرعون:

¹ - رواه البخاري .

○ ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ اللَّاعِلَى﴾ النازعات/24.

ومنهم من أشرك بالله:

○ ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلّهِ أُنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ البقرة/22.

ولكن موعدهم قريب وعذابهم عظيم قال تعالى:

○ ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ الحج/18.

لأنهم اتبعوا أهواءهم وشهوات نفوسهم المريضة فانحرفوا وضلوا ضلالاً بعيداً. إلا من رحمه ربه، يا بن آدم إن لم تعقل أوامر الله فأنت أحمق جاهل ألا تستحي من الله... ألا تستحي من الحجر من الجبال التي تحب الله ورسوله، قال ﷺ عن جبل أحد: ﴿هَذَا الْجَبَلُ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ﴾⁽¹⁾.

كلهم عبيده ويخافونه أقرؤا الخضوع والانقياد له:

○ ﴿وَيَسْبِحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾ الرعد/13.

حتى الظلال أقرت بعبوديتها لخالقها قال تعالى:

○ ﴿أَوْ لَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ضَلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجُداً لِلّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ النحل/48.

انتظروا قليلاً وتعالوا نتمعن بهذه الآية الكريمة:

○ قال تعالى: ﴿إِن كُُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾

التحريم/93.

¹ - رواه البخاري.

حتى الملائكة عباد الله قال تعالى:

○ ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ الأنبياء/26.

○ قال تعالى: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ التحريم/6.

يؤمنون بالله ويسبحونه ويدعون للمؤمنين بالمغفرة.

○ قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ

وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ غافر/7.

○ ﴿الْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ الشورى/5.

هم في حالة تسبيح دائم لا يفترون ولا يملون قال تعالى:

○ ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ الأنبياء/20.

ونقيض عن جنس الملائكة الكرام جنس الجن مكلفين كما بني البشر.

○ قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ الذاريات/56.

فالكثير الكثير منهم ضلوا السبيل وعلى رأسهم الشيطان الرجيم عتواً واستكباراً.

ولكن منهم من آمنوا واستمعوا للقرآن الكريم بل وأنصتوا إليه بإصغاء تام وفهموا

أنه يهدي إلى الحق ويا أسفاه إلى يومنا هذا الكثير من بني آدم قلوبهم وعقولهم

لاهية عن سماع صوت الحق.

○ قال تعالى: ﴿قُلْ أُوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا

عَجَبًا﴾ 1﴿ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ الجن/2⁽¹⁾.

فيا أمة القرآن هنيئاً لكم بحمل راية التوحيد في الأرض، واستحقت هذه الأمة أن تكون الخيرية فيها وبأبنائها، قال تعالى:

○ ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ آل عمران/110 .

فأنتم العقلاء الذين عقلتم أوامر الله عز وجل، وكثيراً من خلق الله عقلوا أوامره، سبحانك اللهم بديع السموات والأرض ولا حول ولا قوة إلا بك.

فهرس الأشكال

- الشكل رقم 1: أقسام الدماغ.....26
- الشكل رقم 2: القشرة الدماغية والجسم الجاسئ.....27
- الشكل رقم 3: الخلية العصبية.....29
- الشكل رقم 4: المشبك العصبي.....30
- الشكل رقم 5: تشريح العين.....36
- الشكل رقم 6: تشريح الجلد.....38
- الشكل رقم 7: تشريح حليلة ذوقية.....39
- الشكل رقم 8: تشريح الأذن.....41
- الشكل رقم 9: جهاز التوازن في الأذن.....41
- الشكل رقم 10: بنية الـ D.N.A.....55
- الشكل رقم 11: تشكل البروتينات في الخلية.....56
- الشكل رقم 12: قلب طبيعي...قلب اصطناعي.....72
- الشكل رقم 13: طبقات الغلاف الجوي.....370

المحتويات

5.....	تمهيد: انحطاط فكر الإنسانية وأثر الإسلام في التغيير الفكري عند العرب
13.....	البحث الأول: خلق الإنسان العاقل
16.....	الفرع الأول: ماذا قيل عن العقل
20.....	الفرع الثاني: حقيقة العقل
25.....	البحث الثاني: الجهاز العصبي للإنسان
34.....	الفرع الأول: هل العقل البشري موجود في الدماغ
36.....	الفرع الثاني: العقل المسموع البوابات الإدراكية للعقل الواعي
49.....	البحث الثالث: العقل الواعظ والضابط للنفس البشرية
55.....	البحث الرابع: توريث الصفات بين الوراثة والبيئة
63.....	البحث الخامس: المورثات السلوكية الموجودة في جلة الإنسان
69.....	الفرع الأول: حادثة شق صدر الرسول الكريم ﷺ
79.....	الفرع الثاني: القلب أمير البدن
91.....	البحث السادس: العقل وأمانة التكليف الشرعي
97.....	البحث السابع: خواص النشاط العقلي
99.....	الفرع الأول: الإدراك العقلي
103.....	الفرع الثاني: الفهم العقلي (العقل وصراع الأفكار)
113.....	الفرع الثالث: أداة العقل العلم والمعرفة
120.....	الفرع الرابع: الوعي العقلي
126.....	الفرع الخامس: التمييز العقلي
129.....	الفرع السادس: التفكير العقلي

143.....	الفرع السابعة: الصفات الضابطة للنشاط العقلي
149.....	البحث الثامن: العقل وصراع الإرادات
167.....	البحث التاسع: منزلة التقوى نور العقل وشرفه
173.....	البحث العاشر: ثمرات أعمال العقل
253.....	البحث الحادي عشر: تهافت عقول الأشقياء
287.....	البحث الثاني عشر: لا تناقض بين العقل والنقل
295.....	البحث الثالث عشر: المهارات التفكيرية لأولي الألباب وصفاتهم
341.....	الفرع الأول: معجزة الكلمة القرآنية عند الاستماع والإنصات إليها
355.....	البحث الرابع عشر: القرآن الكريم المعجزة الفكرية الخالدة
373.....	البحث الخامس عشر: القرآن الكريم معجزة فكرية في لغة كلماته
381.....	البحث السادس عشر: خلق الله جميعاً يسبحون بحمده